الموسوعة الإسلامية العربية

(١٦)

التربية وبناء الأجيال
في ضوء الإسلام

بقلم
أنور الجندي

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب اللبناني
برقيا : كتالبان - بيروت
ص.ب : ٣١٧٦
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى ١٩٧٥

التربية وبنـــاء الأجيال
في ضوء الاسلام

أبعاد البحث ومضامينه

الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل الى البحث

هناك سؤال يطرح نفسه في أفق العالم الإسلامي بقوة ، وتلح الأحداث المتصلة في طلب الإجابة عليه ، وهي تقدمه اليوم على كل سؤال ، هذا هو :

ما هو الخنجر الذي طعن به المسلمون ؟

لقد تحدث المصلحون عن مقاتل متعددة أصيب بها المسلمون في كيانهم وركزوا على كل واحد منها على أنه هو الأساس والمصدر والهدف ، وترددت الإجابات بين سيطرة القانون الوضعي على الشريعة الإسلامية أو سيطرة الاقتصاد الغربي بشطريه على الاقتصاد الإسلامي أو سيطرة النظام السياسي الغربي على المسلمين أو سيطرة مفاهيم القومية والإقليمية والوطنية والعنصرية على مفهوم الإخاء الإسلامي .

ولكن امراً من ذلك كله لم يكن أشد خطراً من احتواء الركن الركين في بناء الامم : احتواء التربيـة والتعليم ، فذلك هو الخنجر الذي طعن به

المسلمون في كل هذه المقاتل وهو الذي يتحتم عليهم اولاً ان ينزعوه من جسمهم قبل ان يعالجوا هذه المقاتل جميعاً، ذلك لأن أي علاج يسبقه سوف لا يؤدي الى أي رجاء يرتجى بالبرء والشفاء ، ما دام قائماً ينزف دماً ، ولن يكون لأمر ما من إصلاح أو تصحيح أو تحرير أو علاج ، أي أثر حاسم قبل ان يبدأ العمل من نقطة الصفر الأساسية : وهي نقطـــة الخنجر المغروس الذي ما زال ينزف بالدم .

ذلك الخنجر هو في حقيقة الأمر : التربية والتعليم التي سيطر عليها النفوذ الاستعماري واحتواها وعندما انحسر ظـله لم يسلمها الى أهلها مرة اخرى بل مضت تدار بإشراف اوليائه وتحت لواء اتباعه .

هذا هو الخنجر المغروس في الجسد الإسلامي والذي ما يزال ينزف دماً .

ولقد كان المستعمرون غاية في الدهاء والمكر والبراعة عندما بدأوا معركتهم من المدرسة وعن طريق برامج التعليم ومن خـــلال الإرساليات التبشيرية التي سبقت ووضعت منــاهج التعليم وألزمت وزارات المعارف والتعليم بأن تنقل مناهجها وتطبقها .

وقد استطاعت قوى الاستعمار ان تفرض هذه المناهج على المدارس الأميرية، ولم يسلم منها إلا قليل من المدارس الأهلية في مراحلها الاولى، ولكن ما لبث شبابها ان وضعوا في البوتقة عندمـا وصلوا الى الدراسات العليا الجامعية التي كانت في قبضة حديدة من الاستعمار والتغريب حتى لا يفلت أحد ممن سيوكل اليهم أمر الصدارة والقيادة في المجتمعات الإسلامية .

وكانت المناهج والمقررات والكتب قد أعدت تمامـــاً ، وكانت المناهج والكتب القديمة قد أعدمت تماماً حتى لم يبق منها أي آثار للمراجعة التاريخية؛ ومن عجب ان داراً مثـــل دار الكتب المصرية وقد أنشئت قبل الاحتلال البريطاني لا تجد فيها ورقة تسجل المناهج أو المقررات التي كانت قبل الاحتلال.

هذه هي القضية كما يقولون : وإذا كنا نواجه اليوم مقاتل نازفة في مواقع خطيرة من فكرنا ومجتمعنا فإنما مردّ ذلك كله الى هذا الخنجر المدفون في اعماق الجسم الإسلامي.

وإذا كان المسلمون قد طعنوا في شريعتهم فاقصيت عن مجال التطبيق في مجتمعاتهم وحلّ محلها القانون الوضعي ، فإن مرد ذلك الى « التعليم » الذي خرج اجيالاً تحتقر الشريعة وتؤمن بعظمة قانون نابليون ، وإذا كان المسلمون قد طعنوا في لغتهم وبرزت دعوى «العاميات» في مختلف انحاء الوطن العربي وأكرهت امم إسلامية كثيرة على تغيير ابجديتها فإن مرد ذلك الى مناهج التعليم التي خدعت العرب والمسلمين بدعوى عظمة اللغات الأجنبية ودخول «اللاتينية» الى المتحف فلماذا تبقى «العربية» العجوز .

وإذا كان المسلمون قد طعنوا في مفهومهم الإسلامي للاقتصاد فإنما يرجع ذلك الى ان المسلمين والعرب درسوا في مدارس الإرساليات وفي المدارس الوطنية ايضاً ، وفي الجامعات درسوا أنظمة الاقتصاد الرأسمالي والماركسي على أنها هي وحدها الانظمة الموجودة في العالم ، وان الربا هو القاسم الأعظم على كل الأنظمة والمشروعات .

وإذا كان المسلمون قد طعنوا في مفهومهم السياسي الإسلامي فإنما يرجع ذلك الى تلك الصور البراقة التي قدمت لهم في مدارسهم وجامعاتهم عن الديمقراطية والليبرالية والجماعية وغيرها من أنظمة الغرب فخدعتهم .

وإذا كان المسلمون قد طعنوا في مفهومهم للعلم فإنما يرجع ذلك الى تلك المقررات المدرسية والجامعية التي ترد العلوم الحديثة من كيمياء وفيزياء وفلك وطبيعة وتكنولوجيا الى علماء الغرب وحدهم متجاهلة ذلك الدور الخطير الذي قام به المسلمون والعرب في بناء الطابق الأساسي الأول من مؤسسة العلم العالمية وأنهم هم الذين قدموا المنهج العلمي التجريبي الى البشرية كلها .

وإذا كان المسلمون قد طعنوا في مفاهيمهم الاجتماعية فإنما مردّ ذلك الى مناهج التعليم التي تدرس المجتمعات الغربيـة ومنهج مدرسة العلوم الاجتماعية الذي يقوم على إنكار فطرية الاسرة وأصـالة الدين وثبات الأخلاق ، وتدعو الى التطور المطلق والى الجـبرية الاجتماعية ؛ كل ذلك يدرسه أبناء المسلمين في مدارسهم ومعاهدهم وجامعاتهم على أنه حقائق مقررة لا على أنهـا نظريات مؤقتة مرتبطة ببيئاتها وعصورها ، قابـلة للخطأ والصواب ، لأنها من نتاج عقليات بشرية تخطىء وتصيب .

هذا هو الخطر الواضح من وراء الخنجر الذي طعن به المسلمون ؟

ومفهوم هـذا الخطر هو ان النفس الإسلامية في العالم الاسلامي كله من حيث إنها انحسرت في بيوتها مفاهيم الثقافة الإسلامية القائمة على القرآن والسنّة وضعفت فيهـا القدوة التي تبني الشباب فإنها تسلم الى المدرسة شباباً غضّاً ، يحس بالفراغ في مجال وجدانه وعاطفته وفكره ، فلا يجد الى مفاهيم الإسلام سبيلا ، ثم إذا بـه يلتقي بتلك المناهج التي تصور له فكر الغرب على صورة العقيدة ، وتملأ نفسه بحب تاريخ الغرب وترفع في نظره شأن الغرب ، وتقدم له العلم والاقتصاد والقـانون والاجتماع ، من نتاج مجتمعات اخرى على أنه هو الفكر الإنساني ، والثقافة البشرية .

وأين الفكر الإسلامي في ذلك كله والمسلمون لهم منهج حياة كامل ، ولهم مفهوم جامع للحياة والمجتمع ، والسياسة والاقتصاد والتربية ؟

هذا كله مما لا يزال ضائعاً ، ولا يزال ناقصاً ، ولا يزال مهملا .

ومن هنا فإن هذه النفس المسلمة التي عجزت عن ان تملأ فراغها الروحي والفكري بمقدراتها وقيمها لا بـد ان تملأه باي شيء ، ومما يقدم اليها زاهياً براقاً في كتب ملونة مزخرفة ، بينما هي تعجز عن ان تجـد من فكرها ما يرد عنها الخطر أو يصحح لها الشبهات أو يزيح عنها ظل التغريب والاحتواء.

تلك هي القضية الأولى في التحدي الخطير الذي يواجهه المسلمون اليوم في كل مكان ، ومن خلال هـــذه النقطة نصل الى كل قضية والى كل أزمة والى كل موقف .

فمن خـلال الطريق الطويل استطاعت قوى الصهيونية والاستعمار ان تحقق ما وصلت اليه لأنها استطاعت ان تبث فكرها في النفس الإسلامية وان تحتويها وان تنقلهامن دائرة الإسلام المرنة الجامعة المتكاملة الوسطية الى دائرة الغرب المغلقة القاتلة .

ومن هذه النقطة بالذات نستطيع ان نصل الى كل ما نطمح فيه من وحدة وتقدم وقيام أمة الإسلام في أرضها بدورها الرباني الإنساني العالمي الذي هو فريضة محتومة والذي هو حق في أعناقنا جميعاً ، والذي يجب ان نلتقي عليه صادقين وإلا فنحن آثمون مقصرون مأخوذون بجريرة الذنب .

(٢)

يردّ بعض الباحثين أزمة التربية والتعليم الإسلامية الى وصول الحملة الفرنسية أو الاحتلال البريطاني لمصر أو الفرنسي للجزائر أو الى محاولات محمد علي في الجري وراء التبعية الغربية تجاوزاً للأزهر وحجباً له ، ملتقياً في ذلك مع الفرنسيين الذين عرفوا مقاومة الأزهر ، وما عرفه محمد علي من معارضة علماء الأزهر وعلى رأسهم عمر مكرم لاستبداده واهوائه .

ولكن الأمر أبعد من ذلك كثيراً وأشد عمقاً .

ونحن نعرف ان معركة حاسمة دارت بين الإسلام والغرب في مواطن مختلفة ، جاءت باسم الحروب الصليبية في قلب عالم الإسلام، عايشها المسلمون بالمقاومة والجهاد قرنين كاملين وانتهوا منها بالنصر المؤزر كما انتهى عدوهم بالهزيمة الساحقة، ولم يكن هذا نهاية الشوط بالنسبة للغرب ولم يتوقف طموحه في السيطرة على ارض الإسلام وبلاد الإسلام .

ومن قلب الحروب الصليبية وهزائم الغرب نبت جذر تلك المؤامرة على أيدي المهزومين ؛ لقد نتجت عن الهزيمة فكرة خطيرة قالت هذه الفكرة :

إذا لم يكن السيف قادراً على السيطرة على المسلمين فليكن ذلك عن طريق الكلمة... كان المعروف ان المسلمين قد غلبوا الغرب ودحروه لأنهم متقدمون حضارياً وعسكرياً، ومن خلال هذه المعارك انقض الغرب على ميراث المسلمين

ومناهجهم وعلمهم فاستوعبه ثم دك المعاقل وأخرج منها أهلها واستولى على الجامعات والمعاهد والوثائق ؛ وقطع طريق العدوة بين المسلمين وأوربا .

ومع محاولات الغرب الى ترجمة الفكر الإسلامي والسيطرة على ارض هذا الفكر في الأندلس وإخراج المسلمين منها كانت وصية لويس التاسع هي الضوء الكاشف أمام الغرب حين قرر ان تكون الحرب الموجهة الى عالم الإسلام هي حرب الكلمة وحرب الفكر، ذلك ان الغرب كان يعلم ان المسلمين لن يهزموا ولن يستوعبوا ولن يوضعوا في قبضة الغرب إلا إذا سقطت تلك المنارات العالية من مفاهيم الجهاد والمقاومة والحرية والتميز بالتوحيد والقرآن ، هذه العقيدة الراسخة كانت هي القوة الضخمة التي كونت عالم الإسلام ، وكانت ولا تزال وستظل القوة القادرة على دحر كل من يتصدى له .

إذن فلا بد ان تبدأ المعركة من هذه النقطة الخطيرة :

من نقطة تزييف العقيدة وامتصاص حيوية الدعوة ، وتفريغها من مضامين القوة والإيمان والجهاد حتى يفقد المسلمون هذا السر الخطير وحتى يصبحوا قطيعاً من السائمة التي يمكن ان تطوى وتقهر .

هكذا كانت وصية لويس التاسع بعد هزيمته في المنصورة تكشف عن هذا التحول في الحروب الصليبية من السيف الى الكلمة ؛ وهو ما يمثل الموجة الاستعمارية العصرية . لقد كانت نهاية الحروب الصليبية بداية حرب الفكر والكلمة ، ومنطلق المخطط الجديد للغزو الفكري والثقافي ومحاولة دحر الإسلام (كفكر) بعد العجز عن القضاء عليه كقوة سياسية وامة قائمة .

وتعدّ وصية لويس التاسع أخطر وثيقة في هذا الاتجاه فهي التي فتحت الباب واسعاً أمام معركة قوامها[التبشير والاستشراق والغزو الثقافي والتغريب] وقد قامت على أثرها مباشرة حركة أوربا المعروفة الى ترجمة القرآن والتعرف على الإسلام ومن ثم أخذت تتشكل تلك النواة في المعاهد الغربية وفي الكنائس

ترمي الى دراسة اللغة العربيــة والإسلام والقرآن للكشف عن الجوانب التي يمكن الوثوب منها والبحث عن النقــاط موضع الخلاف بين الفقهاء والمفسرين والروايات الضعيفة والشبهات وتجديد مــا أثارته الشعوبية والباطنية والقوى المعادية للاسلام وتنسيقه من جديد وإذاعته على أنه علم عصري يقوم على الدليل والبرهان .

وقد ظاهر هذه الحركة ـ لكي تتم محاصرة الفكر الإسلامي ـ عملية نقل التراث الإسلامي من البـــلاد العربية والإسلامية بواسطة القناصل والتجار ، وهي عملية استيلاء مكملة لما تمّ في الأندلس من سيطرة على الجامعات والمعاهد وإخراج المسلمين منها ، على الرغم من قاعــدة المسلمين الأساسية الواضحة التي كانت تؤمن بأن العلم للجميــع ، حتى العلم التجريبي ، وليس من أسرار الأمم كما تصنع الدول الحديثـــة لتحول دون المسلمين خلال قرن ونصف قرن من الحصول على أصوله ومعادلاته مع أنهم هم الذين وضعوا أسسه وقواعده وساهموا في بناء ركائزه ومقوماته .

لقد كان المسلمون في جامعات الأندلس وصقلية يفتحون كل الأبواب للعلم ولا يردون غريباً عنه ، إيماناً بوصية دينهم ، غير ان الغرب في تناهي حقده وتعصبه لم يقف عنــد حد التوصل الى مفاتيح العلوم ، بل إنه صادر الموقع الإسلامي كله وأخرج منه أهله إخراجاً ، وسيطر على كل المقدرات العلمية ثم ادعاها لنفسه وأعلن تبجحاً ولؤمــاً وخسة بأن المسلمين لم يكن لهم أي دور في بناء العلوم . وقد صادر كل ما كان في أيدي المسلمين حين أخرجوا من بلادهم الى الحد الذي أعجزهم عن ان يستأنفوا تجاربهم في الارض العربية التي هاجروا اليها .

ولقد كانت نصيحة لويس التاسع ووثيقته التاريخية تدعو الى هذا الاتجاه وترسم خطواته .

لقد بلغ لويس التاسع درجة القداسة في نظر الغرب لأنه حارب من اجل إخضاع المسلمين فهزم في مصر وقتل في تونس ، وإذا كانت الحملات الصليبية قد توقفت منذ استعاد المسلمون (عكا) بقيادة الأشرف خليل عام (٦٩٠ هجرية ١٢٩١ ميلادية) وعلى أثر ذلك قامت الدولة العثمانية الكبرى بعدتسع سنوات من سقوط الحروب الصليبية وهزيمة أوربا وانحسارها عنبلاد الإسلام، هذه الدولة التي استمرت قائمة تحمي لواء الإسلام وتذود عن كيانه حتى عام ١٢٣٧ هجرية الموازية لعام ١٩١٨ الميلادي أي انها استمرت تحمل لواء الإسلام خمسة قرون ونصف القرن .

نقول : إذا كانت الحملات الصليبية قد توقفت منذ عام ٦٩٠ هجرية فإن أوربا لم تتوقف ، فقــد بدأت حركتها كرة اخرى بعـد وقت قصير حين تدافعت بعد سقوط الأندلس على الطريق الإسلامي الإفريقي من ناحية الغرب دون توقف: الاسبان والبرتغال ومنورائهم الإنجليز والفرنسيون والهولنديون.

أما في أفق البلاد العربية فقد كان عام ١٧٩٨ هو علامة الخطر حينبدأت فرنسا في غزو مصر ولم تمر غـير سنوات قليلة حتى كانت الحملة على الجزائر ، ومنها امتدت الى تونس فمصر والسودان ، ومنـذ ذلك اليوم أخذت طلائع التبشير تظهر ، وطفقت حركة الاستشراق تزدهر ، وكانت بؤرة العمـل هي ساحل البحر الأبيض الشرقي والجنوبي في مواجهة الشام من ناحية واستانبول من ناحية ومصر والجزائر من كل ناحية ونقلت المطابع وبدأت الإرساليات ، وتصارعت قوى البروتستانت الأمريكية وقوى الكاثوليكالفرنسية وتنافست علىاستيعاب أبناء المسلمين، ثم جاءت حكومات الاستعمار في كل البلاد العربية فأخذت مناهج مدارس الإرساليات ونفذتها توّاً .

وفي عـــديد من مصادر تاريخ اللقاء بين الإسلام والغرب نجد إشارة الى وصية لويس التاسع الذي كان أول من أشار الى تجنيـد المبشرين في معركة

الكلمة لمحاربة تعاليم الإسلام ووقف انتشاره ثم القضاء عليه معنوياً واعتبار هؤلاء المبشرين في تلك المعركة جنوداً للغرب .

ومنذ ذلك الوقت اختيرت قاعدة العمل في قلب البلاد العربية واتخذت نقطة ارتكاز ومعقلاً لمعركة العقائدية والفكرية التي تستهدف حصار الإسلام والوثوب عليه، وقد اختيرت هذه الأراضي الممتدة على شاطىء البحر الأبيض الشرقي مسرحاً لهذا العمل منذ ذلك الوقت وتحركت أطراف العمل بين بيروت والقاهرة والقسطنطينية ؛ وفي نفس الوقت كان هناك عمل مماثل يتحرك في تونس والجزائر ومراكش وأعمال اخرى في مختلف اجزاء العالم الإسلامي وفي جاوه واندونيسيا والفيليبين .

ولقد سجل أحد الباحثين المشتغلين بالتبشير في أكبر مؤسساته هذه الظاهرة تسجيلاً صريحاً لا يدع معه مجالاً للشك الذي قد يراود بعض حسني الظن في صحة هذا المخطط وصدق الإرادة في العمل له .

ويصور (نبيه أمين فارس) خطة لويس التاسع ومداها في عبارات واضحة صريحة ؛ يقول :

« بينما كان الشرق الأدنى مطمحاً لأفكار بناة الامبراطوريات كان ايضاً مطمح انظار جماعة اخرى من الناس تنشد ان تنجز عن طريق الكلمة ما عجز اجدادها الصليبيون عن تحقيقه عن طريق السيف . وبعبارة اخرى تنشد احتلال مهد المسيحية وإخضاع العالم كله للمسيح. إن هذا الحلم المسيحي قديم قدم المسيحية ذاتها ، وهو يستمد وحيه الدائم من الوصية التي سجلها أول المبشرين: (القديس لويس) ولعل سبب سيطرة هذه الوصية كرة اخرى على عقول المسيحيين يعود الى اليقظة الدينية التي عمت انكلترا في اواخر القرن الثامن عشر واليقظة الدينية المقابلة لها في الولايات المتحدة التي تمثلت فيما سمي بروح انكلترا الجديدة . وعلى ذلك فقد شهدت السنوات الاخيرة من

القرن الثامن عشر والسنوات الاولى من القرن التاسع عشر ظهور كثير من الجمعيات التبشيرية التي كرست نفسها لحمل الإنجيل الى جميع البشر ، ويمكن ان يضاف الى هذين العاملين عامل آخر هو ازدياد المطامع السياسية والاقتصادية في ممتلكات رجل أوربا المريض (يقصد الدولة العثمانية الإسلامية). ومن المحتمل ان يكون لهذا العامل الأخير علاقة باختيار الشرق الأدنى ميداناً مفضلاً للنشاط التبشيري » .

وهكذا نجد نصاً صريحاً واضحاً يكشف عن آثار وصية لويس التاسع التي دعت الى استعمال الكلمة بدلاً من السيف في السيطرة على عالم الإسلام وقد كان ذلك عام ٦٤٧ هجرية تقريباً. وقد أشار كثيرون الى وصية لويس: يقول رينيه جروسيه مؤرخ الحروب الصليبية « إن الملك لويس التاسع هو في مقدمة ساسة الغرب الذين وضعوا للغرب الخطوط الرئيسية لسياسة جديدة» وان هذه السياسة تتمثل في تحويل الحملات الصليبية العسكرية الى حملات صليبية سلمية تستهدف الغرض نفسه وان يكون أحد اسلحة الحملات الجديدة هو الدس بين العرب وإثارة الخلافات والعمل على بقاء نارها مستعرة بين الأمراء المسلمين . ومن أهم أسلحة الحملة الجديدة تجنيد المبشرين الغربيين في معركة سلمية لمحاربة تعاليم الإسلام ووقف انتشاره والقضاء عليه معنوياً واعتبار هؤلاء المبشرين في تلك المعارك جنوداً للغرب ، كما دعا الى استخدام من يمكن إغراؤهم من مسلمي الشرق في تنفيذ سياسة الغرب ، وإنشاء قاعدة للغرب في قلب الشرق العربي تكون بمثابة نقطة ارتكاز له ولدعوته السياسية والدينية ؛ ومنها يمكن حصار الإسلام والوثوب عليه » [١] .

---

(١) راجع محمد علي الغتيت : كتاب الشرق والغرب من الحروب الصليبية الى حرب السويس (المرحلة الاولى) .



الباب الأول

الغزو التربوي والتعليمي والثقافي

الفصل الأول

مدارس الارساليات

بدأ الغزو التربوي والتعليمي والثقافي للعالم الإسلامي من نقطة واحدة هي « مدرسة الإرساليات » وامتد منهـــا الى الجامعة ، ثم امتد من الجامعة الى الصحافة ومجالات الثقافة المختلفة .

لقد اتخذت الإرساليات التبشيرية بنـاء على وصية لويس التاسع خطواتها في أوربا للعمل في مواجهة الإسلام عن طريق الكلمة ثم اختارت الموقع الذي جعلته نقطـــة ارتكاز وانطلاق لدعوتها في بيروت التي أعدت لذلك إعداداً سياسياً واجتماعياً واضحاً .

ثم تقدمت الإرساليات على خطين : خط الإرساليـــات البروتستانتية الأمريكية ، وخط الإرساليات الكاثوليكية الفرنسية ، ومن ثم وضعت فلسفة تربوية غربية تتراوح بين مذهبين مختلفين: هما في الأصل يستمدان أساسها من المسيحية الغربية ولكنها يختلفان في الطريقة ويصلان في الغـــاية الى هدف واحد هو استيعاب الشباب العربي والمسلم واحتواؤه وتعليمه على نحو يجعله يداً من ايدي القوة الغربية وعيناً من عيونها .

ومن الناحية التاريخية يمكن القول إن بداية الغزو الغربي في مجال التربية والتعليم والثقافة بدأ في مصر بعد الحملة الفرنسية مباشرة وفي خلال حكم محمد علي وعن طريق الخبراء الذين استقدمهم هـذا الوالي ، وكانوا من رجال الثورة الفرنسية ولهم مفاهيمهم التي صاغتها هـذه الثورة وفرضتها على فرنسا كمقدمة تفرضها على أوربا جميعاً وعلى الفكر العربي كله .

ومن انطلاقة محمد علي الى سوريا وانحساره عنها كانت القوى الراصدة قد أعدت نفسها للعمـل ، ووضعت لبنان في الظروف التي هيأته للانفصال عن الدولة العثمانية ١٨٦٠ واستقلاله ومن قبـــل ذلك كانت بعثات التبشير قـد ارتادته وأعـدت خططها ، وفي الجزائر كانت بعثات التبشير قـد بدأت مع الاحتلال ١٨٤٨ تقريباً، أما في مصر فقد جاءت في عصر اسماعيل واستطاعت ان تحصل على الأراضي والمعونات وتركز نفسها كمقدمة لدورها بعد الاحتلال ١٨٨٢ . وهكذا انتشرت الخطة في رواق العالم الإسلامي كله وتأهلت للعمل الذي تركز اولاً واخـيراً في السيطرة على التربية والتعليم ثم الثقافة من اجل احتواء الأجيال وإعدادها .

وعندمـا سيطر الاحتلال كانت منـــاهج مدارس الإرساليات سواء في استانبول أو بيروت أو القاهرة هي الخطط الأساسية التي نقلت الى المدارس الوطنية مع تعديلات يسيرة .

وعندما خرّجت جامعــــات الإرساليات في بيروت أول افواجها بعثت هذه الأفواج الى مصر والى شمال افريقيـا كله لتحمل لواء الصحافة . وليس بعجيب ان تكون الصحافة العربية كلها من إخراج المارونيين خريجي الجامعة الأمريكية وجامعة القديس يوسف .

وحتى نقف على ارض صلبة في مجـال البحث نشير الى مـا أورده (نبيه أمين فارس) في وثيقته التاريخية [١] التي كشف فيها عن خطة لويس التاسع

---

(١) مجمع الابحاث : ايلول ١٩٥٨ م ١١ ص ٣٨٣ .

التي اتجهت اليها القوى الاستعمارية واتخذتها اسلوباً للعمل ؛ يقول :

من أهم الجمعيـات التبشيرية التي ظهرت في هـــذه الفترة الجمعية التبشيرية الكنسية التي أسست في لنـدن ١٧٩٩ والمجلس الأمريكي لمندوبي البعثات التبشيرية، وقد أرسل المجلس الأمريكي بعد تسع سنين من تأسيسه أول مبشريه الى الشرق الأدنى . و كانت المشكلة الاولى التي واجهت اولئـــك المبشرين هي اختيار مركز ملائم لهم . وقـدم سوريا عام ١٨٢٣ مبشران آخران وانتقلوا الى بيروت ، وكان غرض البروتستانتيين ان يتمكنوا بالاشتراك مع كنائس الشرق الناهضة من كسب الكفار الى دين المسيح ، غير أنهم سرعان ما وجدوا ان الإسلام لم يكن قد فقـد سيطرته على قلوب المؤمنين . وصمم المبشرون منذ البداءة على استعمال الكلمة حيث فشل استعمال السيف . وفي سبيل هذه الغاية أسسوا المطبعة الأمريكية اولاً في مالطة ١٨٢٢ ثم في بيروت ١٨٣٤ ، وأخـذوا يفتحون مدارس للبنين والبنات بصورة منتظمة حتى بلغ عدد هذه المدارس ثلاثاً وثلاثين في أقـل من هذا العدد من السنين ، وعكفوا على إنجاز تلك المهمة العظيمة : مهمة إعداد ترجمـــة عربية صالحة مقروءة للتوراة ، وعدوا فوق ذلك حمـل لواء الحرية الدينية بصورة خاصة والمطلقة بصورة عامة ا.هـ .

ذلك هو المدخل الى مخطط غزو العقل العربي الإسلامي والنفس العربية الإسلامية عن طريق الكلمة وهو مدخل إن بدا يسيرا في هذه الفترة فإنه قد اتسع من بعد حتى سيطر على مختلف اجهزة التعليم والتربية والثقافة واحتوى الجامعات العربية والمدارس بأنواعها وحول مجرى الأمة كلها الى تبعية خطيرة.

(٢)

يعدّ عام ١٨٦٥ علامة على بدء تنفيذ الخطة في بيروت بإنشاء أول مؤسسة ضخمة في قلب الوطن العربي يبدأ منها تاريخ الإرساليات :

يقول برهان الدجاني في بحثه المطول [١] : الجامعة الأمريكية في بيروت كانت تحمل اسم الكلية السورية الإنجيلية ، وكانت تعتبر عملها رسالة تبشيرية غايتها نشر المسيحية بالمذهب البروتستانتي ، ثم يقول الباحث: علمت المدرسة بالتجربة أن تأكيد الناحية التبشيرية من عملها قد ضيق حقل هـــذا العمل بحيث أصبحت لا تجتذب سوى قسم من ابناء المجتمع العربي وأصبحت علاقاتها بالأقسام الاخرى تتسم بشيء من التوتر ، فالعلم يفرض ان يطلب لذاته لمـا في جوهره من حقيقة لا تفرض غير العـــلم نفسه (ومن ثم) غيرت الجامعة اسمها التبشيري وتنازلت عن مهمتها التبشيرية الخاصة مع احتفاظها ببعض الاشكال الموروثة عن ذلك العهد التبشيري (وهي بذلك) تتميز عن الجامعة الغربية الثانية في الوطن العربي [جامعة القديس يوسف] بانها بروتستانتية المذهب انكلو سكسونية الاتجاه الفكري، بينما تلك كاثوليكية المذهب لاتينية الفكر ، اصبحت تختلف عنها ايضاً من حيث التكوين فاتجهت الجامعة الأمريكية الى المجتمع العربي كله (ومن ثم) حلّ التعليم الحر محل الرسالة التبشيرية .

---

(١) البحث نشر في صحيفة الجامعة الرسمية (الابحاث) ١٩٥٤ .

«فالجامعة الأمريكية مؤسسة خاصة وهـــذا سر تفوقها على المؤسسات الحكومية وقد أخذت عنها الجامعات الوطنية تراثها وايضاً مناهجها » .

ويشير نبيه أمين فارس الى تاريخ الجامعة الأمريكية فيقول : لقد رافقت الجامعة المتاعب السياسية خـلال الاستبداد الحميدي وعصبية رجال تركيا الفتاة هذا بالإضافة الى (المنافسة التي تواجهها الجامعة من قبل اختها الصغرى : جامعة القديس يوسف الجزويتية في بيروت ومن قبـل سبع جامعات وطنية في مختلف البلاد العربية منذ الحرب الاولى) . ويقول « لقـد ظلت الجامعة الأمريكية في بيروت حتى نهاية الحرب العالمية الاولى هي المثالية الوحيدة في العالم العربي للثقافة الجامعية الغربية عامة والأنكلو سكسونية خاصة وكانت منافستها الوحيدة هي جامعة القديس يوسف » .

فمنذ عام ١٨٦٥ الى ١٩١٨ وهي نهاية الحرب العالمية الاولى كانت الإرساليتان الفرنسية والأمريكية تعمـلان في بيروت أي خـلال فترة لا تقل عن خمسين عاماً وهما تقتسمان الشباب المتعـلم وتتوزعانه قبل ان تكون هناك جامعة عربية .

وقد أكدت الجامعة الأمريكية خطتها عـام ١٨٧١ على لسان راعيها (دانيال بلس) حين قال : [إن هذه الكلية مفتحة الأبواب لكل الناس على اختلاف ظروفهم وطبقاتهم دون أي اعتبار للون أو لتـــابعية أو لجنس أو لدين ، وبإمكان كل إنسان سواء كان أبيض أم اسود أم اصفر ، سواء كان مسيحياً أم يهودياً أم محمدياً أم وثنياً ان يدخل هذه الكلية ويتمتع بكل ما تقدمه هذه المؤسسة من خدمات مـــدة ثلاث أو اربع أو ثمان من السنين ، ويخرج منها مؤمناً بإله واحـــد أو بآلهة عديدين أو غير مؤمن بأيّ إله ، ولكن يستحيل على أي إنسان ان يعيش بيننا مـدة متطاولة من الزمن دون ان يعرف ما هي الحقيقة التي نؤمن بها وما هي أدلتنا وحججنا التي نبني على أساسها إيماننا هذا » .

ثم يصل نبيه أمين فارس من إيراد هذا النص الى القول : بأن الجامعة الأمريكية هي في وقت واحد : مسيحية وأمريكية وعربية .

فهي (مسيحية) من حيث إنهـــا كانت ولا تزال تعبيراً حياً عن الخدمة والتضحية المسيحية ومن حيث سعيها لخدمة الله عن طريق خدمة عباده .

وهي (أمريكية) من حيث كون معظم ماليتهـــا تعتمد على المساعدات الأمريكية بل لكونها التعبير الحي عن خير مـــا في التراث الأمريكي من مثل عليا أساسها خدمة المجتمع وإشراك البشرية في الخيرات التي ينعم بها الأمريكي.

وهي (عربية) ليس من حيث وجودهـــا في بلد عربي بل لأنها كرست حياتها لكيما يكون للعرب حياة ولكي تكون حياتهم أفضل [1] .

ويشير الاستاذ نبيه أمين فارس الى ان مدارس الإرساليات التي بدأت في لبنان كانت فرصة للمنافسة الضخمة بين البروتستانت والجزويت وان إحدى ثمرات هذا العمل (الجمعية العلمية السورية) التي نشأت في احضـــان الجامعة الأمريكية وفيها دوت الصرخة الاولى للقومية العربية ، وسرعان ما انبرى الجزويت الى تقليد البروتستانت في ميدان الجمعيات العلمية كما قلدوهم في إنشاء المدارس فأسسوا الجمعية الشرقية وهناك كذلك ترجمة التوراة الى اللغة العربية التي بدأها الأمريكان ١٨٣٧ ونشروها كاملة عام ١٨٦٥ .

وأشار الكاتب الى ان الجامعة الأمريكية منذ ١٨٧٠ حتى ١٩٥٨ خرجت ٧٥٠٠ خريج منهم ١٤٠٠ طبيب ومنهم رؤساء وزارات واساتذة وقضـــاة وأطباء وسياسيون وصحفيون في جميع ارجاء البلاد العربية.

وان بها عام ١٩٥٨ ٣,٣٠٠ طالب يمثلون خمسين جنسية مختلفة كما يمثلون اربعين طائفة دينية وعدد الطالبات نحو عشر عدد الطلاب جميعاً .

---

(١) مجلة الابحاث الصادرة عن الجامعة الامريكية ١٩٥٨ .

ويشير الاستاذ حسن فروخ في محاضرة له عن أثر لبنان في ميدان التربية والتعليم الى أثر إنشاء المدرسة المارونيــة في روما عام ١٥٨٤ وقد تخرج فيها عدد كبير من اللبنانيين الذين كان لهم أثرهم في بناء النهضة العامــة وأشار الى ان عدد المرسلين تكاثر في لبنان بعد عام ١٨٤٠ حيث هبط بيروت عدد من الأدباء ، وقد حدث هــذا في ثلاثين سنة قبل ان يصبح لبنان متصرفية عام ١٨٦١ أما بعد ذلك والى ان أصبحت بيروت ولاية عام ١٨٨٥ فقد تطورت النهضة وبقي فضــل السبق لبيروت ، وكان الفضل في النهضة للمرسلين اولاً ثم لطائفة من الوطنيين اتصلوا بالمرسلين .

وأشار الأستاذ فروخ الى ان عدد المدارس التي انشأها المرسلون في لبنان بلغ مــائتي مدرسة مـــا بين أمريكية وفرنسية وانكليزية وروسية والمانية وإيطالية وأقــدم المدارس عمراً : مدرسة عينطورة وأشار الى أهم مدرستين وهما : مدرسة القديس يوسف التي تعرف الآن بالجامعة اليسوعية وقد انشأها المرسلون اليسوعيون فيغزير عام ١٧٤٨ ثم نقلوها الى بيروت ١٨٧٤ والمدرسة السورية الإنجيلية والتي تعرف الآن بالجامعة الأمريكية وقد انشأها المرسلون الأمريكيون في بيروت عام ١٨٦٦ .

(٣)

انتشرت مدارس الإرساليات في مختلف اجزاء العالم الاسلامي بحجة أنها مدارس للنشء الأجنبي من أبناء الجاليات الوافدة ، فأصبح في كل قطر عديد من المدارس الفرنسية والانجليزية والألمانية والهولندية والإيطالية . تحت اسماء الجزويت والفرير واللاييك والأمريكان واليسوعيين .

وفي لبنان مدارس أمريكية واخرى فرنسية ، وفي مصر مدارس كاثوليكية واخرى بروتستانتية ، وقد بدأت هـذه المدارس دينية صرفة ثم تحولت الى علمانية نتيجة تحول التعليم الغربي نفسه بعـــد الثورة الفرنسية من ديني الى علماني ، ولقد كانت هـــذه المدارس تدرس تاريخ بلادها ولغاتها فلا يعرف التلميذ في المدرسة الإنجليزية إلا إنجلترا وجغرافيتها واقتصادياتها ، وقد تدرجت هذه المدارس من الأصغر الى الأكبر حتى أصبح لها جامعات ومدارس عليا ، وفي مصر كانت مدارس الفرير والراهبات والجزويت والليسيه ؛ وكلها تابعة لفرنسا . وقد بلغت الارساليات في فترة مـــا بين عام ١٨٤٤ وعام ١٩٤٣ [٢٣ إرسالية] باسم الراهبات و ٣٥ مدرسة للفرير ، بالإضافة الى كلية سانت كاترين وكلية سان مارك .

وقد ساعدهم الواليان سعيد وإسماعيل بالمال والأرض وأباحا لهم الاستيراد من الخارج دون أيّ ضرائب جمركية .

وكان ملوك فرنسا يتدخلون شخصياً من أجل دعم هذه المدارس كما حدث لإنشاء مدارس الجزويت عام ١٨٧٩ بنفوذ الملك لويس الرابع عشر فضلاً عن مساعدة نابليون الثالث الى مدارس سان جوزيف .

ولما غيرت فرنسا نظام التعليم عام ١٩٠٤ ، وأبعد عنه رجال الدين سمح لهؤلاء بالسفر الى الشرق للتبشير ، فوصــل عدد كبير منهم الى مصر والشام ودعموا مدارس الليسيه والفرير والجزويت ثم أنشىء المعهـــد الفرنسي للآثار الشرقية عام ١٩٠٨ .

وقد أحصيت مدارس الإرساليات الانجليزية فوجــدت ٢٤ مدرسة تابعة للبروتستانت والكاثوليك بالإضــافة الى كلية فكتوريا (المعادي) وفكتوريا (الاسكندرية) وكلية البنات الإنجليزية بالإسكندرية والكلية الأسقفية .

وبدأ النشاط الأمريكي عام ١٨٥٥ بهدف نشر المذهب البروتستانتي، وقد بلغت عام ١٩٥٨ ٨٤٧١ مدرسة وبها ١٠٩ آلاف تلميذ بالإضافة الى مدرسة البنات الأمريكية (١٨٦٠) وكلية البنات (١٩٠٩) والجامعة الأمريكية (١٩١٩) وكلية أسيوط ١٨٦٥ ومدرسة البنات بأسيوط ١٨٧٩ .

وهكذا تجمعت خيوط التعليم الأجنبي في مصر قبل الاحتلال البريطاني عن طريق الإرساليات مستهدفة تحقيق نفس الغاية .

يقول الاستاذ جرجس سلامة في كتابه تاريخ التعليم الأجنبي في مصر :

« إن الباحث في تاريخ التعليم الأجنبي في مصر منذ بدايته في القرن السابع عشر يجد ان هذا النوع بدأ لأغراض دينية بحتة ، حيث كانت البابوية تستهدف نشر نفوذها في الشرق وفي مصر خاصــة وإخضاع الأقلية القبطية الأرثوذكسية في مصر لرئاستها ، وقــد قوبلت هـــذه الإرساليات جميعاً من المسلمين بالإعراض التام. ثم نشطت الإرساليات للقيام بأعمال اجتماعية وصحية لتجتذب النــاس وتستميلهم اليهـــا فأنشأت المستشفيات والمصحات وقامت

بالخدمة — مستشفى هرمل والسبع بنـــات — .. وكانت الظروف العامة تساعد على تمكين التعليم الأجنبي في مصر ورسوخ أقدامه إذ إنـه وفد الى مصر في وقت كانت فيه الدولة العثانية فيه ضعيفة بوجه عام، وكانت إنجلترا وفرنسا تتمعان بالامتيازات الأجنبية وعقدت أمريكا هي الاخرى معـــاهدة التجارة والملاحة مع الدولة العثانية في بداية القرن التاسع عشر وانشأت لها قنصلية في مصر .

« ومنذ الحملة الفرنسية على مصر في نهاية القرن الثامن عشر خرجت مصر من عزلتها وبدأت انظار العالم تتجه اليها ، وبدأت الدول الغربية تطمع في زيادة نفوذها بهـا ، وساعد على ذلك ان حكام مصر كانوا يسترضون الدول الأوربية ورعـاياها بشتى الطرق ، وظهرت هـذه الحقيقة بشكل واضح بعد معاهدة لندن ١٨٤٠ التي فرضت على مصر وصاية دولية .

« وقد بذل سعيد وإسماعيل جهـــداً كبيراً في إرضـاء الدول الأوربية وتشجيع رعاياها (من اجل مركز الباشوية المصرية) الذي لا يمكن حدوثه إلا بموافقة الدول الغربيـــة وكان من مظاهر هذا تشجيع المدارس الاجنبية ومنحها المنح والهبات .

« وبدأ المسلمون يلتحقون بهـذه المدارس بالتدريج ، خاصة الطبقة العليا التي كانت ترغب في ان ترسل ابناءها للتعلم فيمدارس غير المدارس الحكومية التي يتعلم بها عامة الشعب ووجدوا في المدارس الأجنبية المجال الذي يمكنهم من تحقيق ذلك » .

(٤)

ولقد زادت هذه الإرساليات عمقاً وقوة بعد الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٣ ، فقد زادت الوفود الأجنبية واتسع نطاقها حتى انه بينما وفد الى مصر قبل الاحتلال خمس ارساليات كاثوليكية نسائية في الفترة مـا بين ١٨٤٤ — ١٨٨١ فإنه قد وفـد الى مصر بعد الاحتلال ثماني عشرة إرسالية نسائية بين عامي ١٨٨٢—١٩٤٣ ، كذلك تم إنشاء ٣٠ مدرسة للفرير بعـد الاحتلال . وقد ساعد على هذا ان الاتفاقية التي وقعتها بريطانيا وفرنسا عام ١٩٠٤ والتي عرفت بالاتفـاق الودي نصت على ان تتمتع المدارس الفرنسية في مصر بنفس الحرية التي كانت تتمتع بها في الماضي [١] وقد ظل التعليم الفرنسي اكثر انواع التعليم الأجنبي انتشاراً حتى بعد الاحتلال البريطـاني كانت الارساليات التي تمثل التعليم الأجنبي وتعليم الجاليات في وقت واحد مستقلة ومنعزلة عن رقابة الدولة حتى أصبحت دولة داخل الدولة [٢] وظل ذلك التعليم يوجه النشء الوجهة التي يراها ويصبغهم بالصبغـة التي يريدها دون إشراف فعلي من الدولة عليه ، واستقطب هذا التعليم وهذه المدارس الطبقة الغنية الأرستقراطية في البلاد [٣] التي

---

(١) تاريخ التعليم الاجنبي في مصر .

(٢) تاريخ التعليم الاجنبي في مصر .

(٣) تاريخ التعليم الاجنبي في مصر .

تستطيع ان تدفع المصاريف ؛ مما خلق طبقة ارستقراطية ثقافية تعلمت بهذه المدارس وكانت تسير امور هـذا البلد مما زاد في نفوذ هذا النوع من التعليم الى حد كبير .

وقـــد سهل تحرر الإرساليات من رقابة الدولة أو إشراف الحكومة على القائمين بهذا النوع من التعليم ان يستخدموا مدارسهم للدعاية لبلادهم وتوجيه النشء وجهة خاصة دون ما رقابة من الدولة. ولذلك كانت الكتب المستعملة في هذه المدارس مليئة بالإشارات الى عظمة هذه الدولة التي تتبعها المدرسة ، بل بلغ الأمر الى حد ان اشتملت بعض الكتب المستعملة على معلومات خاطئة مضللة عن مصر والعرب والإسلام .

ومن هنا فقد ساهمت هذه المدارس في خلق جيل من أجيال الأمة له ولاء خاص لتبعية هـذه المدرسة أو تلك ، وكانت أبرز الأخطار المتصلة بمدارس الإرساليات هي :

أولاً : إغفال اللغة العربية وهي لغة البلاد القومية ، وكان من الضروري إتقان لغة أجنبية على حساب اللغة العربية ، هذا بالإضافة الى ما كانت توصم به هذه اللغة من نقص وضعف ، بينما لا توجد أي دولة في العالم تترك ابناءها يتعلمون لغة أجنبية منذ سن الرابعة قبل ان يتعلموا لغة البلاد الأصلية .

ثانياً : أسهمت هذه المدارس في تلقين ابنائنا تاريخ أوربا والدول الأجنبية المختلفة وحرمتهم في نفس الوقت من تاريخهم القومي والعربي والإسلامي .

ثالثاً : كانت هـــذه المدارس تتجاوب مع رغبات وتوجيهات سفاراتها ودولها بل إن مجالس إدارة أغلب هذه المدارس كان يرأسها السفراء والقناصل، وكان مجلس إدارة كلية فيكتوريا الإنجليزية يرأسه السفير البريطاني .

رابعاً : خلا هذا التعليم من رعـاية دين وأخلاق ابناء البلاد ، بل كان له

الاتجاه العكسي المؤدي الى الشعور بالتحلل ، كما انـه خلق نوعاً من الطبقة المستعلية على طبقات المسلمين في المدارس الوطنية ، وكانت نظرتهم الى اللغة والى الأمـــة نفس النظرة « لا يختلطون بالشعب ولا يحسون بإحساس البلاد لأنهم لم يدرسوا مشاكلها ولم يتمرسوا على مشاركة الوطن مشاعره وأحاسيسه»[1].

خامساً : كان له أثره البعيد في تفكك الأسرة حيث تجد العائلة الواحدة مقسمة بين ثقافات متعددة : أمريكية وفرنسية وإنجليزية ، ووطنية ؛ ومن هنا فقد كان لكل فرد تفكيره الخـاص وفلسفته الخاصة ونظرته المختلفة الى الأمور .

ومما يتصل بتعليم مدارس الإرساليات نذكر ان هذه المدارس قد شكلت في ثقافة الطالب العربي المسلم مفاهيم خاطئة بما يتناسب مع اتجاهاتها واهوائها سواء أكانت دينية أم سياسية. وقد كانت الكتب المدرسية المقررة موضوعة بطريقة استعمارية ، وكان قوام هذه المعلومات : مصر بلد زراعي، مصر بلد مستعمر على مدى التاريخ، لا علاقة بين المصريين والعرب، الغرب هو مصدر النور وهو صـاحب الجنس الأبيض ، التعليم الإسلامي متأخر ، العرب بدو ورحل والاسلام دين صحراوي وهو سر تأخر المصريين .

الى غير ذلك من الشبهات والأكاذيب .

وقد كان التركيز في مدارس الإرساليات على ابناء الطبقة الراقية وبناتها وكانت مدرسة البنات العليا الانجليزية وبون باستور والفرنسيسكان تحفل ببنات الأعيان والوزراء وكان يتحتم على ابناء وبنات المسلمين الاشتراك في الصلاة ، وقد اشارت المدرّسة أنا مليجان الى هذا المعنى حين قالت :

في صفوف كلية البنات في القاهرة بنات آباؤهن باشوات وبكوات وليس

(١) المصدر السابق بتصرف .

ثمة مكان آخر ممكن ان يجتمع فيه مثل هـذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي وليس ثمـة طريق الى حصن الاسلام أقصر مسافة من مدرسة البنات .

وهم يستهوون الاطفال بالحلوى والكبار بشرائط الفانوس السحري، وان أول هم المدرس المبشر في مدارس الإرساليات (كما يقول الاستاذ حسين محمود) هو هدم الاعتقاد في تلميذه فيصبح الطالب مستخفاً بالمعتقدات ، أما خطوته الثانية فهي محاولة غرس تعاليم جديدة في ارض لم تعد تصلح للاعتقاد ؛ إن أشد النتائج فظاعة هو حض المبشرين للطلبة على المراءاة، فالأخلاق المسيحية كما يسميها المبشرون هي مقياس الاستقامة التي يتوقف عليها تمهيـــد الطريق أمام الشباب الراغب في النجـاح المدرسي . إن قولي ذات مرة أنا لا أوافق على الأخلاق المسيحية في مناقشة مع مدير المدرسة وكان يحثني على التمسك بها كاد يدخلني مستشفى المجاذيب لشدة الاضطهاد الذي واجهته في وقت كنت فيه تحت رحمة المدرسة [1] .

وأصعب منهذا وأشد إذا حاول التلميذ المسلم ان يجيب إجابة فيها كرامة لدينه أو امتـه فإن ذلك يقضي عليه بالرسوب عاماً بعد عام حيث يوضع في قائمة سوداء .

وقد أشار الى هذا المعنى مؤتمر التبشير عام ١٩٢٤ حيث قال :

« في كل حقل من حقول العمل يجب ان يكون العمل موجهاً نحو النشء الصغير من المسلمين وموزعاً فـيما بينهم ليحيط بهم وليكونوا منه على صـــلة مباشرة ، ويجب ان يقـدم هذا على كل عمل سواه في الاقطار الإسلامية فإن تنور روح الإسلام في الناشيء الحديث يبتديء باكراً من عمره فيجب والحالة

---

(١) الرابطة الشرقية : ١٥ يونيه ١٩٢٩ .

هذه ان يؤتى بالنسء الصغير من المسلمين قبل ان يتكامل نمو عقليتهم واخلاقهم حينئذ وتستعصي على المبشر » .

وهكذا تتركز سياسة الإرساليات في توجيه العناية الى النشء الصغير لتشكيله قبل ان يشكله أهله في إطار الإسلام ، والى بذل أقصى الجهد في إدخال البنات المسلمات في الاقسام الداخلية حتى ينعزلن عن محيطهن الإسلامي ويشكلن في اطار الصلاة المسيحية والأدعية ولا يخرجن من المدرسة إلا بعد ان يكنّ قد انطبعن بطابع الحياة الغربية وروح العقيدة المسيحية . هذه الفتاة هي التي ستكون زوجة مسلمة من بعد وستربي الجيل الجديد .

(٥)

استطاعت الإرساليات في مصر في الثلاثينات ان تقوم بحركة ضخمة للتبشير بين المسلمين في مصر ، وأجبر عدد كبير من الشباب على ترك دينه ، وجرت تحقيقات قضائية حول وقائع متعددة وحوادث متصلة وصدرت احكام قضائية لم تنفذ ، واشارت الصحف المصرية الى ذلك في حينه ، واحتج وزير أمريكا المفوض في مصر على موقف الصحف المصرية إزاء حوادث التبشير ، وأشارت الصحف الى ان معاهد الإرساليات تفلت دائماً من العقوبة لأنهم أجانب لا يمتد اليهم سلطان القوانين المحلية ولأن سلطاتهم القنصلية توليهم عطفها وحمايتها ولأن معاهد التعليم الأجنبية – وكر هذه المحاولات – تتمتع في ظل الامتيازات الأجنبية بحصانة قوية [١] .

كما أشارت الصحف اكثر من مرة، الى كتب مقررة في مدارس الإرساليات تحوي طعناً في الإسلام وفي رسول الإسلام ومنها ما نشر عن كتاب الاجرومية الذي يدرس بمدارس الفرير عام ١٩٢٩ .

وأشارت الى كتاب (Histoire Sainte) أي التاريخ المقدس الذي يوزع على الفتيات المسلمات وفيه وصف شائن للنبي وان عقيدته هي مزيج

(١) الصحف ١٩٣٢/١/٢٨ .

بشع أو وحشي من اليهودية والنصرانية والوثنية وان هـــذه العقيدة ممثلة في القرآن الذي هو مجموعة إيحاءات مزعومة للنبي ، وقد كانت الصيحات تتوالى إثر كل حادث من هذه الأحداث ثم تنطفيء وتظل هذه الكتب تترك آثارها في الطلاب المسلمين والمسلمات .

وقـد أشار تقرير مطول عن التعليم في الإرساليات الى ان المؤسسات التبشيرية (إنجليزية وإيرلندية والمانية وسويدية ودنمركية وأمريكية) متفقة على وضع التوراة بين أيـدي الطلاب على انها كتاب تدريس أساسي وإجبار المسلمين على دخول كنيسة المدرسة مرة كل يوم .

وان العمل يجب ان يتم في مراحله المختلفة :

رياحين الاطفال هامة جداً والمدارس الداخلية تفصل المسلمين عن بيئاتهم الإسلامية وتعليم البنات له أثره الكبير . وفي المراحل الاولى يمكن التأثير على عقول الأطفال الغضة .

والتعليم العـالي يمكن من الوصول الى الطبقات المثقفة ممن سيكونون قادة الرأي في البلاد .

وهكذا يستخدم التعليم في تغيير تكوين النفس المسلمة والعقـــل المسلم وإفساد مفهوم الإسلام والعروبة والقرآن ومحمـــد وإقامة مفاهيم اخرى تعلو فيها قيم ليست هي قيم المسلمين والعرب ، وهكذا يتخـذ التعليم وسيلة الى استعباد الأفراد والامم ثم سوقهم الى التسليم بـل والإعجاب والحب للعدو الدخيل .

يقول هنري جب : إن التعليم في مدارس الارساليات المسيحية إنما هو واسطة الى غاية، هذه الغاية هي قيادة الناس الى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا افراداً مسيحيين ، وإن المدرسة شرط أساسي لنجاح التبشير ، وإن المدرسة

قوة لجعل الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحي اكثر من كل قوة اخرى ، ثم ان هذا التأثير يستمر حتى يشمل اولئك الذين سيصبحون يوماً قادة في اوطانهم .

ويقول مستر بنروز رئيس جامعة بيروت : لقد أدى البرهان الى ان التعليم هو أثمن وسيلة استغلها المبشرون الأمريكيون في سعيهم لتنصير سوريا ولبنان .

ونشر لدفيك بزنهارد عام ١٩٠٥ مقالاً صور فيه الكلية السورية الانجيلية على أنها محاولة مدروسة لتمهيد الطريق أمام المصالح الأمريكية التجارية منها خاصة .

وقد احتضنت هذه الإرساليات الدعوة الى اللغة العامية مكتوبة بالحروف اللاتينية بالإضافة الى الأحلاف .

ويقول جون موت : إن مدارس الإرساليات لها رسالة وغاية قصوى ، هي ان تجعل الشعوب كلها في المستقبل تابعة للغرب وأوربا والكنيسة ، وإن المقصود الأول بالتبشير من طريق التعليم هم المسلمون .

وإنه يتحتم عند عرض الأديان ان يعرض الإسلام عرض عداء وخصومة واتهام للرسول والقرآن ، ولا نقف عند هذا ، بل نحاول ان نوقع الخصومة بين المسلمين والمسيحيين في الشرق باثارة حديث الحروب الصليبية وموقف كارل مارتل ، وينتهي بالإشارة الى ان قوة الهلال تقهقرت أمام راية الصليبيين وانتصار الإنجيل على القرآن .

وأن يشار دائماً الى ان الارساليات هي سبب النهضة الحديثة .

وقد وجه كثير من خريجي هذه الإرساليات الى ترجمة هذه الكتب المليئة بالأخطاء والأحقاد والشبهات لإذاعتها في عالم الإسلام ووضعها بين أيدي

الطلاب في مدارس الإرساليات والمدارس الأجنبية ثم سمح بها في الجامعات .
ولطالما أذاعت الصحف أنباء عن كتب صودرت ثم اكتشف انها كانت بتوصية من تابعي معاهد الإرساليات وخريجيها .

ويتصل هذا بمن توفدهم الإرساليات الى بلاد الغرب ، وقد أوصى لويس ماسنيون على هؤلاء الطلاب حين قال : ان الطلاب الشرقيين الذين يأتون الى فرنسا يجب ان يلونوا بالمدنية المسيحية .

(٦)

في عام ١٩٠٦ عقد المؤتمر التبشيري في بيت احمد عرابي في القاهرة تحدياً وصلفاً وكان من ابرز قرارات المؤتمر : إنشاء مدرسة جامعـة نصرانية تتولى كل الكنائس المسيحية الإنفاق عليها لتتمكن من مزاحمـة الأزهر ، وأشارت التوصية إلى ما يأتي :

« ربمـــا كانت العزة الإلهية قد دعتنا الى اختيار مصر مركز عمل لنـا لنسرع بانشاء هذا المعهد المسيحي لتنصير الممالك الإسلامية » .

يقول الاستاذ جرجس سلامة في كتابه تاريخ التعليم الأجنبي في مصر :

« تكونت الجامعة الأمريكية في القـاهرة على أساس الاتصال بالإرسالية وليس على أساس مستقل ، وذلك أنه لأسباب فنية أدخلت هيئة الإرساليات الأجنبية الجامعة الامريكية بالقاهرة في ميزانية [Now World Movement Budget] لتتمكن من إنجـــاز المشروع ، وبذلـك ألحق مركز الدراسات للتدريب رجال الإرسالية بالجامعـــة الامريكية ، واصبح يسمى (مدرسة الدراسات الشرقية) حيث كان اثنان من رجال الإرسالية يدرسان بها .

وفي عام ١٩٢٢ رؤي أن تكون الجامعة مستقـلة عن الإرسالية وأصبح لها كيانها الخاص . وقد تخرّج من الجامعة ثلاثة حصلوا على الليسانس عام ١٩٢٨ والتحقت أول طالبة حصلت على الليسانس ١٩٣١ وبدأ التعليم المختلط بالجامعة » .

وقد أشار التقرير العالمي الذي تقرر بناء عليه إنشاء الجامعة الأمريكية في القاهرة إلى أهمية وجود هذه الجامعة في مواجهة الأزهر الشريف ، كما أشار الى ذلك جرجس سلامة في كتابه حين قال : إن مجموعة من الرجال الخبراء قد طافوا العالم عام ١٩١٦ للدراسة واستقر رأيهم على أن القاهرة مركز استراتيجي هام لإنشاء هذه الجامعة ، (ويذكر وطسون لماذا كانت القاهرة مركزاً لهذه الحضارة فيبين كيف أن الأزهر له القيادة الفكرية والاسلامية في العالم العربي ، ويقول إن شهادة من الأزهر بين العرب توازي شهادة الدكتوراه في اكسفورد أو باريس أو هارفارد في العالم الغربي (ثم يقول) إن القاهرة هي مركز الصحافة العربية ، وإن أكثر من مائة مليون نسخة من المجلات والجرائد تصدر سنوياً في القاهرة ، وإن مصر هي مركز اللغة العربية الفصحى التي تعد لغة جميع الدول العربية ، وعلى هذا الأساس استقر الرأي على إنشاء الجامعة الأمريكية بالقاهرة) .

أما الدكتور وطسون فقد كانت له آراء خطيرة في مواجهة الاسلام ، وله كتاب كان مقرراً في الدراسة على الطلاب المسلمين تحت عنوان :

(حروب صليبية مسيحية في مصر)

ويعني بهذه الحروب الحملة التبشيرية ، وقد كتب في صدره :

أهديه لأمي وأبي اللذين قضيا حياتهما مبشرين في مصر .

ومن آرائه الخطيرة قوله : إننا نراقب سير القرآن في المدارس الاسلامية ونجد فيه الخطر الدائم . إن القرآن وتاريخ الاسلام هما الخطران العظيمان اللذان تخشاهما سياسة التبشير » .

وكانت له دعوته الى هدم القيم الاسلامية في نفوس الطلاب ، وقد سجل له محاولة الى ازدراء المبادىء الاسلامية والمعتقدات والقيم الاخلاقية ، وقد

أشار الى أنها آخذة في الانحلال والتفكك ، ودعا الأجيال الناشئة الى تجاهلها وعدم الاهتمام بها ؛ ولقد كان يصور وجهته وعمله حين قال :

« إن الجيل الناشيء الذي نتصل به نراه مهتماً كل الاهتمام لا بالاسلام ولكن بالمسائل المادية والإلحاد » .

ثم يقول : « ونحن نسر حين نستطيع أن نجعل فتى مسلماً يقبل مبادىء المسيحية ووحي المسيح » .

هكذا كانت مشاعر الارساليات واضحة صريحة تصدر في الصحف وتقال علناً .

وقد كشف عنها الطلاب المسلمون مرات ومرات .

في الجامعة الامريكية في بيروت عام ١٩٠٩ عندما اصدرت منشوراً رداً على احتجاج الطلاب المسلمين لإجبارهم على الدخول يومياً الى الكنيسة ، قال المنشور :

« إن هذه كلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحي . هم اشتروا الأرض وأقاموا الأبنية وهم انشأوا المستشفى وجهزوه ولا يمكن المؤسسة أن تستمر إذا لم يسندها هؤلاء . وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليماً يكون الانجيل من مواده فتعرض منافعه الحقيقية المسيحية على كل تلميذ ، وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب ان يعرف سابقاً ماذا يطلب منه . إن الكلية لم تؤسس للتعليم العلماني ولا لبث الاخلاق الحميدة ولكن من أولى غاياتها أن تعلم الحقائق الكبرى التي في التوراة ، وأن تكون مركزاً للنور المسيحي وللتأثير المسيحي ، وأن تخرج بذلك على الناس وتوصيهم به » .

ومثل هذا حدث عام ١٩٣٢ عندما وقف (عبد القادر الحسيني) بعد تخرجه من الجامعة الأمريكية في القاهرة فأعلن أن الطلاب يلزمون بالصلاة في الكنيسة وتقرر كتب تتهم الاسلام ورسوله والقرآن بتهم خطيرة . ولما

تصدى له رجال الجامعة واخرجوه نشر ذلك في الصحف (وفي جريدة البلاغ) التي نقلت صفحات بالزنكوغراف عما تحتويه هذه الكتب المقررة على التلاميذ المسلمين .

وإذا كان المسلمون قد كشفوا أخطار الارساليات والتعلم فيها فإن المسيحيين ايضاً قد تنبهوا لهذا الخطر وفي ما يصوره جبران خليل جبران مثل واضح لذلك . يقول :

« في سوريا كان التعليم يأتينا من الغرب بشكل الصدقة ، وقد كنا ولم نزل نلتهم (خبز الصدقة) لأننا جياع متضورون ولقد أحيانا ذلك الخبز ولما أحيانا أماتنا ، أحيانا لأنه أيقظ (بعض) مداركنا ونبه عقولنا (قليلاً) وأماتنا لأنه فرّق كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وأبعد ما بين طوائفنا حتى أصبحت بلادنا مجموعة معسكرات صغيرة مختلفة الأذواق متضاربة المشارب ، كل مستعمرة منها تشد في حبل إحدى الأمم الغربية وترفع لواءها وتترنم بمحاسنها وأمجادها ، فالشاب الذي تناول لقمة العلم من مدرسة أمريكية قد تحول بالطبع الى معتمد امريكي ، والشاب الذي يجرع رشفة من العلم من مدرسة يسوعية صار سفيراً فرنسياً ، والشاب الذي لبس قميصاً من نسيج مدرسة روسية اصبح ممثلاً لروسيا الى آخر ما هنالك من المدارس وبما تخرجه كل عام من الممثلين والمعتمدين والسفراء وأعظم دليل على ما تقدم اختلاف الآراء وتباين المنازع ، فالذين درسوا بعض العلوم باللغة الانجليزية يريدون أمريكا أو انجلترا وصية على بلادهم والذين درسوها بالفرنسية يطلبون فرنسا لتتولى أمرهم . وقد يكون ميلهما الى الأمة التي تتعلم على نفقتها دليلاً على عاطفة الجميل في نفوس الشرقيين ولكن ما هذه العاطفة التي تبني حجراً في جهة واحدة وتهدم جداراً من الجهة الأخرى ؟ ما هذه العاطفة التي تستنبت زهرة وتقتلع غابة ؟ ما هذه العاطفة التي تحيينا يوماً وتميتنا دهراً ؟ »

ويصور ميخائيل نعيمة خطر الإرساليات فيقول :

« لقد عرفت سوريا غزاة كثيرين فلم يكن من شنار عليها وهي الضعيفة أن ترضخ لقوة فوق قوتها ، إلا انها منذ اواسط القرن الماضي اخذت مهداً لغزاة ما ألفت من قبلهم غزاة جاؤوا لا ليملكوا أجسامها بل ليقبضوا روحها فقد شنوا عليها الغارة بالتوراة والانجيل والريالات والعقاقير ، فكانوا اشد ضربة عليها من كل ما سبقهم ، افتتح هؤلاء سوريا باسم الدين ، كان على المبشرين ان يزينوا مدنيتهم للسوريين كا لو أنها صفوة الكمال فحملوهم على احتقار مدنيتهم واحتقار أنفسهم ، ومن ثم فقد صوروهم للغرباء الذين أرسلوهم في حالة تقارب الهمجية فمسلمهم جاهل ونصرانيهم وثني وكلهم كذبة ضد الديانة » .

وهكذا نجد ان الإرساليات كانت خطراً شديداً في نظر المسلمين والعرب والاسلام والمسيحية على السواء .

وقد صوّر بعض الباحثين نتائج جهود المبشرين في مدارس الإرساليات فقال : « إن [1] هذه المدارس والمعاهد التبشيرية استطاعت ان تحدث في قلب المجتمع الاسلامي آثاراً خطيرة من حيث توجيهها لأخلاق تلاميذها من المسلمين وكذلك لعاداتهم وتفكيرهم الى انواع عديدة اهمها طابع أجنبي خاص اذا لم تكن روحه نصرانية واضحة فلا ريب أنه تمهيد لبث هذه الروح لأن إضعاف الروح الأصلية وتحطيم التعاليم والتقاليد القومية هو دائماً أول خطوة في سبيل إدخال روح وتعاليم جديدة » .

---

(١) مجمع الرابطة الشرقية — ١٥ يونيه ١٩٢٩ .

(٧)

كشف (شاتليه) عن مهمة الإرساليات في البلاد المحتلة فركز على أنها تستهدف نزع الاعتقادات الاسلامية وتثبيت الأفكار الأوربية ، وأنها تعمل على هدم اللغة العربية وجعل اللغات الأوربية في المقدمة حتى يمكن بث الأفكار التي تتسرب مع سيطرة اللغات الأجنبية .

وإن نظرة الى الآفاق المختلفة تكشف عن أبعاد هذا الخطر الساري في كل مكان في بلاد الاسلام ، وفي قلب أفريقيا تبدو الصورة شديدة الخطر ، يقول احمد سيكوتوري :

« لقد تعلمنا نحن المثقفين الافريقيين في مدارس الاستعمار تاريخ فرنسا وحروب الغال وحياة جان دارك . لقد قدم لنا الاستعمار من العلم والثقافة القدر الذي يرى أنه يخلق منا آلات ترتبط مصالحها بعجلة الاستعمار . لقد أراد المستعمرون للمثقفين الأفريقيين ان يفكروا بديكارت وبرغسون ولم يسمح لهم بالتفكير في قيمهم وثقافتهم وتراثهم الافريقي . لهذا لا يعرف كثير من شبابنا فلسفة المفكرين الافريقيين أمثال الحاج عمر بن سعد تال واحمد ساموري توري » .

● ● ●

وفي السودان يقول الدكتور عون الشريف قاسم :

السودان كثغرمن ثغور العروبة والاسلام في افريقيا يعيش تحدياً له اهميته، فالوثنية لا تزال ضاربة في بعض اجزائه وكثير من المسلمين في اصقاعه النائية لا يجدون العناية اللازمة . ونحن في سباق مع الزمن فإن تخطيط اعدائنا يضع للسودان مكانـة مميزة في استراتيجية كبرى من اجـــل السيطرة على القارة الافريقية وقد قسموا السودان الى ثلاث مناطق :

(الحزام الشمالي): وسيكون من الشمال المسلم وخطهم في ذلك ان يشككوا المسلمين في دينهم والتأثير عليهم عن طريق المدارس والمستشفيات وما اليها .

(حزام الوسط) : حيث تعيش اقليات غير عربية خاصة في جنوب شرق السودان وبعض مناطق الغرب . والفكرة هنا ان يثيروا هذه الأقليات عن طريق النعرات العنصرية وبث إرسالياتهم في جميع هذه المنطقة لتعطيل حركة الوعي الاسلامي من الانتقال من شمال القاهرة الى وسطها وجنوبها .

(الحزام الجنوبي) وخطهم هـــذا ان يوقفوا كل تيار عربي إسلامي وفي جنوب السودان اربعة ملايين أغلبهم وثنيون لا دين لهم » .

وفي إحصاء رسمي حديث ان عـــدد معاهد اللاهوت التي تعد المبشرين والقسيسيين والرهبان في أفريقيا الآن ٤٨٩ معهـداً وان في افريقيا ٥ ملايين طالب تحت سيطرة الارساليات ورجالها من المبشرين والرهبان .

ويقول الباحث : إن التعليم وهو أخطر وسائل التبشير وأعمقها أثراً هو مهمة الارساليات التبشيرية التي تقوم بدورها في أفريقيا أكمل قيـــام وتنشر اجهزتها الدقيقة ابتداء من دور الحضانة ورياحين الاطفال والمدارس الابتدائية والمتوسطة بالاضافة الى الجامعات والكليات ومعاهد تخريج المبشرين وانتهاء بالمستشفيات وملاجيء الايتام والمكفوفين والجمعيات الخيرية .

وإن اخطر وسائل التبشير هي دور التعليم حيث يتاح لأعضاء الارساليات من مدرسين ومدرسات تلقين النـاشئة الاسلامية من بنين وبنات تعاليم دين المسيح وتراث فكره وتقاليد حضارته مشوباً ذلك كليـــة بصور من الكيد والدس والتشويه لعقائد الاسلام مثل ما يقال من ان الاسلام دين الوثنية أو أداة في يد الشيطان وان نبيه الكريم رجـل مجهول النسب لأنه محمد (ابن عبد الله) وقد جرت عـادة العرب على اطلاق اسم (عبد الله) على كل من لا يعرف له نسب الى آخر هذه المزاعم والاباطيل، وما تزال كتبهم ونشراتهم وابحاثهم تسمم عقول الفتيـة والفتيات الأغرار ، وتعمق شقة الخلاف بينهم وبين أهليهم وتحول دون إنمـاء صلات المودة والإخاء . وهي تهدف جملة الى طمس كل تصور إسلامي في ذاكرة الشباب وقطع كل صـــلة متينة لهم بالله سبحانه وتعالى .

وإن ذلك يجيء تحقيقاً لوصايا مؤتمر المبشرين في القدس ١٩٢٤ حين أشار (صمويل زويمر) الى مهمة الإرساليات التي تستهدف إخراج المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله ، وبالتالي لا صـــلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها ؛ وبذلك تكون هـذه الإرساليات ورجالها « طليعة الفتح الاستعماري » في الممالك الاسلامية .

يقول زويمر : لقد قبضنا منذ ثلث القرن التاسع عشر الى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلاميـــة ، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيـات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوربية والامريكية .

وطبقاً لذلك جـاء النشء الاسلامي طبقاً لما أراده الاستعمار المسيحي لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل ولا يعرف في دنياه نهمة إلا الشهوات ؛

فإذا تعلم فللشهوات ، وإذا جمع فللشهوات ، وإذا تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل المال يجود بكل شيء .

• • •

وحين يراجع الباحث كتاب تاريخ الإرساليات التبشيرية الذي صدر عام ١٩٦٤ في ٦٠٠ صفحة لمؤلفه (ستيفن نيل) وهو مبشر مارس العمل في آسيا عشرين عاماً وحصل على الدكتوراه الفخرية وعين استاذاً للتبشير في كلية اللاهوت بجامعة هامبورج بألمانيا ، عندما نتصفح هذا الكتاب نجد مؤلفه يعترف بالدور الخطير الذي لعبته الارساليات في استعمار العالم الآسيوي الافريقي، ويحاول ان يبرز المخازي المعيبة التي اقترفها المبشرون ومنها عمليات إفساد الضمائر وشراء الاطفال .

كما يكشف البحث عن مدى تدخل المبشرين في السودان في الحركات السياسية والانفصالية في الجنوب وتحريضهم ابناء الجنوب من الوثنيين على الثورة وتقتيل ابناء الشمال، وكذلك في موقفهم من إسرائيل وتعاونهم معها.

كذلك فهم يرون ان انحدار الدولة العثمانية أرخ لنهاية الحكم الاسلامي بالسيطرة على العالم ، وان الحقيقة الكبرى الحديثة في العالم الاسلامي هي وجود إسرائيل (وهذا وكثير مثله يكشف عن مدى صلة الارساليات وجامعاتها الكبرى بأهداف الصهيونية العالمية) .

كذلك أشار الباحث الى ما ابتدعته مؤسسات التبشير في السنوات الاخيرة مما اسمته فكرة الحوار التي دعا اليها (لويس جارديه) بديلاً عن فكرة التبشير في بعض المناطق وهي تقوم على أساس ما يراه المبشرون من ان هناك أموراً مشتركة يمكن ان تكون اساساً للحوار بين المسلمين والمسيحية كوجود الإله والوحي وواجبات الإنسان وذلك مما عهد لقيام مناقشة مفتوحة حرة .

ويشير البحث الى ان الارساليات في جنوب السودان استطاعت تدريب عدد من أبناء الجنوب المتنصرين للقيام بأعمال التبشير في خلال ستين عاماً حيث استطاعت الكنيسة الانكليكانية تعميد ٣٢ قسيساً ومبشراً افريقياً ، وقد حلّ هؤلاء محل المبشرين المائة الذين طردتهم حكومة السودان » .

● ● ●

ولا ريب ان هذه الوقائع الحديثة كلها تعطي نذر الخطر المستمر المتصل وخاصة بالنسبة للمستقبل . فإذا راجعنا موقف الارساليات في السنوات الاخيرة في اندونيسيا وجدنا ان تحدياً خطيراً يقع هناك ، كذلك بالنسبة لدولة صغيرة كالأردن ، وقد أشار الاستاذ يوسف العظم الى هذه الظاهرة بالنسبة لبلد صغير كالأردن توجد فيه مائتا مدرسة من مدارس الارساليات « تلتقي في هدف واحد وعند غاية مشتركة » ان تخرج الجيل الجديد الذي لا يحترم عقيدته ولا يؤمن بتراثه أو يحس بوجوده ، وإذا علمنا ان عدد سكان الأردن لم يبلغ المليونين بعد أدركنا أيّ أثر يتركه هذا الحشد من القلاع الفكرية التي يخطط لها فتنفذ اشنع جريمة ضحيتها جيل بريء غافل ، ومن هذه المدارس : الفرير والتراسنطا والمطران والكلية الأهلية وهانوميان بوزباستيان والارمن الأرثوذكس والسالزيان وراهبات الوردية ، وراهبات صهيون والبيلار والاذفنستست الخ .. الخ .

كذلك فإن اندونيسيا في السنوات الاخيرة تعرضت لحملات تبشيرية ضخمة قوامها مدارس الارساليات . وتشير التقارير الى ان حملة التنصير اليوم أشد وأقوى في اندونيسيا مما كانت عليه ايام الحكم الهولندي .

وتشير التقارير الى ان الفاتيكان قد عين كاردينالاً و ٢١ اسقفاً للابقاء على حركة الارساليات التبشيرية ونشاطها وقد استطاعت الكنيسة الكاثوليكية

ان تشن حملة مدعومة بقوى هائلة من السند والعون الماديين في البلدان الغربية تستمر عشر سنوات كاملة على النحو الذي فصله كتاب (واجبنا في اندونيسيا اليوم) الذي صدر يحمـل مخططات الغزو الموجهة الى اندونيسيا عن طريق الإرساليات .

وتقرير الاستاذ علال الفاسي : ان هـذا النشاط لا يقتصر على اندونيسيا وحدها وإنما هو جزء من خطة تشمل العالم الاسلامي كله .

(٨)

وقد سجلت الصحافة العربيـة الدور الذي تقوم به الارساليات على أنه مشروع مرتبط بالنفوذ الأجنبي ، ففي مقال نشرته جريدة المقطم في (١ — مارس ١٩٢٤) تحت عنوان (المدارس الأجنبية في الشرق) يتكشف للباحث مدى الخطر الكامن وراء الارساليات واعمالها يقول :

المدارس الأجنبية المسيرة في أقطار الشرق الأدنى والمنبثة في مدنه وقراه يد كبيرة على النهضة الشرقيـة الحاضرة لا ينكرها منصف ولا يجحد فضلها جاحد ، وغني عن البيــان ان كلمة المدارس الأجنبية تشمل جميع المدارس والمعاهد العلمية التي أنشأتهافي ربوع الشرق الأدنى الجمعيات الدينية أو بعثات التبشير أو حكومات أجنبية أو شركات اخرى بقصد الربح .

لهذه المدارس صبغات وجنسيات مختلفة منهـا الفرنسوي والأمريكي والإنجليزي والايطالي والالماني والروسي، وبين المدارس الفرنسوية ما هو ديني وما هو علماني، ولئن كانت خدمة العلم ونشر التهذيب هي المحور الذي تدور عليه أعمال المدارس كلها والغاية التي تنشرها فإن لكل بعثة منها غرضاً خاصاً ينطوي عليه برنامجها وتسير نحوه وهو نشر لغـة قومها بين ظهراني الشرقيين وتلقينهم تاريخها وسير أبطالها وتحبيبها اليهم بقـدر الامكان ، وربما كان بينها من يعمل عمداً وبغير عمد لتنفير الشرقيين من لغتهم وتاريخهم وطبعهم بطابع الأمة التي تمت اليها المدرسة بصلة النسب .

وقد كانت البعثات الفرنسوية اكثر هذه البعثات نشاطاً وحركة، فكثرت مدارسها وازدادت معاهدها زيادة تستوقف الأنظار ولا سيما في سوريا ولبنان والقطر المصري فلا تكاد تخلو مدينة أو بندر من مدرسة أو مدرستين لهذه البعثات التي وقفت نفسها بشهادة جميع العارفين على خدمـــة النفوذ الفرنسي ونشر الآداب واللغة الفرنسية .

وهناك من يعتقد ان الاحتلال الفرنسوي الحاضر لسورية ولبنان هو نتيجة من نتائج عمل البعثات إذ توسل الفرنسيون لصيانة مصالحهم في سورية ولبنان بهذا الاحتلال بالمعنى الصحيح . ونظن ان هذه المصالح لا تتعدى دائرة هذه المدارس التي تعد بالمئات علاوة على ما أعدته هذه المدارس من الأنصار لفرنسا من خريجيها وتلاميذها السابقين وذوي قرباهم . وللیسوعيين ايضـــاً مدارس عديدة في منطقة كيكيلية التركية ولهم مدارس في الآستانة وضاحيتها وفي إزمير وغيرها من المدن التركية ، وقد نافس الأمريكيون الفرنسيين في لبنان وسوريا في اواسط القرن المـــاضي منافسة مثيرة ، وإذا كان الأمريكان قد نافسوا اليسوعيين فبزوهم في لبنان وتفوقوا عليهم بذلك الصرح العلمي (جامعة بيروت) الذي أخرج للمشرق العربي طائفة من علمائه وزعماء نهضته فإن رجال البعثات الفرنسوية عملوا بنشاط في مصر والأناضول والآستانـة نفسها حيث المزاحمة شديدة .

ونشط الإيطاليون في السنين الاخيرة لإنشاء المدارس في معظم انحاء تركيا وهم يرمون بذلك الى نشر لغتهم وتعميم آدابهم ومزاحمة البعثات الفرنسوية . وبين الفرنسيين والايطـاليين من التنافس على سواحل البحر الأبيض لأن كلا منهما تطمع في للسيادة عليه .

وكانت هذه المدارس تتخذمن أدوار الضعف التي تتعرض لها الامبراطورية العثمانية وسيلة لتوطيد نفوذها وتوسيع دائرة اختصاصها » .

وهذا في مجموعه اعتراف كامل بالدور السياسي الخطير الذي قامت وتقوم به الارساليات .

وقد أشار كتاب الغارة على العالم الاسلامي الذي ألفه شاتليه ومجموعة من المبشرين بأن الفرصة الكبرى التي أتيحت للارساليات إنما جاءت بعد سقوط السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٨ حيث أمكن منذ ذلك الوقت تفسيخ الدولة العثمانية وتوسيع بعثات التبشير على النحو الذي حقق تنفيذ مناهج التعليم على النحو الذي رسمته مخططات الغزو حيث يسجل الدكتور زويمر زعيم المبشرين وكبيرهم في الشرق في هذه المرحلة ما يأتي :

إن السياسة الاستعمارية لما قضت منذ نصف قرن –أي منذ عام ١٨٨٢– تقريباً على برامج التعليم في المدارس الابتدائية أخرجت منها القرآن ثم تاريخ الاســـلام ؛ وبذلك أخرجت ناشئة لا هي مسلمة ولا هي مسيحية ولا هي يهودية . ناشئة مضطربة مــادية الاغراض ، لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقاً ، فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة .

ومن ذلك قوله الذي صار حكمة ومنطلقاً للعمل التبشيري كله في معاهد الارساليات وعلى ضوئه يمكن النظر بوضوح الى المناهج والأهداف والاتجاهات يقول: «إن مهمة التبشير الذي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية وإنمـــا مهمتكم ان تخرجوا المسلم من الاسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة لا بالله وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الامم في حياتها » .

وليس بعد هذه الوثائق صراحة ولا وضوح في الكشف عن غاية الارساليات وأهدافها .

(٩)

والآن نستطيع ان نتساءل مـا هو الهدف الحقيقي للارساليات التعليمية في العالم الاسلامي ؟

وأن نجيب بأن الهـدف في الحقيقة هو السيطرة على الجيل المسلم الجديد منذ مطالعه لاعـداده على النحو الذي يكفل له عندما يصبح في مقام العمل السياسي والاجتماعي والثقافي في وطنه ان يكون صاحب ولاء فطري وثقافي قوامه الحب والاعجاب والتقدير للذين علموه ونشّأوه .

ومن هنا اهتمت الدول المستعمرة خلال فترة ما بين الحربين بتثقيف أبناء العظماء وكبار رجال السياسة ونقلهم الى المعاهد الاجنبية ، وذلك لخلق هذه الطبقة وإعدادها . وقـــد كان إغراؤهم عجيباً لكثير من أصحاب المراكز العالية حتى بعض كبار المسؤولين في مجال الاسلام على تعليم ابنائهم في معاهدهم، وقد أشارت تقاريرهم الى ذلك بما أسمته :

« نزوع أهل الطبقة الراقية الى المدارس الأجنبية » .

وقد أكد المراقبون النتائج الخطيرة التي حققها تعليم المسلمين في الارساليات من تقريب المسافة بين الاستعمار وأهل الأوطان الاسلامية وما حققة من حل كثير من القضايا الجوهرية بمـــا يوافق رغبات المستعمرين . وأهم هذه القضايا

المسألة الشرقية وقيام إسرائيل في قلب الوطن العربي ، وليس أدلّ على اهمية ذلك من ان الذين حملوا لواء التشهير بالدولة العثمانية والسلطان عبــد الحميد وعملوا على تمزيق الرابطة بين العرب والترك وتمكين الدول الأوربية من تقسيم الغنيمة فيما بينهم كانوا من الذين تعلموا في معاهد الارساليات التبشيرية وهؤلاء الذين خدموا النفوذ الاجنبي في مصر وكانوا مخلصين لكرومر وغيره من قادة الاستعمار وأصحاب الصحف ومحرروها كانوا جميعاً من خريجي معاهد الارساليات وخاصة في بيروت ومنهم من دعا عام ١٩٣٥ الى إنشاء دولة يهودية في فلسطين ودولة مسيحية في لبنان، ومنهم من أعادوا الدعوة عام ١٩٤٥ الى ان يكون لبنان وطناً قومياً للنصارى في الشرق الأدنى ومنهم حمــلة لواء الدعوة الى العامية والحروف اللاتينية وهم قادة كل الدعوات التي عملت وتعمل على تعميق الاقليمية وبث روح الشعوبية وتمزيق وحدة العرب والمسلمين الفكرية وإيقاع الخلاف بين العرب وبين العرب والمسلمين .

وترجع خطورة مـدارس الارساليات التبشيرية الى أنها لا تدرس الاسلام ولا اللغة العربية كلية ولكنها تدرس اللغات الأجنبية المختلفة والثقافة المسيحية المستمدة من التوراة والانجيل في أبواب الأخلاق ، وبعضها علماني محض ينظر إلى الأخـلاق والأديان والعروبة والاسلام والتاريخ الاسلامي نظرة تشكيك وازدراء ويتناوله تناول النقد المشوب بروح الازدراء .

وقد راجع كثير من الباحثين أخطار الارساليات على الشباب المسلم فأشاروا الى ان أول همّ المبشر هو هـدم الاعتقاد في تلميذه فيصبح الطالب مستخفاً بالمعتقدات ، أما الخطوة الثانية فهي محاولة غرس تعاليم جديدة في ارض لم تعد صالحة للاعتقاد ، وذلك يؤدي الى أخطر النتـائج ، وهو حض الطلبة على النفاق والمراءاة .

وقد أشار الدكتور عمر فروخ الى ان هنـاك مُسلّمات تدرّس في معاهد

الارساليات منهـا ان نصارى لبنان هم الذين بعثوا النهضة العربية الحديثة ، وهو غير صحيح وان الفلسفة العربيـة ليست إلا الفلسفة اليونانية مكتوبة بحروف عربيـة ، وهو من أقوال المتعصبين أمثال رينان . ذلك ان هناك فلسفة عربية إسلامية تختلف عن الفلسفة اليونانية والغربية جملة .

ومما قاله عمر فروخ ان مثل هـذا السؤال عندما يوجه في الامتحانات العامة للتلميذ المسلم يكون الاجابة عليه علامة ودليلا على مـدى استسلام الطالب للأهداف ، فإذا انتصر للفلسفة العربيـة انتصاراً ظاهراً فإنه سوف يجرب حظه في دورة تالية ، أي أنه لا يعطى درجة تمكنه من النجاح .

الفصل الثاني

التعليم الوطني

إذا كانت صورة التعليم في معاهد الارساليات قد كشفت عن هذه المحاذير الخطيرة فإن التعليم الوطني في البلاد المستعمرة قد مر بتجربة أشد خطورة وأبعد أثراً في هدم شخصية الطالب المسلم وتدميره وجعله أداة طيعة للنفوذ الغربي ، وموالياً مستسلماً للأجنبي المحتل . ولا ريب ان التعليم الوطني قد جاء صورة من التبعية والولاء في برامجه وأعماله واتجاهاته لما خططه الاستعمار في معاهد الارساليات التي سبقت الاحتلال وتمرست سنوات طويلة بالعمل قبل السيطرة الثقافية التي فرضها النفوذ الاستعماري .

ففي مصر منذ عام ١٨٤٤ بدأت الارساليات ممهدة للاحتلال الذي وقع عام ١٨٨٢ حيث كانت تجربة ستين عاماً كفيلة بأن تمد النظم التعليمية التي وضعها المحتل خبرة في العمل ومجموعة كافية من المناهج والدراسات التطبيقية.

والأمر كذلك بالنسبة للاحتلال الفرنسي لسوريا ولبنان والجزائر وتونس والمغرب وبالنسبة للاحتلال الغربي بصفة عامة ، وفيما يتعلق بتركيا فقد سبقت

معاهد الارساليات في العمل جميع المخططات التي فرضتها حكومة الاتحاديين بعد عام ١٩٠٨ وما رسمته حكومة الجمهورية التركية بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى .

وقد أكد دكتور زويمر رئيس المبشرين في البلاد العربية في الثلاثينات ما هدفت اليه السياسة الاستعمارية وما حققته حين أعلن تصريحه الذي قال فيه :

« إن السياسة الاستعمارية لما قضت من نصف قرن على برامج التعليم في المدارس الابتدائية أخرجت منها القرآن ثم تاريخ الاسلام وبذلك أخرجت ناشئة لا هي مسلمة ولا هي مسيحية ولا يهودية. ناشئة مضطربة مادية الأغراض لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقاً فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة » .

وأكد هاملتون جب هدف خطة التعليم في المدارس الوطنية واعتذر عما وصلت اليه من نتائج خطيرة حين قال :

نفذت خطة إنماء التعليم العلماني بإشراف الإنجليز في مصر والهند، ولعل هناك نصيباً من الحق في التهمة التي ترمى بها هذه المدارس من أنها مفسدة لقومية التلاميذ ، والذي فعلته لا ريب فيه أنها ربت في التلاميذ خروجاً على الأنظمة الاجتماعية وعلى السياسة الى حد ما في أوطانهم الأصلية بإضعافها من هذه الوجوه لسلطان النزعة الاسلامية القديمة على التلاميذ وأدخلت في بناء المجتمع الاسلامي آراء هدمته وقطعت بعض الأواصر التي كانت تحفظ تماسكه».

ولم يكن مثل هؤلاء يصرحون بما صرحوا به إلا بعد ان تم تنفيذ الخطة وآتت ثمارها ، هذه الخطة ذات الشقين المتتاليين : مدارس الارساليات ترسم الطريق والمناهج ثم يجيء الاستعمار فيفرض هذه المناهج على المدارس الوطنية مع تغييرات طفيفة .

يقول ليوبولد فايس (محمد أسد : المستشرق المسلم) :

إن الايمان والإلحاد في الأغلب ينتقلان الى الانسان من بيئته الثقافية .

إن النشأة الغربية لأحداث المسلمين ستفضي حتماً الى زعزعة إرادتهم .
يجب علينا ان لا نتردد في درس العلوم الرياضية والطبيعية حسب الأسس الغربية ، ولكن يجب ان لا نتنازل للفلسفة الغربيــة عن أيّ دور من أدوار تنشئة أحداث المسلمين ، ولا ريب في ان بعضهم قــد يستطيع ان يقول إنه من الصعب في كثير من الاحيان ان نجعــل فاصلاً بين العلم التجريبي والفلسفة النظرية ، وذلك حق ولكن من الناحية الثانيــة : تلك هي النقطة التي يجب على الثقافة الاسلامية ان تثبت نفوذهــا عندها ، وسيكون من واجب علماء المسلمين ومن الفرص السانحة لهم ايضــاً إذا وصلوا الى حدود البحث العلمي ، ان يستخدموا نظرهم العلمي مستقلين فيه عن النظريات الفلسفية الغربية ، وانهم من طريق اتجاههم العقلي الخــاص الاسلامي قد يصلون على الأرجح الى نتائج في المعقولات تختلف كل الاختلاف عن تلك التي وصــل اليها العلماء الغربيون المحدثون .

ثم قال : إن تعلم الأدب الاوربي على الشكل الذي يسود اليوم الكثير من المؤسسات الاسلامية يقود الى جعــل الاسلام غريباً في عيون الناشئة المسلمة ومثل هذا — ولكن الى حـــد بعيد — يصدق على التعليل الاوربي للتاريخ العام إذ لا يزال الموقف القديم « رومانيون وبرابرة » يظهر بجلاء ، ثم إن براهينهم تقوم على الزعم ايضاً بأن تطور العالم لا يمكن ان ينظر إلا على أساس تجارب الثقافة الأوربية .

ويشير الكاتب الى ان المدارس الرسمية كالمدارس التبشيرية لا تعنى بتدريس الدين الاسلامي للناشئة بل تتركه حراً فينشأ المتعلمون كارهين لدينهم أو غير مهيئين لتقبل التعاليم الدينية مطلقاً بحسب تربيتهم .

(٢)

عندما سيطر الاحتلال في مصر ١٨٨٢ كانت هنـاك مدارس الارساليات وكان هناك التعليم الوطني الحر القائم على مناهج عربيـــة إسلامية شاملة . فكانت خطة الاحتلال مزدوجة ، قوامها القضـاء على التعليم الوطني وخلق تعليم بديل له يستمد مناهجه من نظم مدارس الارساليات ، ودفع مدارس الارساليات الى استيعاب أبنـاء الطبقة الراقية . ولم تمض سنوات قليلة حتى اختفت معالم التعليم الوطني الأصيل وحلت بدلاً منه نظم معاهد الارساليات، وفي نفس الوقت توسع التعليم في مـدارس الارساليات وتضاعف وفتحت له الابواب على نحو أكثر قوة وأشد عمقاً مما كان في أيام سعيد وإسماعيل .

ويعد تقرير اللورد دوفرين هو نقطة البدء في هـذا التحول الخطير وقد وصفه بعض الساسة الاجانب وصفاً صحيحاً حين قـــال : إن تقرير اللورد دوفرين عن التعليم يرمي الى ان يكون المصريون أحسن الاصدقاء والنصحاء لبريطانيا والغرب دون ان تفرضوا عليهم آراءكم أو تجعلوهم تحت وصاية تستثير حفائظهم .

وقـد أشار تقرير اللورد دوفرين الى حـــالة التعليم القائمة في مصر وفي مقدمتها الأزهر الشريف : وقـد وصفه بأنه مدرسة جامعة يدرس فيها علم الكلام والفقه والنحو والمنطق وآداب اللغـــة العربية وبه من الطلبة نحو ٨

آلاف طالب على ثلاثمائة أستاذ .

أما مدارس الحكومة فقـــد وصفها بأنها مدارس بسيطة عددها ٥٣٧٠ تحتوي على ١٣٧٥٥٣ طالباً وتعلم فيها القراءة وحفظ القرآن غيباً .

ومدارس أوليةعالية ويوجد بها نحو ٢٧ تحتوي على ٤٦٦٤ طالباً(والاولى هي المدارس المجانية والاخيرة هي المدارس ذات المصروفات) وقال إنها تعلم القرآن الشريف واللغة العربية وعـــلم الحساب ومبادىء الجغرافيا والتاريخ ومبادىء لغة أجنبية ويترقى الطالب في هـــذه المدارس الى المدرسة العليا التجهيزية في القاهرة ومن هـذه يتدرج الى مدرسة الصنائع والفنون ، وأشار الى المدرسة العليا وقال إنها تحوي ٢٩٢ طالباً .

أما مدارس الصنائع والفنون : فمنها الطب ١٧٦ طالباً وسائر الفنون ٥٠ طالباً والمساحة ٣٩ طالبـــاً والفنون والصنائع ٥١ طالباً والشرع ٣٧ طالباً ومدرسة اللغات ٢٣ طالبـاً ومدرسة الأساتذة ٦٠ طالباً والفعلة ٧٩ طالباً ومدرسة العميان والخرس ٧٥ طالباً والبنات ٣٠٠ طالبة والمدرسةالعسكرية.

وأشار الى أنه يوجد في أوربا ٤٩ شاباً مصرياً مرسلون.

وأشار الى المدارس التي انشأها المرسلون الاجانب ونحلهم ويبلغ عـددها ١٥٣ مدرسة تحتوي ١٣٣٤٧ طالباً منهم ٥٣ في المائة من المصريين .

وأشار التقرير الى ان طريقة التعليم في الجامع الأزهر جافة ودروسها في العقيدة عقيمة لا تثمر فائدة ولا نتاجاً .

وأشار دوفرين في توصياته الى ما يلي :

« أخال ان أمل التقدم ضعيف طالما ان العامة تتعلم اللغة الفصيحة العربية لغة القرآن كما في الوقت الحاضر حالة كونها لا تتعلم اللغة العربية الدارجة لأن نسبة اللغة المصرية الدارجة الى لغـــة القرآن كنسبة الايطالياني الى اللاتيني

والاغريقي القديم ، وعربية الفلاح لغة قائمـة بنفسها وقواعدها خاصة بها ، وإذا لم توجد هـــذه الاحتياطات الضرورية للحصول على النتائج الفعلية في المدارس العديدة التهذيبية التي اشرت اليها يستمر الجيل الجديد كسابقه غير صالح لخدمة وطنه سواء كان للقيادة العسكرية أو في الصنائع أو في الخدمات، وتظل عبارة مصر للمصريين كما كانت اسماً بلا مسمى » [1] .

وهكذا وضع دوفرين الجرس في رأس القط . وجـاء كرومر ودنلوب منفذين إقصاء القرآن واللغة العربية ، وهذا ما أشار اليه « زويمر » وكشف عن أنه لم يلبث ان تحقق ، وفرغت مناهج التعليم من أقوى دعائم بناء أبناء المسلمين وأقصي الأزهر مرة اخرى بعد ان أقصاه محمد علي بإنشاء وزارة المعارف .

وقد دفع هذه الحقيقة كل من أرخ لمصر وهي لم تفت اللورد لويد في كتابه (مصر منذ أيام كرومر) حيث قال :

إن التعليم الوطني عندما قـــدم الإنجليز كان في قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين والتي كانت أساليبها الجـافة تقف حاجزاً في طريق أيّ إصلاح تعليمي ، وكان الطلبة الذين يتخرجون من هذه الجامعة يحملون معهم قدراً كبيراً من غرور التعصب الديني . فلو أمن تطوير الأزهر لكانت هذه خطوة جليلة الخطر فليس من العسير ان يتصور لنا أي تقدم طالما ظل الأزهر متمسكاً بأساليبه هـــذه ولكن إذا بدا ان مثل هذه الخطوة غير متيسر تحقيقها فعندئذ يصبح الأمل محصوراً في إيجـاد التعليم اللاديني الذي ينافس الأزهر حتى يتاح له الانتشار والنجاح » .

ونحن نعرف ان مناهج الأزهر كانت جامدة ولكنها لم تكن بالصورة التي

---

(١) المقتطف ص ٦٦٨ م ٧ .

تعارض بنـــاء المسلمين على أساس من قوة العقيدة وسلامة العقـل ، ولكن الاستعمار لم يكن يريد بقاء مثل هذه الشخصية القادرة على مقاومته ومعارضته، فلا بد من تحطيم وجودهـا بالتعليم اللاديني . كذلك فإن الدعوة الى تطوير الازهر كانت خطوة اخرى على الطريق جاءت نتائجها من بعد حين أذعنت الامة لمطلب الانجليز ومزقت الازهر الى تخصصات ثم دمرت أسلوبه العلمي القديم، فلم يعدمن شيء يستطيع ان يقف أمام شبهات الاستشراق ومغالطات دعاة التغريب .

ويستطيع هـذا النموذج الحي أن يعطينـا صورة التعليم الوطني في مصر وكيف تطور بعد الاحتلال تنفيـــذاً لخطة دوفرين ومنهج كرومر وأسلوب دنلوب بما يحقق هدف الاستعمار من تخريب العقول والنفوس .

يقول الاستاذ محمد لطفي جمعة :

إننا تعلمنا في المدرسة الثانوية (وكانت الخديوية التجهيزية بدرب الجماميز) في أوائل هذا القرن (١٩٠١ – ١٩٠٢) وكان استاذنا في التاريخ المستر هيل ويعلمنا باللغة الانجليزية أن اثنين من رجـال أوروبا أنقذا المدنيـة الغربية من السقوط على أيدي البرابرة المتوحشين : أولهما تمستوكليس اليوناني الذي هزم قورش أو (زاجزيز) الفارسي في موقعة سلاميس الشهيرة والرجل الثـــاني (شارل مارتل) الذي هزم العرب في موقعة بواتيه : الأولى حصلت في ٤٨٠ قبل المسيح والثـــانية حصلت ٧٣٢ بعد المسيح أي أن بينهما ألف ومائتين واثنتي عشرة سنة ، وقد كتبنا هذا بأنفسنا وبأيدينا بإملاء استاذنا الانجليزي ، الذي مثل لنا أمة العرب التي أنجبت مئات الألوف من رجال العلوم والفنون والآداب والذين علموا أوروبا وهذبوهـــا ، في وحشية وقسوة تعادل وحشية الفرس الوثنيين قبل الميـلاد بخمسة قرون فصدقنا هذا وآمنـــا به وتعلمناه وحفظناه وأدينا فيه امتحانات عشرة .

ثم قال الكاتب في موضع آخر :

إن دنلوب العظيم العبقري أعظم من أنجبتـه انجلترا لقتـل مصر والشرق

تمكن في عشرين عاماً من تخريب العقول والنفوس والضمائر والعواطف مما لو جندت بريطانيا مليون جندي على مصر فإننا لما دخلنا المدارس التحضيرية في أوائل هذا القرن وجدنا أساتذة التاريخ من الانجليز أمثال مستر هيل ومستر فرنسكروفت فأخذوا يملون علينا مقطعات بالانجليزية عن تاريخ الدولة الرومانية والقرون الوسطى وحروب الأديان والنزاع بين الكاثوليك والبروتستانت وسلطة البابا وفردريك الأكبر وكاترين العظمى ، كل ذلك في فصول مختصرة مختلة سقيمة الأسلوب عقيمة المعنى . وكان امتحاننا يدور حول هذه المسائل ، ولم نعط كتاباً ملماً بهذه الموضوعات لا جيداً ولا رديئاً أما تاريخ الشرق والعرب ومصر فلم نأخذ منه كلمة واحدة إلا سطراً واحداً كأننا نشأنا من العدم وإلى العدم نعود ، ودائماً اذا ذكر الشرق كان يذكر في مجال الانحطاط والسقوط والفشل والحروب التي فاز عليه الغرب فيها مثل صد اليونان للفرس والفرنسيين للعرب والنمسويين للترك وسقوط العرب في الاندلس وانحلال الدولة العثمانية بعد تغلب روسيا عليها .

أما مصر القديمة ومجدها وحضارتها فداخلة في منطقة الصمت وكذلك الحروب الصليبية لم يعرف منها إلا ما كان ماساً بقهرنا .

وإن الانصاف يحدوني أن أذكر رجلاً واحداً هو مستر جونز من بلاد ويلس عين استاذاً للتاريخ (١٩٠٤ — ١٩٠٥) في المدرسة الخديوية بدرب الجماميز ، وكان له اسلوب وفكر وضمير ، وأملى علينا بضعة دروس في تاريخ مصر والعرب فعزل في آخر العام الدراسي ولم يعد الى وادي النيل .

وهذه الخطة التي أراد الانجليز ان يحرمونا بها من ضمائرنا ويسرقوا وجداننا القومي ويقطعوا الحلقة التي تربطنا بالماضي هي نفسها الخطة التي اتبعوها ونفذوها في الهند ، وهي نفسها التي اتبعتها ونفذتها فرنسا في تونس والجزائر ومراكش ، وهي التي يتبعها كل مستعمر وكل متغلب وفاتح [١] .

---

(١) البلاغ الاسبوعي ١٩٣٢/٢/٧ .

تلك هي صورة التخطيط الذي رسمه الاحتلال في مصر وطبقه الاستعمار في مختلف أجزاء العالم الاسلامي. وكان كرومر هو الرائد الذي سار عليه كل من جاء بعده ، فالمارشال ليوتي والكردينال لافيجري في المغرب هما كرومر ودنلوب في مصر تماماً .

جاء كرومر الى مصر بعد الاحتلال بعام أو عامين ١٨٨٤ تقريباً ، وعين دنلوب سكرتيراً عاماً لوزارة المعارف عام ١٨٩٧ ثم مستشاراً عامـاً لها عام ١٩٠٦ وكان في أول أمره قساً مبشراً عمل في وظيفة مدرس للغـة الانجليزية والخط الافرنجي في مدرسة رأس التين الثانوية ثم لفت نظر كرومر فدفعه الى العمل في نظارة المعارف وما زال يترقى حتى اصبح مسيطراً سيطرة كاملة على شؤون التربية والتعليم .

ويعـد (دنـلوب) واضع المخطط الاساسي لتغريب التعليم والتربيـة وإقصاء الاسلام وتاريخه واللغة العربية عن برامج التعليم في المدرسة المصرية ، وهو أيضاً منفذ هذا المخطط والمشرف عليـه سنوات طويلة حتى بعد انتهـاء الحرب العالمية الأولى . وقد عمـل دنلوب على محـاربة اللغة العربية والاسلام والازهر واضطهد معلمي القرآن واللغة العربية من الازهريين ونشر لواء اللغة الانجليزية وأهلها للسيطرة الكاملة على كل شؤون التعليم وقضى على نفوذ اللغة العربيـة .

كما أنشأ جيشاً ضخماً من الانجليز حملة الشهادات الأهلية للعمل بالمدارس المصرية وفق خطة ماكرة لخلق شعور عـام بكراهية تاريخ المسلمين ولغتهم وإثارة الشكوك حولها وطعن روح الوطنية في الشباب المصري والقضاء على حماستهم ، وقد داسوا على كل عاطفة وطنية واضطهدوا كل شاب أظهر ميلاً أو عاطفة نحو دين او وطن ، وأنشأوا نظاماً للتجسس في المدارس يطاردون به الشباب الوطني،وحرموا على كل مدرس مصري ان يتحدث عن تاريخ مصر او تاريخ العرب او تاريخ الاسلام بما يبرز عظمة أمتنا ، وكان أهم مـا يقـال

إن مصر بـلد زراعي ، وإنها ظلت محتـلة طوال تاريخهـا بالفرس والرومان والأتراك ، وإنها لن تحكم نفسها أبداً ، وإن جيشها قد هزم في التل الكبير ، وإن الجنود المصريين ذبحـوا ليـلة ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ التي كانت قمرية ذبح الخراف وكان محرماً على أي طالب مصري أن يقرأ جريدة وطنية .

وقد قـاوم كرومر ودنلوب نشر التعليم العـالي في مصر وسجل ذلك كرومر في تقريره حين قال عام ١٩٠٧ :

إن انجلترا لا تريد نشر التعليم العالي في مصر وإنهـا لا تريد إلا إعداد جمهور من طبقة الأفندية ليشغلوا الوظائف الثانوية في الحكومة ، وإن المصريين لا يصلحون للعلوم العالية ، وإن زيادة التعليم تصرف عن فلاحـة الأرض وتعود على مصر بالإفلاس .

وقد حرص دنلوب بتوجيه كرومر وبريطانيا على تنفيـذ خطة واضحة المعالم للعمل على وقف انتشار التعليم أو ترقيته وسبيلهم الى ذلـك تقليل اعتمادات المعارف وصرف اغلب المبالغ على بناء القصور المشيدة واقتناء الاثاث الفاخر للمدارس ، وكان دنلوب يعمل على قلب المدارس الابتدائية الى أولية راقية اكتفاء بالمدارس الأميرية في كل مديرية كما شجع انتشار المدارس الأجنبية وفق غايات سياسية تسير في نفس الاتجاه الاستعماري وهو تحطيم كيان الأمة وإفساد معنويتها .

وحرص دنلوب على معاملة الطلبة الوطنيين بمنتهى القسوة فعدل عام ١٩١٠ المـادتين ٨٨ و ١٠٠ من قانون نظـام المدارس بفرض عقوبـات على التلاميذ وفصل كل تلميذ لا يحصل على ٢٠ درجة في السلوك واتخذ من ذلك سبيلاً الى خنق الشعور بالحرية .

وقد سجل مسيو (ادوار لامبير) ناظر مدرسة الحقوق في تقريره الذي نشره في جريدة الطان ١٩٠٧ بعد أن أبعده كرومر ودنلوب لأنه فرنسي ،

سجل صورة الصراع بين الفرنسيين والانجليز على المناصب الكبرى في التربية والتعليم وكشف عن الخطـة التي رسمها كرومر ونفذهـــا دنلوب في إقصاء الفرنسيين عن المناصب الكبرى في المدارس العاليـــة وتعيين أساتذة إنجليز بدلاً منهم ، دون ان يكونوا في مستواهم من الناحية الفنية وانه قد أخرج الأساتذة الفرنسيين من القضـــاة من مدرسة الحقوق واستبدل بهم شباناً من الانجليز عينوا بمجرد تخرجهم من الكليات البريطانية دون ان يكون لهم أي قدر من الكفاية التي تمكنهم من دراسة القانون. كما أشار الى الأنظمة الاستبدادية التي اتخذهـا بالنسبة للطلبة وكيف عاملهم بقسوة متناهية واضطهدهم وجرح كرامتهم مما احـــال مدرسة الحقوق معقلاً للوطنية المصرية بحيث أصبح كل طلابها الاربعمائة تابعين للحزب الوطني .

وإن كرومر قد اضطر تحت ضغط الرأي العام الى تعيين (سعد زغلول) ناظراً للمعارف وعمل على سلب سلطته الفعلية ، وأشار الى الخطط التي كان دنلوب يدبرها مع نظار المدارس وكبار الموظفين للاتصال به شخصياً وتلقي أوامره وتعليماته قبل ان يكتبوا تقاريرهم الرسمية ، وقال لامبير في تقريره :

إن الموظف القـــابض على الإدارة الحقيقية لوزارة المعارف هو دوجلاس دنلوب وفي الفترة الطويـــلة التي قضاها دنلوب في وزارة المعارف وقد تبعه خليفة له سار على نفس الخط تحقق تنفيذ خطـة التغريب الكاملة للتعليم على النحو الذي استمر يشق طريقه من بعــــد والى وقت قريب وما تزال آثاره باقية .

وكان هدف هذا المخطط أساساً هو تغريب الثقافة العربية وتدمير الذاتية الاسلامية وإحالتها الى مزيج مضطرب من نتف الثقافات المختلفة ومحـــاولة التشكيك في كل مقومات فكرنا وأمجـادنا وتاريخنا الحافل بالمواقف الحاسمة والمواقع الخالدة في الدفاع عن الحرية والحق ومقاومة الغالب والمشاركة في الحضارة البشرية وحماية آثارها .

ولقد أبطل دنلوب عديداً من الكتب التربوية التي كانت تبني الذاتية الاسلامية في الشباب ، وقد كشفت جريدة المؤيد (٢٥ يوليو ١٨٩٩) عن نماذج من هذا العمل وقالت إن هذه الكتب كانت معارضة لهدفه من الوجهتين الدينية والسياسية وذلك بإيرادها قواعد الاسلام وأركانه مصحوبة بالحكم والآيات والقرآن والأحاديث التي تحث على حب الوطن والتعاون وإصلاح ذات البين ، وفي سبيل إعدام هذه الكتب أعلن دنلوب ان مثل هذه الكتب غير وافية بحاجات التعليم وأوعز الى بعض المدرسين الموالين له بأن يضعوا كتباً بديلة لها تضم خرافات لافونتين وقصص مترجمة لا تمثل الروح العربي وتتعارض مع الذوق الاسلامي ، وقد قدمت هذه الكتب في اسلوب نازل وعبارة سقيمة . وأشارت المؤيد الى ان الشيخ حمزة فتح الله ناضل في سبيل إحباط رأي دنلوب فأعلن الاخير ان كل كتب المطالعة يجب ان تخلى تماماً من كل ما له صلة بالدين .

ومثل هذا حدث مع الشيخ عبد العزيز جاويش الذي عاد من بريطانيا بعد ان تعلم في كمبردج وقد كانت له الجرأة في مناقشة دنلوب في منهج مدرسة المعلمين إذ كان يرى ان يكون المنهج عاماً واحداً ، فاعترض جاويش وقال إن في مدرسة المعلمين ببريطانيا برنامجاً في أربع سنوات فأشار دنلوب الى ان مدرسة المعلمين في مصر إنما تهدف الى تخريج مدرسين يؤدون واجباً محدوداً لا يزيد عن إعداد الموظفين ، وكان ذلك متمشياً مع خطة كرومر المعروفة : « عقل بريطاني ويد مصرية » وقد واجهت مؤلفات عبد العزيز جاويش نفس مصير مؤلفات علي مبارك وعبد الله فكري وقد اقصيت جميعاً وألفت بدلاً منها كتب اخرى تحقق هدف دنلوب وهدف التغريب أساساً .

ولقد حاولت ان أحصل على بعض نماذج هذه الكتب مما أودع في دار الكتب الخديوية ومع الأسف لم أجد شيئاً إذ يبدو أنها انتزعت ايضاً من هناك ، وقد قرأت في حديث للأستاذ ابراهيم ابراهيم يوسف نشره في إحدى

المجلات أن دنلوب أقام حرائق كبيرة لهذه الكتب وباع كثيراً منها في المزاد وأخلى منها مخازن وزارة المعارف حتى تنعدم نهائياً .

ولقد كانت لدنلوب سلطة ضخمة ونفوذ عجيب حتى ان ناظر المعارف لم يكن يجرؤ على ان يتخطاه في أمر فإذا فعـل ألغاه دنلوب ، وكان رؤساء المدارس ومعلموها في مختلف أنحـاء القطر المصري يعرفون أنه هو المسؤول الحقيقي ويخشونه .

وقد بلغ من عسفه أنه كان يرسل احياناً خادمه الخاص (الجاويش محمد علي) الى إحدى عواصم الأقاليم في صباح أيّ يوم يحمل معه عليه طربوشه الذي كان يلبسه عندما يدخل أي مدرسة ثم يخلعه بعد ذلك، فلا يكاد يظهر طربوش دنلوب على باب أيّ مدرسة حتى تهتز المدرسة كلها والمدارس المجاورة ويسري الخبر سريان النار في الهشيم فتجري حركة تنظيف وتوضيب واستعداد لأن جناب المستشار قادم للتفتيش . والكل يرتعـد فرقاً ويتلقى الجاويش محمدعلي الأمر بالانتقال من طنطا الى الزقازيق الى نبهـا وفيها تتكرر الرواية عينها ، ومن الغريب ان دنلوب كان في الأغلب لا يحضر ويجري عملية تفتيش بواسطة جاويشه وطربوشه .

ولكن ذلك كله لم يكن ليوقف حملات الصحافة الوطنية على دنلوب ونقد تصرفاته ولم تتوقف صحف الحزب الوطني عن التصدي له ومهاجمته .

قـالت اللواء في ٩ اكتوبر ١٩٠٧ إن المصريين يعلمون ان دنلوب هو أقوى آلة وضعها اللورد كرومر لتعطيل التعليم في مصر وأكبر مقاوم لرقي البلاد من باب المعارف ومحاولة سد الطريق التي يرقى بها وأنه يستعمل كل ما اوتي من سلطة وقوة لمحاربة المصريين حتى بالسطو على ذمم الموظفين معه لتجد من ضعفها قوة ومن التلاعب بها السلاح القاتل للأمة .

ويجمع المؤرخون والباحثون على ان القسيس دنلوب هو مؤسس الاستعمار التربوي والعقلي والتعليمي في مصر .

ولذلك فقد عمد الحزب الوطني الى إنشاء المدارس الأهلية وقامت الجمعية الخيرية الاسلامية بإشراف الشيخ محمـــد عبده على فتح المدارس لتعليم أبناء المسلمين وتحريرهم من هذه الأنظمة التي تحطم معنوياتهم .

وعقد مصطفى باشـــا كامل زعيم الحزب الوطني وصاحب اللواء مؤتمراً للتربية كان له دوي شديد في ١٥ مايو ١٩٠٧ عرض لعديد من المسائل الخطيرة والهامة في هذا الصدد منها جعل التعليم في المدارس باللغة العربية وكيفية إزالة الصعاب التي تقول بهـا نظارة المعارف عن طريق إحلال اللغة العربية محل اللغة الإنجليزية، وتأمين مصلحة الأمة بأن يقوم التعليم في المدارس الأهلية على خطة من شأنها تخريج رجـال يستطيعون البروز في معترك الحيـاة أقوى من غيرهم (أي تلاميـذ المدارس الوطنية الذين يشكلهم النفوذ الاستعماري) وكذلك وضع قواعد ثابتة لترقية التأليف ونقل العلوم الحديثة الى اللغة العربية وتسهيل السبيل على القراء بتقليل أثمـان الكتب ودراسة نظام التعليم في الجامعة وما إذا كان التعليم الديني هو أساس لتعاليمها .

ولا ريب ان هـذه القضايا كلها كانت تمثل حاجة الأمة في مواجهة خطر دنلوب، بالإضافة الى الخطر الذي تضاعف بتعيين سعد زغلول ناظراً للمعارف فكان أول وأخطر مقرراته اعتماد مادة اللغة الانجليزية للتعليم في جميع المواد ومعارضة قرار أعضاء مجلس الشورى باتخاذ اللغة العربية أساساً للتعليم .

(٤)

أما في الارساليات فإن الأمر كان أشـد خطراً فقد أغرى الاحتلال البريطاني وفود الإرساليات الى مصر بالتوسع فزادت مـدارسهم زيادة كبيرة إذ تضاعف عدد الارساليات وخاصة النسوية .

وكان لاتفاقية ١٩٠٤ بين انجلترا وفرنسا أثرها فقـد نصت على ان تتمتع المدارس الفرنسية في مصر بنفس الحرية التي كانت تتمتع بها في الماضي .

« كذلك عمل الاحتلال على إحـلال اللغة الانجليزية محل اللغة العربية في المدارس المصرية وجعلها لغة التدريس في المرحلتين الابتدائية والثانوية وجعل التعليم في المرحلتين بمصروفات لا يحتمل دفعها إلا الموسرون القادرون، وقد ساعد ذلك على تكوين صنفين متميزين في الثقافة والاتجاهات لا تكاد إحداهما تؤمن بالاخرى أو تقوم بالتفاهم الجدي » .

وقد أدى هذا العمل في مجال التعليم العام الى تشجيع المدارس الأجنبية على دعم اتجاهاتها الخطيرة وخلق طبقة تتسم بالأرستقراطية في ثقافتها الأجنبية .

وقد زاد استقلال المدارس الأجنبية خـلال الاحتلال واتسع أمامها مجال

العمل بغير أي إشراف أو مراجعة مما مكنها من توجيه تلاميذها الوجهة التي قصدوا اليها .

وقد كان خطاب المندوب السامي البريطاني في كلية فيكتوريا بالاسكندرية كل يوم يمثل اتجـــاه بريطانيا نحو الارساليات ودعم الغاية التي يتطلع اليها الاستعمار .

ويكفي هـذا النموذج للتدليل على أهداف بريطانيا في تعليم الارساليات وهو من خطاب اللورد لويد في مايو ١٩٢٦ قال :

قد يهمكم ان تعلموا ان أبنـاء الكلية السابقين من ثمانية أجناس أو تسعة أجناس مختلفة وان من الطلبة الآن ٣٠ في المـائة مصريون و ٢٠ في المائة انكلوسكسون ومنهم يونان ويهـــود وإيطاليون وأرمن وسوريون وأحباش وغيرهم .

كل هؤلاء لا يمضي عليهم وقت طويل حتى يتشبعوا بوجهة النظر البريطانية بفضل العشرة الوثيقة بين المعلمين والتلاميـذ فيكونوا قادرين على ان يفهموا أساليبنا ويعطفوا علينا .

وأود كثيراً ان أشعر بأن كليـة فيكتوريا تنجب نفراً من نخبة الموظفين والمعلمين والتجار ، هـذه الكلية تنمي فيهم من الشعور الانجليزي ما يكون كافياً لجعلهم صلة للتفاهم بين الشرقي والغربي .

هذه المشاكل (التي بـين بريطانيا ومصر) تحل إذا تعلم كل من الانجليز والمصريين ان ينظر الى رأي الفريق الآخر نظراً مقروناً بالفهم والعطف[١] .

وقد أشارت الصحف الى ان كليـة فيكتوريا قد أنشأها الانجليز لمقاومة نفوذ الثقافة الفرنسية في مصر وأن (جورج لويـد) المندوب البريطاني عندما

---

(١) الصحف ١٩٣١/١٢/٢١ .

ضاق صدره بتفوق المدارس الفرنسية في مصر ذهب واستنهض المالية الانجليزية بالاسكندرية وجمع منها مائةالف جنيه في جلسة واحدة ليقوي كلية فيكتوريا وذلك مع وزير مصري مسؤول فخطب بالانجليزية لتعضيد ذلك المشروع[1].

وإذا كانت بريطانيا قـد وافقت فرنسا عام ١٩٩٤ على حرية عملها في مجال الارساليات فإن بريطانيا تعهدت بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ وفي مؤتمر مونترو ١٩٣٧ بأن تحمي معاهد الارساليات لا لفرنسا وحدها ولكن لجميع الدول . وكانت فرنسا قد طلبت في مؤتمر مونترو بلسان مسيو لاجارد حماية الكاثوليك والهيئات الدينية اللاتينية في مصر وتسجيل ان لفرنسا امتيازات في هذه الحماية .

وقال ساطع الحصري : إن النظم العديدة التي وضعت في سوريا في عهد الانتداب الفرنسي إنمـا كانت قد وضعت تنفيذاً لسياسة مرسومة بوضوح واتفاق ، غاية هذه السياسة تأمين سيطرة الثقافة الفرنسية والنظم الفرنسية على معارف البلاد سيطرة مطلقة من غير التفات الى ما تتطلبه أصول التربية السليمة » .

ولا ريب أنه كان من أهم الأحداث التي يؤرخ بها في مجال احتضان الاستعمار للارساليات وحمايتها : أحـداث ٢٥ يناير ١٩٣٢ عندما توسل المبشرون الى تنصير يوسف عز الدين عبـد الصمد الطالب بالجامعة الأمريكية بالقاهرة عن طريق التنويم المغناطيسي وأن طبيباً قساً كان يعمد الى تنويمه والعبث بإرادته وأنهم اخيراً اقتادوه الى منزل بضاحية المعادي واعتقلوه هنالك فاقد الإرادة والرشد تحت تأثير هذه الوسيلة المجرمة .

وعلق الدكتور هيكل في جريدة السياسة على هذا الموقف الخطير فقال :

---

(١) الصحف ١٩٣١/١٢/٢١ .

إننا لم نطمئن في وقت من الأوقات الى قيام هـذه المعاهد والى غاياتها المريبة وما زلنا على يقين من أنهـــا ليست تعمل لغاية بريئة، وان بث العلم والثقافة إن هو إلا ستــار لجهود وأعمــال تأباها مبادىء التربية الصحيحة وتنكرها قواعد الأخلاق والمدنية .

وان انكشاف هذه المعاهد وتعريتها قد جاءا نذيراً للآباء ونذيراً للطلبة الذين تجذبهم دعواتها الخادعـة باسم الثقافة والرياضة والتعليم الحر فيدخلونها آمنين وهم لا يعلمون أنهم ينتظمون في سلك معترك من الدسائس والمؤامرات البشرية الدنيئة ويتعرضون لأنواع التأثير والغواية الشائنة .

(٥)

سيطر التعليم الاستعماري الوطـني في مصر وسوريا والعراق والسودان وليبيا وتونس وفلسطين والجزائر ومراكش من الأقطار العربية .

كما سيطر تعليم الإرساليات الأجنبي في هذه الأقطار أيضاً وسيطر بصفة واضحة في تركيـا وإيران والهند واندونيسيا والملايو وكانت أبرز مراكزه في بيروت واستانبول والقاهرة .

وقد حقق الاستعمار اهدافـه في السيطرة على العـالم الإسلامي عن طريق التعليم عندمـا لم تمر سنوات قليـلة حتى خرج ثماره ممن تولوا أمور البـــلاد وقيادتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وقد أشار البـاحثون في شؤون التعليم [١] في المستعمرات الى النظم التي تستخدمها الدولة المحتـلة لتعليم أولاد الأهلين فيهـا ، وأقدم هذه النظم هي عدم تعليم أحد من أبنـــاء الأهلين ، ولكن المستعمرين وجدوا أنفسهم في حاجة شديدة الى الاستعانة بأهالي البلاد لاستغلال المرافق الاقتصادية والثروة الطبيعية وكان العامل الأساسي لتأسيس هذه المعاهد تخريج طائفة من أهـالي المستعمرات يخدمون المستعمر .

---

(١) ساطع المصري : فصول عن الاستعمار والتعليم (الرسالة ١٩٣٦) .

وفكر بعض المستعمرين بأنه يجب أن يرافق الفتح السياسي فتح معنوي بحيث يتقرب أهالي المستعمرات من المستعمرين الى أن يندمجوا فيها اندماجاً ، وقد فكروا في سبيل تحقيق هذا الغرض اولاً بنشر لغة المستعمر ، فيتعلم أهالي المستعمرات تعليماً ينشىء في نفوسهم حب المستعمر فيستسلمون له طواعية .

وقد برز النوع الاول من سياسة الاستعمار اكثر وضوحاً في الهند في ظل الاستعمار الانجليزي كما تجلى النوع الثاني في الجزائر بالاستعمار الفرنسي . وكان الفرنسيون يأملون في سياستهم تقريب المستعمرين اليهم ، وظنوا أنهم بنشر لغتهم بينهم وإشرابهم ثقافتهم يغرسون حبهم في قلوب الأهلين،ولذلك جعلوا اللغة الفرنسية محوراً لكل درس في مناهجهم، وقالوا بصراحة : إن المدرسة يجب أن تكون قبل كل شيء معهداً لتعليم اللغة الفرنسية ، كما اهتموا بمناهج الأخلاق في المدارس لتعليم أولاد المستعمرات ما يحبب الأهلين بالفرنسيين فنجد من مناهج الأخلاق في مدارس الجزائر قسماً خاصاً في واجبات الأهلين نحو فرنسا .

ومما جاء في هذا المنهج : ما يترتب على اهل الجزائر من الواجبات نحو فرنسا مقابل الحماية التي تسديها اليهم والعدل الذي أدخلته في بلادهم والأمن الذي نشرته في ربوعهم ونعم التعليم والحضارة التي اغدقتها عليهم ، الاحترام الذي يجب ان يشعروا به نحو من يدير البلاد باسم فرنسا والاحترام الذي يجب أن يظهروه نحو العلم الفرنسي .

وهذا هو ما سمي « التعليم لتسهيل عمل الاستعمار » .

وقد اسفرت تجارب هذا النوع من التعليم عن نتائج سيئة إذ ما عتمت أن أحدثت رد فعل عند أولاد المستعمرات ، فقد تغيرت احوالهم بعد مدة قليلة أو كثيرة من تخرجهم من المدارس ، وبدلاً من أن يكونوا مطبوعين على حب المستعمر يتفانون في خدمته أصبحوا على نقيض ذلك يكرهونه

ويكافحونه ، فأسقط في ايدي المستعمرين ، وفكر علماء المستعمرين في هذه المعضلة فوجدوا أن هذه نتيجة طبيعية لأن ابن المستعمرات إذا ما قرأ تاريخ الأمة المستعمرة ودرس الثورات ووقف على مطالب الشعب من الحكومة يتحمس لهذا الحس فيشب راغباً في تطبيق ما درسه .

ومن هنا لجأوا الى طريقة جديدة في سياسة التعليم : هي « التعليم بغير تثقيف » فاتجهوا الى تعليم أولاد المستعمرات من غير تثقيفهم، تعليمهم تعليماً ضيقاً جداً يجعلهم آلات صماء في أيدي الاستعمار .

وقد بذلت الدول المستعمرة جهودها في وضع نظام للتعليم على هذا الأساس يجعل التعليم وسيلة ميكانيكية بحتة ، إذ تكون لغايات محدودة معينة بدون أن يدخل على هذا التعليم أي عنصر من عناصر الثقافة العامة ومضوا في ابتكار طريقة خبيثة لتدريب أبناء المستعمرات على أن يكونوا مسامير في صفحة خشبية أو عجلات في آلة ميكانيكية مجردين من أي لون من ألوان الثقافة العامة .

ومن التعليم بدون تثقيف ، الى فصل الأقطار عن بعضها لجعلها مختلفة اللغة وحتى لا ينتقل أبناؤها الى الأخرى ليبثوا آراء جديدة .

وأخذ الفرنسيون في المغرب يفرقون بين العرب والبربر وغيرهم بحرمان البربر من تعلم اللغة العربية حتى يجعلوهم بعيدين عن التأثر بالمدارس التي تدرس العربية أو ما يكتب بهذه اللغة في الأقطار الأخرى .

ومن ذلك فكرة نشر اللغة العامية وهو الوسيلة التي تباعد بين الأقطار العربية وتسهل على المستعمرين أغراضهم ، وقد بثوا لهذه الفكرة دعايات خدع بها أبناء البلاد المستعمرة وروجوا لها ، وقد طلا المستعمر هذه المكيدة تحت عنوان نشر التعليم بين طبقات الشعب وما دام الجمهور في الأقطار العربية لا يعرف اللغة الفصحى غالباً فيجب تعليمه بلغته المحلية العامية .

وهكذا نجد أن خطة الاستعمار في التعليم قد حققت كل اهداف الاستعمار في السياسة والتاريخ والاجتماع :

عزل كل قطر عن الآخر ، وعزلت جماعـــات مختلفة في كل قطر عن الأخرى ولقد حرصت الغايات العليـــا لمناهج التعليم الوطني في ظل النفوذ الاستعماري على الفصل بين كل قطر وتعزيز اقليميته الخاصة ولهجته العامية ، وإقناع كل قطر بأنه صاحب وجود وكيان منفصل عن القطر الآخر الذي هو جزء منه عربياً وإسلامياً .

أفسد التعليم الاستعماري على الشباب عناصر رجولته وجعل اكبر همهم العناية بالزينة والمرآة وزجاجة العطر وجعل ولعه بالشيء الأجنبي والغريب والعامي والمتحلل من قيود الأخلاق .

حرص على ثنائية التعليم الديني والمدني لإيجاد طبقتين متميزتين مختلفتين متصارعتين وقد ارتبطت ثنائية التعليم بامتياز طائفة واحتقار الأخرى وقد عمق ذلك الفرق بين الطبقتين وأقام بينهما عوامل الصراع والاحتقار .

وانهى ذلك بقيـــام طبقة الاقطاعيين والأجراء واستهدف بذلك إقامة طبقة القـــادة الذين يتولون أمور البلاد من أولئك الذين شكلهم وفتح لهم الطريق .

جعل الشخصية الغربية هي المثل الأعلى ، وجعـــل نهضة الغرب وبيئته وأبطاله هم المصدر الأصلي لما تحشى به عقول الشباب ، بل إن الاستعمار بنى مناهج دروس الدين والتاريخ على الأساس الغربي ، فالدين الاسلامي يعلم في المدارس الوطنية مادة روحية أخلاقية ويعلم على وجه بعيد جداً عن الحياة وعن حقيقة مبادئه ، فحياة الرسول ﷺ تدرس لأبنائنا منقطعة الصلة عن حياتهم وبيئتهم بينما تدرس حياة نابليون وبسمارك وشكسبير بأسلوب مبهج ، كذلك فإن مادة العبادات والأخلاق تعـــلم من وجهة النظر النفعية ، أما

التاريخ الإسلامي فإنه مجموعة من المثالب التي تصور حكام المسلمين وخلفاءهم على أنهم سياسيون محترفون يغلب عليهم سوء النية أو سوء الفهم . ونبتت نابتة من المسلمين المثقفين تعلم التاريخ وتؤلف فيه وفق الأسلوب التبشيري والمنهج الاستشراقي .

« وهكذا كافة البرامج قد وضعت كلها على أساس الفلسفة الغربية ووفق مناهج الغرب . وقد أخلص هؤلاء الرواد إخلاصاً تاماً لهذه الثقافة حملهم على تقديس الاجنبي وحب حضارته ، وانطبع كثيرون بطابعه ، وصاروا يمقتون الإسلام والثقافة الإسلامية كما يمقتها الغربي ، ويحملون للاسلام وللثقافة الاسلامية العداء كما يحمله الغربي ، وصاروا يعتقدون ان الإسلام والثقافة الإسلامية هي سبب تأخر المسلمين كما أوحي اليهم أن يعتقدوا ذلك ، وبهذا نجحت الإرساليات والحملات التبشيرية نجاحاً منقطع النظير من حيث ضمت اليها الفئة المتعلمة من المسلمين وجعلتها في صفوفها تحارب الإسلام والثقافة الإسلامية » .

(٦)

ولقد قام رجال الاحتلال في الأقطار المستعمرة على مهمتهم حتى استطاعوا حين انفكوا عنها أن يكونوا قد أعدوا « الركيزة » الحقيقية من أبناء البلاد أنفسهم ، وكرومر في مصر بعد أن مضى ربع قرن وغادر مصر عام ١٩٠٧ كان قد أحس تماماً بأنه ركز ركيزة صالحة للعمل سنوات طويلة ، وقد كان يدعو الشباب المتعلم في المدارس الوطنية وفق منهج الغرب أن يتقدم ليتسلم أمانة الحكم في بلده ويتصور المستقبل وقد جاء وفق ما خطط ورسم .

يقول في تقرير عام ١٩٠٣ : في مصر اليوم جيـــل جديد يختلف عن أجداده في أمور كثيرة ، فيمكن أن تحدثه نفسه يومـــاً أن يمد الى تلك الأركان القديمة يداً لا تعرف حرمة القديم فتكون أشد عليها من يد حكومة تمدها اليوم طبعاً لإرشاد قوم لا شأن لهم في الأمر (يعني الانجليز) لأنهم لا يدينون بالدين الإسلامي ، فإذا كان لهذا الحساب نصيب من الصواب فالأجدر بأبناء اليوم ان يشرعوا في الإصلاح ويتلافوا الأمر قبل حلوله .

وقد تحقق هدف دنلوب وجـــاء كثيرون مدوا للقديم الذي هو الإسلام يداً ، وكان بعض هؤلاء ليسوا من رجـال المدارس التبشيرية والإرساليات ، ولكن من معاهد التعليم الوطني الذي وضع مناهجه الاحتـــلال ، ومن الأزهر ايضاً .

ويقول أحد الباحثين : ظل يتخرج هـذا العـدد من المدارس الدنلوبية الجيل بعد الجيل حتى صار للاسلام في مصر معنيان :

١ — المعنى الذي فهمه الشيخ محمد عبده من ينابيع الإسلام مباشرة وكان مؤمناً بأن الأخذ به على وجهه الصحيح يحول الأمة من الضعف الى القوة ومن اليأس الى الرجاء ومن الخمول الى النشاط .

٢ — والمعنى الذي فهمه تلاميذ دنلوب ولم يتلقوه عن الاسلام نفسه بل عن حالة المسلمين المنحطة المنافية للاسلام وعن اقوال فلاسفة أوربا فيما كانت عليه الكنيسة في القرون الوسطى فظنـوا أن مـا قاله الأوربيون عن غير الاسلام ينطبق على الاسلام .

وهكذا وضعت المنـاهج بأيـدي أصحاب البرانيط غـير حاسبين الروح الاسلامي حساباً ؛ ويقول السيد محب الدين الخطيب :

إن مناهج التعليم لا تزال تلف وتدور حول المحور الذي وضعه دنلوب ، وإصلاح هـذه المناهج يجب أن لا تكون بأيـدي أناس عرفوا بالتعصب على الإسلام سواء أكانت اسماؤهم إسلامية أم كانوا من الذين حضروا الى هذه الديار للسعي في إخراج أهلها من ربقة الدين المحمدي . كان الغرض الدنلوبي تخريج طبقة من الشبان تصلح لأن تكون في دواوين الحكومة آلات ميكانيكية تديرها رؤوس انجليزية وتسير بها في خطط لم يكن معروفاً الى أين تؤدي ، والواقع أنها تؤدي الى جعل مصر بلداً دولياً (انترناشيونال) .

هذه الطريقة الدنلوبية كانت لا تعنى بتخريج أبنـاء مصر العربية المسلمة تخريجاً عربياً مسلماً ، إن الطريقة الدنلوبية علمت شباب مصر أن العروبة والاسلام شيء أجنبي طرأ على مصر واحتلهـا كاحتلال الفرس والبطالسة والرومان والانجليز ، مع ان العروبة والاسلام هما روح مصر وكيان مصر بل هما مصر منذ نحو اربعة عشر قرناً الى الآن .

إن التعليم الدنلوبي في المدارس الثانوية أهمل آداب الإسلام وتاريخ الاسلام وأمجاد الاسلام ، فخرج لنا أبناء مجردين من سلاح الفضائل الإسلامية .

وقد بحث كثيرون في سر ابتعاد الذهن المصري عن الاتصال بالشرق والبلاد العربية وعدم اهتمامه بما يجري في البلاد المجاورة ،وقال محمد علي الطاهر ان سبب كل ذلك رجل انجليزي واحد هو مستر دنلوب مستشار وزارة المعارف المصرية بعد الاحتلال البريطاني لمصر ، فقد استطاع بسيطرته على المعارف ان ينزع من برامج التعليم الدينية وروح الأدب العربي وتاريخ العرب وصلة مصر بالعرب والعربية ، ثم أدخل في برامج المدارس ان مصر مصرية فرعونية وأن أجداد المصريين هم فرعون وهامان ولا صلة لمصر بعدنان وقحطان، فلما نبت ابناء هذا الجيل وكبروا تولوا السيطرة الآن على المدارس والصحف .

وذلك حق كله فإن مناهج الدراسة في المدارس الوطنية وضعها رجال التعليم التبشيري ورجال الإرساليات خلاصة لتجربتهم بها وهم رجال دهاة يعرفون غايتهم وكيف يسلكون السبيل اليها في صمت وأناة .

ومن خير ما يمثل ذلك ما كتبه احد الباحثين عن دنلوب حين قال :

« إن المستر دنلوب سلك طريقاً اطول فأراد أن يكتسب اولاً قلوب الأطفال وانتظر ثلاثين عاماً يضع في رؤوس التلاميذ ما يريده ويمنع عنها ما يريده الى ان تخرج من وزارة المعارف الجيل الأول والجيل الثاني، فلما صارت مقاعد الوزارات وكراسي النيابة والحكم ممتلئة بالذين رباهم مستر دنلوب انقلب الى وطنه واطمأن قلبه على أنه صار لأوربا في كل بيت مصري من يكمل برنامج دنلوب » .

وهكذا دفع المفكرون المسلمون هذه الخطة في إبانها ولم يتوقفوا عن معارضتها .

ويصور السيد محمد رشيد رضا منشىء المنار أخطار مناهج التعليم الغربية بعد الاستقلال .

أما تربية المدارس فروحها تفرنج وتقتل الإسلام قتلا بتفضيل كل ما هو افرنجي على مـــا يخالفه من عقائد الإسلام وشعائره وعاداته وأخلاقه وآدابه ومشخصاته. وحسبك ان الصلاة التي هي عمود الإسلام غير واجبة على أساتذة هذه المدارس ولا على تلاميذها فلا يطالب بها أحد .

هذه المدارس قد وضع الانجليز نظمها وعينوا لها وجهتها وغايتها كما شاءوا، ومن مقاصدها ان لا يكون لمن يتعلم فيها أدنى شعور بأن لقومه ملة إسلامية لها من المزايا في دينها وتشريعها وحضارتها ما تعلو به .

وقد اتفق ان جيء لمدرسة البنات السنية في عهد القسيس الشهير دنلوب المسيطر على وزارة المعارف بناظرة إنجليزية ممن تربين تربية حرة عالية . فلما كتبت تقريرها آخر السنة الدراسية اقترحت على وزارة المعارف إلزام جميع من يتعلم فيها من البنات ان يتعلمن عقائد الدين الإسلامي وأحكامه ويؤدين عبادته من صلاة وصيام وعللت ذلك بأن عاقبة هؤلاء البنات ان يكن امهات مربيات لنشء الأمة ولا يصلح للتربيـة إلا الأم المتدينة الصالحة لأن تكون قدوة . ولذلك أجمعت الأمم كلها على تربية البنات تربية دينية عملية علمية ، قالت ؛ ولما كان في هذه البلاد ثلاثة أديان كلهـا تأمر بعبادة الله والتحلي بالفضائل واجتناب الرذائل وهي الإسلام والنصرانية واليهودية ، ولمـــا كان اختلاف التعليم الديني مضراً بالتربية ومخلاً بوحدة الأمة وكان الإسلام هو دين الأكثرية الغالبة وجب جعـــله الدين الذي يبنى على أساسه نظـــام التعليم والتربية في هذه المدرسة ولذلك فقد اقترحت جعله رسمياً إلزامياً فيها .

وقد عزل دنلوب هذه الناظرة عزلاً وأحفظه تقريرها فمزقه تمزيقاً .

وأشار السيد رشيد رضـــا الى ان جميع المدارس التي تسمى إسلامية في

مصر تسير وراء وزارة المعـــارف في تربيتها وتعليمها حتى مدارس الأوقاف الملكية ومدارس الجمعية الخيرية الإسلامية التي كان غرضها الوحيـد على عهد رئيسها الأستاذ الإمام ومـديرها حسن عاصم تربية أولاد الفقراء من المسلمين تربية إسلامية خالصة وتعليمهم ما لا بد لكل مسلم من عقائد دينية وأحكام.

وقد أصاب هـذه المدارس من الانتكاس والارتكاس ، حسبك ان تعلم ان الجمعية أنشأت مدرسة للبنات لتمرينهن على الرقص دون تمرينهن على الصلاة والثمرة مـا ترى من النساء في الاسواق والشوارع والمحافل والجامع والملاعب والمراقص والمسارح والحمامات البحرية والجمعيات النسائية ، وقـــد بلغن من الخلاعة والرقاعة والإباحة دركاً صار يستقذره الكتاب الإباحيون الذين دعوا اليه من قبل .

وإذا كان هـــذا شأن من يتعلمن ويتربين في المدارس الإسلامية فماذا عن مدارس جمعيات التبشير وراهبات الكاثوليك؟ إن هؤلاء يحتقرون الإسلام وكل من ينتمي اليه ويحتقرون لغته ايضاً [1] .

---

(١) م ٣٤ سنة ١٩٣٣ المنار .

(٧)

وقد تساءل كثيرون خلال هذه المرحلة الطويلة التي سار فيها التعليم إبان الاحتلال حتى نهايته: إلى أين وإلى متى تسير مدارسنا وراء مدارس الغرب ؟

وقد عرض لهذا الأستاذ الإمام حسن البنا فقال : لنا ان نأخذ من مدارس الغرب ومناهجه عنايتها بالعلوم الطبيعية والمواد العملية والمعارف الحيوية التي ترمي الى إدراك سر الوجود ومعالجة مشاكل الحياة وعنايتها باتجاهات التربية الحديثة ومراعاة مطالبها بتربية الجسوم وغرس الفضائل الوطنية .

ولكن : هل نجعل مدارسنا خلواً من الدين والاهتمام بشأنه لأن مدارس الغرب كذلك ؟ كلا والف مرة كلا . فان أسباب ذلك وموجباته إن توفرت في الغرب فهي معدومة عنـدنا ، وإن أخطأ الغربيون في شيء فلسنا ملزمين بتقليدهم في خطأهم على ان مـدارسهم أسست في وقت كان النزاع بين العلماء والمتدينين على أشده وكانت موجة الإلحاد تغشى أوربا من أقصاها الى أقصاها، وكانت المدارس هي السلاح الماضي للقضاء على مزاعم الكهنوتيين وأراجيفهم، ولكن الشأن الآن غيره فيما مضى .

ليس هناك وسيلة لتربية الخلق إلا الدين بل الدين وحده فالعلم والفلسفة لا يجديان في تربية النفوس وتزكية الأرواح إلا إذا استندا الى الوازع الديني القوي السلطان العظيم الأثر .

ومن هنا يمكننا ان نفهم السر في اتجاه السياسة الانجليزية نحو جعل التعليم في مصر مجرداً من الدين والأخلاق لأن هذا هو ما تقضي به مصلحتها ويؤدي الى تسلط شعب بدين بدين آخر .

ويقول الإمام حسن البنا : منذ امتدت اليد الأجنبية الى مناهج التعليم أخذت العناية بالقرآن تضعف وتتضاءل . وأخذ رجال التربية والتعليم – وجلهم من الأوربيين أعداء الاسلام وكتاب الإسلام – يرون شبحاً مخيفاً يناوىء مطامعهم وآمالهم يعملون على إقصائه تدريجياً من المناهج بحجة ان المدارس علمانية وساعدهم على ذلك روح التعليم الأوربي التي عمت وطمت فاستطاعوا ان يحذفوه من التعليم العالي والثانوي ثم الابتدائي تقريباً وحصروه في دائرة ضيقة هي مكاتب الإعانة والمكاتب الأولية .

ولم يقف هذا التيار ضد القرآن عند هذا الحد بل أخذ يقوى ويشتد فإذا بمكاتب الاعانة تطاردها المدارس الالزامية وليس من منهاجها حفظ القرآن ، ولئن كان هناك قسم للحفاظ كما يقال فإن طبيعة نظامها يجعل الوصول الى هذه الغاية مستحيلاً ، وصارت البقية الباقية من هذه المكاتب تغلق تباعاً أمام عدم الاقبال عليها ، وتضييق الوزارة وحظرها فتح مكاتب جديدة رغبة في تعميم التعليم الالزامي .

والنتائج الخطرة الملموسة لهذا كله هو استحالة حفظ كتاب الله على النشء الحديث ، ومعنى هذا انقراض الحفظة بموت من يحملون القرآن من العلماء والمرتزقة والعباد الصالحين ، وكذلك ضياع اللغة العربية التي ما كانت العناية بها يوماً من الأيام إلا نتيجة من نتائج العناية بالقرآن الكريم ، وبذلك ينسى المسلمون أصل دينهم وتنقطع الصلة الحقيقية بينهم وبين كتاب الله وينهدم أعظم ركن من أركان حياتهم الدينية والعلمية .

ويشير الامام الجليل الى مصدر الخطر فيقول :

إن الفكرة التي تسود عقول رجـــال وزارة المعارف هي وجوب إبعاد العنصر الديني عن العقول والأذهان حتى تكون المدارس علمانية فقط ، وإن كان الكثير لا يستطيع المجاهرة بهذا الرأي والدافع لهذا الرأي هو الاعجاب بتقليد أوربا ونظمها إعجاباً يدفعنا الى السير وراءها .

والمتتبع لخطوات القضاء على التعليم الديني عندنا يجدها شبيهة بالخطوات التي اتبعتها فرنسا لمثل ذلك ، فقد كانت الخطوة الاولى هي إلغاء مادة الدين من المناهج والاستعاضة عنها بدرس في الأخلاق .

(٨)

ومنذ الثلاثينات ركز رجال الحركة الاسلامية جهدهم على مصدر الخطر وحددوه ، وقالوا إن التعليم هو الأزمة الحقيقية الحاضرة في عالم الاسلام .

وإن طريقة التعليم التي جرت عليها الحكومات الاسلامية والمسلمون في هذا العصر ، « تعني ان ينشأ الحدث المسلم بدون عقيدة من الصغر تنقش في لوح صدره ، وأن لا يكون له نصيب من حفظ القرآن ولا من قواعد العربية فالمسلمون اليوم يشتكون من ثورة الأفكار وفشو المبادىء الضــارة كالالحاد والاباحـة ، والانصراف عن كل شيء روحي والطاعة لكل شيء مادي ، وعندما عاد ويليـام مارتين الكاتب السويسري من سياحة في الشام والعراق ١٩٣٠ قال : إن الناشئة الحديثـة في العراق حسبما لحظ في بغداد ليست على على شيء من الدين الاسلامي وأهل مصر يئنون من مظاهر عداوة الدين التي كانت أحياناً تصــل الى مجلس النواب والتي لولاها لم تكن الجامعة المصرية نفسها بؤرة شبهات باسم حرية التفكير ، وسورية نفسها منطوية على كثير من سل اللادينية الساري بسرعة » .

ويقول الأمير شكيب أرسلان صاحب هذا العرض: ماذا تأمل من الشاب الذي أرسـله أبوه الى أوربا وهو ابن (١٤ سنة) لا يعرف شيئاً من عقيدة قومه ، ولا من البراهين التي يقوم عليها الاسلام فوصل هناك «خاماً» كما يقال

وحشا دماغه في أوربا بكل ما يحقر الإسلام ويصغره ويزدريه ، وقيل له إن أمته من التأخر والجمود والضعف إنما هو بأجمعه أثر الإسلام ، أفيكون من العجب بعد هذا أن تنشأ عن هذا الفوج الجديد هذه الكراهية للدين الإسلامي وهذه النفرة من الثقافة الإسلامية. والخطأ ليس هو خطأ أوربا التي تريد أن تبث تعاليمها مما هو طبيعي والتي لو وجد عندها الميل الى الإنصاف لم يوجد عندها العلم بحقيقة الإسلام ، إنما الخطأ هو خطأ الحكومات الإسلامية التي كانت ترسل الناشئة للتحصيل في فرنسا وإنجلترا والمانيا وبلجيكا وسويسرا وتظن أنها ربت فيها رجالاً والحقيقة أنها أرسلتهم غير مجهزين بشيء من السلاح المعنوي الذي يمكنهم من أن يذبوا به لو هوجمت عقيدتهم فكانوا معرضين لكل خطر .

إن التعليم في أوربا لازم بل ضروري ولا سيما العلوم الطبيعية والميكانيكيات والاقتصاد والزراعة والتجارة ، ولكن تلقننا هذه العلوم في أوربا لا يستلزم أن ننسلخ عن عقائدنا وعاداتنا وأخلاقنا وأذواقنا ومشخصاتنا القومية ومقوماتنا الاجتماعية .

ولقد سبق لغيرنا من الشرقيين مثل اليابانيين أن تلقوا هذه العلوم وبرعوا فيها وضارعوا فيها الأوربيين وسبقوهم في كثير منها ولبثوا على ما كانوا عليه من عادة وعقيدة وذوق ومشرب وكتابة وأدب .

وأغرب من هذا أن الأبناء يعودون من أوربا وقد امتلأت ادمغتهم من احتقار المدنية الشرقية والثقافة الإسلامية فيهزأون بآبائهم ويزدرون أهلهم ويجادلونهم في الدين وينكرون أمامهم الوحي ، ويقولون لهم إن هذه العقائد ما هي إلا خرافات واساطير . ولا أريد أن اطلق القول وأحكم على جميع الذين حصلوا العلوم في اوربا بفساد العقيدة بل هناك من الناشئة من استفاد وعاد الى بلاده فأفاد وبقيت مبادئه طاهرة ، وإنما أريد ان اقول إن إرسال الولد الى أوربا قبل ان يبلغ أشده معناه إرساله لينشأ تنشئة اوربية ليس

فيها شيء من الإسلام ومبادئه ، فإذا عـاد الى قومه عاد إما عدواً لقومه او محتقراً لهم ونشأ هــذا التنافر الذي نراه الآن . والخلاصة اننا من فوضى التعليم في خطر وان من عدم تجانس التعليم سيكون في العـالم الإسلامي فتن وشدائد بين أبنـائه [1] .

• • •

وهذه هي قضية البعثات من شباب المسلمين الى أوربا والغرب وهي بمثابة خطر شديد كان للاستعمار في توجيهـه دور وأثر حتى لقـد بلغ ان ارسل من مصر بعثات من شباب في السابعة من العمر والعاشرة حتى يمكن تشكيلهم من جديد دون ان يبقى لجذورهم الإسلامية العربية أثر ما ، ولقد كانت اخطار ابناء البعثات من أكبر الأخطار التي عرفتها بلادنا وأمتنا .

والمعروف أن اغلب المنح الدراسية المقدمة من البلاد الغربية للجامعات بما في ذلك الجامعة الأزهرية مع الأسف هي منح مقدمة من مؤسسات التبشير والاستشراق والإرساليات ، وان الطالب يحاط به تمامــاً إذا ما وصل الى اوربا ويفرض عليه موضوعه ووجهة النظر التي يتحرك فيهـا ، ولا بد أن تكون في إطـار كتب استاذه الذي كثيراً ما يكون يهودياً ؛ واليهود الآن يشرفون على الدراسات الإسلامية والعربية في اغلب جامعـات الغرب ، ومن السخرية البالغة ان يدرس طه حسين في فرنسا تفسير القرآن بعـد ان عجز عن تحصيله في الأزهر او يدرس اللغــة العربية وهي موضوعات ذات أصل عربي ولا تحتاج الى السفر الى الغرب والاقامة من أجل دراستها إلا من حيث ان تكون وجهة نظر الاساتذة المستشرقين .

---

(١) الفتح – ١٧ – ابريل ١٩٣٠ .

(٩)

وإذا كانت هذه هي وجهة نظرنا كمسلمين في اخطار التعليم الوطني في ظل النفوذ الاستعماري وتحدياته وهو خطر امتد في البلاد الإسلامية بعد الاستقلال وبعد الجلاء نقول إن الجانب الآخر لم يكن يحس بأن ما قـــام به قد حقق تماماً كل ما يتطلع اليه في حدود رسالة القديس لويس ، وإنما كان يرى ان الأمر ما يزال محتاجاً الى جهود جديدة ، بل إن عدداً من المستشرقين تواصوا على دراسة الخطوات التي تمت واطلقوا عليها اسماً عجيباً هو «تغريب الشرق» ودفعه في طريق الخروج من إسلاميته وعروبته الى ان يكون غربيــاً وجاء كتاب (وجهة الإسلام لجب وخمسة من المستشرقين عام ١٩٣٠) ليصور الى أي مدى وصل ذلك التغريب وما هي الخطوات التي تمكنه من تحقيق غايته كاملة .

وتقرير جب في هذا الصدد وثيقة خطيرة تدفع جميع العاملين في حقل التعليم الإسلامي والعربي وستظل كالسيف مشهورة في وجوههم حتى يتحرروا من نفوذ الغرب في مجــال التعليم :

« التعليم اكبر العوامل الصحيحة التي تعمل على الاستغراب . والحق أنه العامل الوحيد إن فهمنا من كلمة التعليم ما تدل عليه ، ولا نستطيع الحكم على مدى الاستغراب في العالم الإسلامي إلا بمقـــدار دراسته للفكر الغربي

والمبادىء والنظم الغربية . ولكن هذا التعليم ذو انواع كثيرة وتقوم به جهات متعددة وبالطبع لأن هناك بالفعل قليلا من التعليم على الأسلوب الأدبي في المدرسة وفي الكلية الفنية وفي الجامعة وعلى هذا التعليم يتوقف كل ما عداه . إن انتشار التعليم سيبعث بازدياد في الظروف الحاضرة على توسيع تيار التغريب وتعميقه ولا سيما لاقترانه بالعوامل التعليمية الأخرى التي تدفع الشعوب الإسلامية في نفس الطريقة » .

ويقول جب: إن إدخال طرائق جديدة في الفكر – في البلاد الإسلامية – كان يتطلب نظاماً جديداً في التربية من عهد الطفولة في المدارس الابتدائية والثانوية قبل الانتقال للدراسات العالية . وإن إصلاح التعليم على هذا النحو لم يكن في ذلك الوقت يخطر على بال السلطات المدنية الإسلامية، ولكن هذا الفراغ ملأته هيئات أخرى ، فقد انتشرت في منتصف القرن التاسع عشر شبكة واسعة من المدارس في معظم البلاد الإسلامية ولا سيما تركيا وسوريا ومصر وذلك يرجع غالباً الى جهود جمعيات تبشيرية مسيحية مختلفة ، وربما كان اكثرها عدداً المدارس الفرنسية ، فقد كانت المدارس الانجليزية في الامبراطورية العثمانية أقل منها في الهند ، وكانت المدارس الهولندية قاصرة على جزر الهند الشرقية .هذه المدارس صاغت اخلاق التلاميذ وكونت ذوقهم، والأهم أنها علمتهم اللغات الأوربية التي جعلت التلاميذ قادرين على الاتصال المباشر بالفكر الأوربي فصاروا في مستقبل حياتهم مستعدين للتأثر بالمؤثرات التي فعلت فيهم فعلها أيام الطفولة (أي التعليم على الطرق المسيحية) .

وفي اثناء الجزء الأخير من القرن التاسع عشر نفذت هذه الخطة الى ابعد من ذلك بإنماء التعليم العلماني تحت الاشراف الانجليزي في مصر والهند ، ولعل هناك نصيباً من الحق فى التهمة التي ترمى بها المدارس الاجنبية من أنها مفسدة لقومية التلاميذ، وإن كنا لا نستطيع القول بأن التطورات السياسية

التي أعقبت ذلك في البلاد الإسلامية أبدت هذه التهمة ولكن الذي فعلته بلا ريب أنها ربت في التلاميذ خروجـاً على الأنظمة الاجتماعية وعلى السياسة الى حد ما في اوطانهم الأصلية . وأضعفت من هـــذه الوجوه سلطان النزعة الإسلامية القديمة على التلاميذ وأدخلت في بناء المجتمع الاسلامي أداة هادمة قطعت بعض الأواصر التي كانت تربطه وتحفظه .

ويقول جب : لقد استطاع نشاطنا التعليمي والثقافي عن طريق المدارس العصرية والصحافة أن يترك في المسلمين ولو من غير وعي منهم أثراً يجعلهم في مظهرهم العام لا دينيين الى حد بعيد ، ولا ريب ان ذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العـــالم الاسلامي على حضارته من آثار .

هذه كانت الرؤيا عام ١٩٣٠ : الخنجر الذي طعن به المسلمون مـا زال ينزف ومع ذلك فإن هناك من يدعو الى غرسه الى أبعد مدى ، ويقول جب كنتيجة لهذا العمل :

« إن الاسلام كدين لم يفقد إلا قليـلاً من قوته . أمـــا كنظام للحياة الاجتماعية فقد نزل عن عرشه وقامت الى جانبه او من فوقه قوى جديـدة لها من السلطان ما يتعارض في بعض الاحيـان مع تقـــاليده وتنظيماته الاجتماعية وبذلك خفت سلطة الاسلام فى الحيـــاة الاجتماعية وتراجعت شيئاً فشيئاً » .

ويرى جب ان الهدف من هذه الخطة في مجـال التربية والصحافة كانت ترمي الى التفرقة بين الحياة الزمنية والحياة الروحية الدينية : فليس شيء في الحياة يصح ان يسبغ عليه الطابع الديني » .

وهكذا نجد الطعنة النجلاء تضرب الاسلام في الصميم وتقضي على قاعدته الاساسية وعموده الفقري : تكامل الدنيا والدين في نظام الاسلام .

والصورة التي رآها جب وحاول ان يدعمها لتمضي الى غايتها هي الصورة التي اشار اليها بيجمن فيلبي في محاضرة له بالجامعة الأمريكية في ٢٠/١٠/١٩٥٧ حين قال :

« لعبت الإرساليات (في بيروت والقاهرة والقسطنطينية) الدور الرئيسي في تنمية الفكر الشخصي عند طلابها الذين تمكنوا من قيادة الحركة القومية ، ومن المهم أن نعرف ان النفوذ التربوي الوحيد الذي تعرض له الطلاب العرب في القرن الماضي : كان النفوذ الغربي » .

وقد أشار الى هذا السيد محب الدين الخطيب معلقاً فقال :

إنما أتينا من قبل المدرسة والصحافة ، ومن قبل الثقافة التي تثقف بها قادة الأمة ، فالمصانع التي يتخرج منها قادتنا ليس لها غاية واحدة معينة .

فالنظرية الصحيحة في التعليم في العالم الإسلامي أن يكون ابن الزمان وابن المكان أي ان يكون عصرياً وإسلامياً ، فإذا كان عصرياً فقط كما هي الحال في مدارسنا المدنية خرج لنا شباب يجهلون أنفسهم ومحيطهم وكيانهم وكانوا سماسرة لأقطار أجنبية ومقاصد أجنبية وعقائد أجنبية ، وإذا كان التعليم ابن المكان فقط ولم يراع فيه معارف العصر خرج لنا شبان جاهلون أحوال زمانهم مجردون من الأسلحة التي يقاتلهم بها اعداؤهم .

والسبيل هو القضاء على التعارض في طريق التثقيف في العالم الإسلامي وإزالة هذه الهوة الواسعة بين المتعلمين تعليماً مدنياً عصرياً والمتعلمين تعليماً دينياً إسلامياً ولا يكون ذلك إلا بسلخ الصبغة الأجنبية عن التعليم المدني العصري ، وإعطائه صبغة أخرى من لون محيطه الإسلامي تكون ملائمة لتقاليد الأمة وعقائدها ويكون القسط الادنى لإعلان مفاخرها وتنوير تاريخها وإحياء ماضيها وربط الحاضر به .

كذلك تعليمنا الاسلامي يجب أن يجهز بأساليب العصر ومعارفه ليكون

أئمة المسلمين من أعرف الناس بزمانهم وأدواته وأسباب معالجتها . إن مناهج التعليم في مصر لا تزال تلف وتدور على المحور الذي وضعه دنلوب ، وإصلاح هذه المناهج يجب ان لا يكون بأيدي أناس عرفوا بالتعصب على الاسلام سواء أكانت اسماؤهم إسلامية أم كانوا ممن حضروا الى هذه الديار للسعي لاخراج اهلها من ربقة الدين المحمدي ، بل بأيدي رجال من أهل الفضل عرفوا بالوفاء للاسلام .

ويركز الدكتور محمد حسين هيكل على نقطة الخطر الأساسية وهي وزارة المعارف ودورها ومناهجها وخضوعها الذليل في وجه النفوذ الاجنبي فيقول في ١٩٣٢/١/١٢ : « إن وزارة المعارف تخضع اليوم وأمس وستخضع غداً وبعد غد إلى ان يتاح لنا النصر السياسي الذي نعمل له الى السياسة التي كانت تخضع لها ايام كان مستر دنلوب مستشاراً لها مع فوارق في عدد المدارس وعدد الأساتذة وعدد التلاميذ اكثر منها في أساليب التعليم وفي الغاية منه .

إن سياسة التعليم في وزارة المعارف ستظل اليوم وغداً كما كانت بالأمس وقبل الأمس خاضعة للسياسة الغربية وللحضارة الغربية في روحها فالحضارة الغربية بالمعنى الذي يفهمه مفكرو الغرب ومؤسسو هذه الحضارة الحقيقيون حضارة علمية بالمعنى المفهوم من العلم في العصر الحاضر، بالمعنى الذي يفهمه ساسة الغرب الذين ينشرون لواء هذه الحضارة في ربوع العالم : حضارة استعمارية عدوة للعلم على خط مستقيم ، وهي كذلك حينما ذهبت حاربت العلم وحاولت حصره في طبقة ضيقة وفي حدود ضيقة لتتخذ من هذه الطبقة بطانة لها تروج للاستعمار أي لاستغلال البلاد التي تنزل فيها استغلالاً مادياً يذهب كل خيره للغرب صاحب هذه الحضارة الاستعمارية .

ولذلك وضعت هذه الحضارة يدها على وزارات المعارف حيثما ذهبت وعملت دائبة على إفساد هذه المقومات النفسية والخلقية والقومية مكتفية بطائفة من المعلومات العملية التي تحتاج اليها إدارة الحكم .

ولست بحاجة لأضرب الأمثال على هذا فهي مما تلمسه اليد في كل ناحية من نواحي التعليم الابتدائي والثانوي أو العالي أو الجامعي ، وحضارة الغرب في هذا غير حضارات الشرق جميعاً، فقد كان لكل واحدة من حضارات الشرق كتاب تدعو اليه وإيمان تعمل على تثبيته في النفوس ، ومبدأ إنساني سام تريد غرسه في الأفئدة والقلوب ، كانت كلها حضارات إنسانية سامية القصد لا تقف عند الفرد ومتـــاعه المادي الوضيع بل تسمو فوق ذلك الى إخاء الإنسانيه كلها ، لذلك نرى في تاريخ الاسلام أدباء وعلماء من غير العرب ومن غير المسلمين بل إن اكبر أدباء الحضارة الإسلامية وعلمائهـــا من غير العرب وبعضهم من غير المسلمين .

أما هذه المدنية الغربية التي نعجب بهـا فمدنية أنانية تتحدث عن الإخاء حديثاً شهياً ، ولكنها تقتله حيثما ذهبت ، وتدعو الى العلم حديثاً رائعاً بديعاً ولكنها تطؤه بالأقدام عند الشعوب التي تستعمرها ، وتترنم بأحاديث الحرية ولكن على أن تكون حرية الغرب ، فأما الأمم التي يحكمها الغرب فيجب أن يعتبر أهلها السجن مثل الحرية الأعلى لأنه وحده هو الذي ينجو فيه الإنسان من تحكم الغربي الحاكم أو الشرقي الذليل الذي يقوم في الحكم تحت لواء الغرب ليقتل في نفس أمته كل المعاني السامية التي ورثتها من حضارات الشرق القديمة مقابل ما يناله من فتات مائدة الغرب السعيد المجرم .

هذه السياسة التي يسير عليها الغرب وتقرها حضارته هي التي نحاربها » .

اللغة العربية هي أكبر أهداف النظام الاستعماري للتعليم : ولذلك فقد وجهت اليها حرب عوان عن طريق مدرسة الإرساليات بالانتقاص والمدرسة الوطنية بالتجاهل والثقافة بالانتقاد . وتصور هـذا دكتورة نفوسة زكريا سعيد فتقول : كان هم الاستشراق ان يبحث لأوربا الناهضة عن سلاح غير أسلحة القتال ليخوض المعركة مع هـذا « الكتاب » الذي سيطر على الأمم المختلفة الأجناس والألوان والألسنة ، وجعلها أمة واحدة تعد العربية لسانها وتعد تاريخ العرب تاريخها. وبدأ الغزو المسلح وسار الاستشراق تحت رايته ، فمن كان له لسان غير اللسان العربي أعدت له سياسة جديدة لإغراقه في لسان الغازي الاوربي حتى يسيطر عليه ، ومن كان لسانه عربيـا اتخذت له سياسة أخرى لإغراقه في تخلف مميت ، هذه الخطة لخصها وليم جيفور في كلمته المشهورة :

« متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب تمكنا حينئذ ان نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة (يعني الحضـارة المسيحية) التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه » .

وقد تبين أن لا وسيلة الى إقصاء القرآن من الارض المفتوحة إلا بالسيطرة على وسائل التعليم شيئاً فشيئاً حتى لا تتمكن الأمة من السيطرة عليه فتقيمه

على طريق سويّ يفضي الى نهضة صحيحة ، وكان من قدر الله ان منارة العالم الإسلامي كله كانت في مصر وهي الأزهر فصار من الحكم المقطوع بـه أن تكون سياسة الغزو الأوربي موجهة الى مصر قبـــل أي مكان في العالم الاسلامي .

وهكذا كانت الدعوة منذ اللحظة الأولى الى العامية : وكان تقرير الخبير البريطاني (دوفرين) يدعو الى استعمال العامية ، ثم جاءت برامج التعليم في المدارس الوطنية هادمة للغة العربية معلية عليها اللغات الاجنبية ، ثم جاءت الدعوات الثقافية المتعددة والمتوالية والتي بدأها ويلكوكس ووليمور بالإضافة الى صيحة (ولهلم سبتا) مدير دار الكتب الخديوية . وكلهـــا تنصب على العامية وعلى الحروف اللاتينية وامتدت هذه الدعوة بعـد في اسماء مصرية : لطفي السيد وقاسم أمين وسلامة موسى وعبد العزيز فهمي وغيرهم . وكانت أخطر تحديات هذه الدعوة هو التعليم باللغـة العربية في الجامعة .

وكان لمدرسة الطب دور في الدعوة الى دراسة الطب باللغة العربية وجدت من يعارضها ويحاول ان يعرقلها بدعوى عدم وجود المراجع او باتهـام اللغة العربية بالعجز عن الأداء .

وقد وقف كثيرون من المنصفين في الدفـاع عن اللغة العربيـة وأعلنوا قدرتها الفائقة وإمكانياتها الضخمة في دراسة العلوم . ولقد كان لطفي السيد في الجامعة صنواً لسعد زغلول في وزارة المعارف في مقاومة هذه الدعوة .

ولقد وقف زكي مبارك يهاجم لطفي السيد ويدافـــع عن اللغة العربية فيقول :

«أليس من العجيب أن يشير الأساتذة بتعليم بعض المواد باللغة الانجليزية ليتقوّى الطلبة في تلك اللغة ثم ينسى مدير الجامعة ان يقبل اللغـة العربية حين يأبى أن يجعلها لغة التعليم في اكثر اللغات .

« أيغار الانجليز على لغتهم وهم أجانب فيسوقوننا سوقاً الى جعلها لغة التعليم ونتغافل نحن عن لغتنا ونحن في بلادنا فنقصيها عن ميادين التعليم .

إن من المكابرة ان يزعم الزاعمون ان لغـة التعليم في كلية الطب وكلية العلوم إنما كانت لغـــة الانجليز بسبب عجز اللغة العربية ، فقد كانت اللغة العربية لغة العلوم والطب أجيـالاً طوالاً ولم يقل أحد بعجزها إلا منذ خلق أبناؤها العجزة الذين يسترون ضعفهم بمحاربتها من غـير تحرج أو استحياء . وقد كتب الله ان يفضح هـذه الدسيسة على لسان رجـل من أقطاب الجامعة المصرية هو الدكتور علي إبراهيم فقد قال في المؤتمر الطبي في دمشق « إنما نعلم الطب باللغة الانجليزية لأسباب سياسية » وعندنا بحمد الله كثير من المتحذلقين الذين يسترون ضعفهم بالتحامل على اللغـــة العربية فقد كانوا يقولون إن لغة العرب تعوزها المصطلحات العلمية والطبيعية ولكن الدكتور علي باشا ابراهيم عجز عن التمسك بأهداب هذا الاحتيال .

إن مدير الجامعة بين اثنين : إما ان يصدر أمره عاجلاً بجعل اللغةالعربية لغة التعليم في جميع الكليات وإما ان يستقيل .

إن قصر هذا المنصب على الأستاذ لطفي السيد كان مزاحاً ثقيلاً أريد به ان يلقي في روع الشعب ان مصر لا تزال متأخرة وان هذا المنصب حين يخلو لا يجد من يشغله عن جدارة واستحقاق ، هي العوبة سياسية وليست ضرورة تعليمية ، وما هي المزايا التي ينفرد بها هذا الرجل حتى يكون وحده الصالح لإدارة الجامعة المصرية ، وما هو الأثر الذي تذكره به الجامعة حين يستقيل ما دام عاجزاً عن إقامة القواعد التي تنهض بها الجامعات ؟

أتريدون الحق ؟ إن لهـذا الرجل المفضال مزية واحدة ، ولكنها بألف وهي قدرته على الغض من قيمة اللغة العربيـة باسم العلم وزعمه أنها لا تصلح

للدراسات العالية وتجاهله الحقيقة الأصيلة التي جهر بها الدكتور علي ابراهيم حين صرح بأن الطب إنما يدرس في مصر باللغة الانجليزية لأسباب سياسية .

هل يوجد في العالم كله جامعة واحدة جعلت لغة التعليم فيها لغة أجنبية؟

إن التعليم بلغة أجنبية يهدم الاستقلال من الأساس ، ولم تكن مصر ولن تكون مستعمرة إنجليزية . أتحتجون بأن اللغة العربية تعجز عن التعابير العلمية ؟ إن احتججتم بذلك فأنا أسألكم : ما هي القوة السحرية التي جعلت لغات الغرب أقدر من غيرها على التعابير العلمية . وهل تخلق اللغات كاملة مكملة لا تحتاج الى زيادة ولا يعتورها نقص؟ إن المصطلحات العلمية في اللغات الأوربية تنحت نحتاً من اللاتينية واليونانية ومع ذلك لم يقل أحد بفقر الفرنسية أو الإنجليزية ، فما الذي يمنع ان تؤخذ المصطلحات العلمية مرة واحدة وتنقل الى اللغة العربية ويسد هذا الباب في وجوه من يريدون ان نظل اتباعاً أبد الدهر لأبناء اللغات الاجنبية ؟

أليس من العجب العاجب ان يدرس الطب باللغة الانجليزية في بيروت ويدرس بالانجليزية في القاهرة . أليس من موجبات الأسى ان يتمكن أهل سوريا ولبنان الى وضع المصطلحات العلمية باللغة العربية ونعجز نحن ؟

وتصدى زكي مبارك مرة اخرى الى لغة التعليم في كلية العلوم فقال :

أحب ان ألفت الغيورين من طلبة كلية العلوم الى وهن ذلك التعليل الذي يلجأ اليه العجزة حين يصرون على تدريس العلوم باللغة الانجليزية، فهم يزعمون ان اللغة العربية ليس فيها مصطلحات علمية وهذه علة لا قيمة لها على الاطلاق لأن اللغات المشهورة في أوربا كالفرنسية والانجليزية لم تكن فيها ايضاً مصطلحات قبل نهضة العلوم، ولا أكاد اصدق ان كلية الحقوق تريد ان تعود من جديد الى فرض اللغة الفرنسية على الطلاب ، فقد قامت الدلائل على

صلاحية اللغة العربية لشرح القوانين، وكيف لا يكون كذلك وهي من أغنى اللغات في مؤلفات الفقه والتشريع » .

ولقد كشف الذين شاركوا في هذه المعركة الى الهدف الأساسي للاستعمار تجاه إقصاء اللغة العربية عن التعليم فركزوا على ان الهدف هو القضاء على ما تحمله من إيمان بالشخصية والروح القومية وما يؤدي القضاء عليها على عزل الأمة عن مقومات كيانها .

إن إنشاء الجامعة كانت في العـالم الإسلامي خطة جديدة لتوسيع قاعدة الغزو والسيطرة الثقافية بالرغم من ان مشروع الجامعة بدا عملا وطنياً للتحرر من قصور الوطنيين عنـد مجالات التعليم المتوسط أو ارتمائهم في أحضان الجامعات التي أقامتها الإرساليات ، وتعـد تجربة إنشاء الجامعة المصرية علماً على خطة الاحتواء التي قام بهـا النفوذ الأجنبي ، وهي نموذج لكل الجامعات التي انشئت من بعد في مختلف أنحاء العالم الإسلامي .

فمنـــذ اليوم الأول لإنشاء الجامعـة الأهلية اشترك المستشرقون : نلينو وجويدي وسانتلانا فيهـــا وبدأوا في استقطاب الطـلاب وكانت تجربتها مع طه حسين ومحمود عزمي وزكي مبارك ومنصور فهمي معروفة ذائعة وهم ممن اتصلوا بها في مصر ثم سافروا الى أوربا .

تقول الأهرام عام ١٩٢٥ عندما ضمت الجامعة المصرية الى الحكومة : إن سلطات الاحتلال البريطاني سمحت بأن تضم الجامعـــة المصرية الى الحكومة خوفاً من نفوذ الإرساليات الأمريكية ، فقـــد لاحظت اللجنة التي شكلت لذلك وغالبيتها من الانجليز ان الإرساليـة الأمريكية جمعت تبرعات ضخمة في أمريكا لإنشاء جامعـة أمريكية في القاهرة على غرار جامعة بيروت، ومما يذكر ان الإرسالية الأمريكية قدمت الىمصرعام ١٨٦٥ حيثانشأت الكلية

الأمريكية في اسيوط أول مدرسة للبنات .

ولقد واجهت الجامعة المصرية منذ اليوم الأول معارك الغزو الثقافي والصراع بين مستشرقي فرنسا ومستشرقي إنجلترا، وكانت أولى معاركها حول استقدام المبشرين الذين يلبسون ثيـــاب المستشرقين حيث يكلفون بإلقاء دروس عن اللغة العربية والإسلام والقرآن ، وكان موقع الاعتراض ان هـــذه العلوم لا تحتاج الى أساتذة أجانب يكلفون الدولة مبالغ طائـــلة ليحدثوا الطلاب عن علوم يوجد من يبرع فيها ويفوق المستشرقين من أساتذة الازهر وعلمائه .

وقد دافع طه حسين عن استقدام المسيو كازنوفا وقال :

« اريد ان يعلم الناس أني سمعت هذا الاستاذ يفسر القرآن الكريم تفسيراً لغوياً خالصاً فتمنيت لو أتيح لمنــاهجه ان تتجاوز باب الرواق العباسي ولو خلسة ليستطيع علماء الازهر الشريف ان يدرسوا على طريقة جديدة نصوص القرآن الكريم من الوجهة اللغوية على نحو مفيد حقاً .

ورد الشيخ محمود ابو العيون فهاجم هذا الاتجاه [1] وقال إن كازنوفا وضع كتاباً في تخطيط مدرسة الفسطاط ولكن هل وضع كتاباً في فقه اللغة وتاريخها وآدابها أو مناهج تدريسها يرجع اليه علماء اللغة والادب فيما جهلوه وهل وضع تفسيراً للقرآن لغوياً خالصاً ، ان كان فعل هذا ليكونن له شأن كبير عندنا.

ثم هاجم طه حسين وقــال : الآن قد عرفنا مذهب الدكتور طه حسين ورأيه في كل تعاليمنا ، وإذا كان قــد رأى إيثار استاذه على كل عالم وأديب في مصر فيما ضيعة العلم في مدارسنا العالية : العلم الديني الذي يدرسه لأبنائنا أساتذة أوربيون كالمسيو كازنوفا .

ثم ذكر أبو العيون كيف ان جامعــات المانيا وإنجلترا وفرنسا استعانت

---

(١) الاهرام: ٤ سبتمبر ١٩٢٣.

بشيوخ اللغة العربية في الماضي والحاضر وكان في مستشرقيها الكفاية وان حسن توفيق العدل والدكتور حـــامد والي وعبد العزيز جاويش ومحمد جاد المولى ومنصور سليمان كانوا من هؤلاء الاعلام .

ثم هاجم الغزو الثقافي التغريبي الذي تحمل لواءه الجامعة وقال :

نحن بلينا بالتقليد الضار وهو في الحقيقة مسخ وتغيير وتنازل منا طوعاً واختياراً عن كل مميزاتنا ومشخصاتنا الى الغير ولو دام الحـال على مثل هذا لأصبحنا مثل كندا واستراليا وبعض جنوب أفريقيا وسواحل تونس والجزائر ومالطة » .

وكانت المشكلة الثانيـة في معركة الغزو الثقافي هي المحاضرات التي القاها الدكتور طه حسين عام ١٩٢٦ عن الشعر الجاهلي في كلية الآداب ودعا فيها الى إقصاء عنصري القومية والدين من مجـــال البحث العلمي وهاجم الاسلام وأنكر ما ورد في القرآن من اخباره عن إبراهيم واسماعيل وطعن في نسب النبي وأنكر ان للاسلام أولية في بلاد العرب وأنه دين ابراهيم .

كما كشفت الاحداث عن دروسه التي كان يلقنها لتلاميذه وفيها يحثهم على نقد القرآن ويذكر لهم ان في القرآن اسلوبين مختلفين كل الاختلاف ، كما حث الطلاب على ان ينظروا الى القرآن كأي كتاب عادي يجري عليه من النقد ما يجري عليها وان يغضوا النظر عن قدسيته .

وهكذا مضت الجامعة في احتضان التغريب الى أبعد مدى .

(١٢)

كان من اخطر تحديات التعليم الوطني الصراع بين التعليم الانجليزي والتعليم الفرنسي في مصر فقد عمد الانجليز بعد الاحتلال الى إحلال لغتهم وثقافتهم محل اللغة والثقافة الفرنسيتين تدريجياً وخاصة في المعاهد والمدارس العليا التي كان الفرنسيون يسيطرون عليها مثل مدرسة الحقوق ، وأخرج الاساتذة الفرنسيون الذين كانوا يسيطرون عليها ، واحتل الاساتذة الانجليز مكانهم ، وقد استبدلت اللغة الانجليزية في جميع المدارس باللغة الفرنسية واعتبرت اللغة الانجليزية لغة أصلية والفرنسية إضافية . وهاجم كرومر أسلوب التعليم الفرنسي وقال : إن اساتذة مدرسة الحقوق لا يلاقون على ما يرى في التلاميذ من قلة ما يميزهم بعضهم عن بعض لأنه ليس في أسلوب التعليم الفرنسي ما يدعو الى هذا الامتياز ودعا الى أفضلية الاسلوب الانجليزي لأنه يجعل التلميذ يعتمد على نفسه .

ويقول رسل جوست : إن الفرنسيين بذلوا خطوات واسعة منذ عهد محمد علي ، وكانوا يعرفون ان شباب مصر إذا ما تعلم اللغة الفرنسية فسيتبع طرق التفكير الفرنسية وكان رسل فرنسا لهذه الغاية في الاغلب رهباناً كاثوليك » .

وهكذا عاش التعليم الوطني على الصراع بين الثقافتين الفرنسية والانجليزية ثم جاء بعد الحرب العالمية الثانية صراع بينهما وبين الثقافة الامريكية وعاشت

مصر على استعارة الاذواق والعقليات الغربية المختلفة .

والإطار كله وافد وتوضع فيه المعلومات على نحو سيىء، وهو إطار قديم لم يتغير بعد الاستقلال ولا بعد انتهاء الاحتلال إلا في جزئيات بسيطة ، وهو في مجموعه لا يلتزم برسالة أو بهدف .

وكان من أخطر ما فرض عليه المنهج الامريكي الذي يطلق عليه نظرية ديوي ، وأبرز مظاهر مذهب ديوي في التربية هو إبعاد الدين في مجال التربية، وكان في الغرب يستهدف إبعاد المسيحية ، وقد قصد الاستعمار الى فرض هذا المذهب في دراسات مدارس المعلمين العليا التي كانت مجالاً لتخريج رجال التربية في مصر ورأى في هذا عوضاً عن الإشراف البريطاني على التعليم الذي كان يقوم به دنلوب (١٩٠٦-١٩١٩) فأصبحت نظرية ديوي هي عماد المنهج التربوي بعد ذلك وكان اسماعيل القباني حامل لواء هذه الدعوة ، وقد اتيحت له الفرصة لإنشاء معهد التربية الذي كان المكان الاول لجعل هذه النظرية فلسفة عامة للتعليم المصري والعربي فيما بعد .

وقد ظل لأتباع ديوي سيطرتهم الكاملة على أنظمة التربية والتعليم الى وقت بعيد وبذلك استطاعت نظريتهم ان تبعد الاسلام عن مجال التعليم والتربية مع حملات مستمرة على اساليب التعليم الاسلامية وإبعاد خريجي الازهر عن مجالات التربية بحجة ما أطلق عليه النقص في مستوى الكفاية الفنية للتعليم وذلك جرياً مع الهدف التغريبي الواضح ، كما حرصت هذه المناهج على حجب الدراسات الوطنية والتاريخية التي تعمد الى بث امجاد الامة وعظمة الشخصية العربية في نفوس الطلاب . وهذا الاثر من اخطر آثار التبعية للثقافات الغربية وخاصة الثقافة الامريكية .

الباب الثاني

واقع التربية الوافدة في العالم الإسلامي وآثارها

الفصل الأول

اوجه الخلاف بين المناهج

عندما غزا الغرب (العالم الاسلامي) : عسكرياً وسياسياً كان مخططه في الغزو الفكري والثقافي قد أوفى على درجة عالية من القدرة والتمكن. ذلك ان الغزو الفكري بدأ قبل الغزو السياسي بأكثر من ربع قرن ومكن لنفسه مناهج أخـــذها الاحتلال ورجالاً قاموا على اعمال التربية والتعليم والثقافة والصحافة فعندما بدأت الإرساليات عملها في بيروت ومصر واستانبول قبل ١٦٨٠ كان ذلك إرهاصاً بإعداد الركائز الحقيقية لولادة قوى الاحتلال وبناء الجيل الذي سوف يؤازر المحتـل بالسيطرة على الثقافة والتعليم والصحافة في نفس الوقت الذي يبدأ فيه الاحتلال .

يقول الدكتور أنيس صـــايغ [١] ثم نزل الانجليز الى مصر والسودان ، وانتقل الحكم الى ايديهم واحتـاج الانكليز الى موظفين أكفاء يتقنون لغتهم ويقبلون ان يتعاونوا معهم ، ومرة اخرى (والاولى ايام الخـديو اسماعيل) سد اللبنانيون والسوريون الفراغ ، وقـد وصفهم اللورد كرومر في مذكراته بأنهم «منحة من السماء» وأنهم «خميرة البلاد» ولم يكن كل السوريين المتعاونين

---

(١) في كتابه : الفكرة العربية في مصر .

مع الاحتلال موظفين ومرابين، فمنهم من انشأ صحفاً وأشهرها صحيفتا المقطم والمقتطف اللتان أصدرهما فارس نمر ويعقوب صروف واسكندر مكاريوس ، وكانت الصحيفتان اللسان الناطق لسلطات الاحتلال باللغة العربية . فأيدتا ذلك الاحتلال وهاجمتا الحركات الوطنية بكل ما في لفظتي تأييد ومهاجمة من معان ، ونستطيع ان نضيف الى ذلك بكل بساطة جرجي زيدان وسليم سركيس وفرح انطون وشبلي شميل واديب اسحق وكل من دعا الى أسلوب العيش الغربي .

ومن اجل ذلك وصفت الارساليات ووصف التبشير بأنه بمثابة الطلائع ففي عهد اسماعيل وقبل اكثر من ربع قرن من الاحتلال البريطاني لمصر كانت الارساليات قد ركزت نفسها وأعدت براجها ولم يبق إلا ان تسلمها الى المسؤولين عن الاحتلال لتطبيقها في دوائر التعليم ثم في الجامعات .

ولذلك فقد كان اكبر معاوني الاحتلال البريطاني لمصر من خريجي الارساليات ، وكانوا هم اصحاب الصحف التي كانت تقود حركة الفكر في صف تأييد الاستعمار والتغريب في هذا الوقت ، وقد تمكنت بعد ذلك كثيراً واستقطبت الكتاب المصريين والعرب الموالين لهذا الاتجاه .

وكانت تدافع عن كل مناهج الغرب في الثقافة والتعليم والتربية وتهاجم بشدة كل من يتصدى لها أو يحاول معارضتها وتتهمه بالرجعية والجمود والتخلف والخيانة .

ويمكن القول بأن بيروت كانت بؤرة العمل للغزو الفكري والتغريب في العالم الاسلامي يتوزعها على الارسالية الفرنسية الكاثوليكية والارسالية الامريكية والانجليزية البروتستانتية ، ومن وراء الاولى الفاتيكان ومن وراء الثانية الماسونية والصهيونية العالمية .

وكانت بيروت بذلك مؤهلة للتصدير وكانت القاهرة هي ملتقى كل مخططات التغريب وموزعتها عن طريق الصحافة والثقافة والتعليم في العالم الاسلامي كله.

(٢)

في إبان إعداد هذا العمل الذي أوصى به القديس لويس للاستيلاء على عالم الاسلام عن طريق الكلمة كانت مناهج الغرب في التعليم قــد تخلصت تحت تأثير الثورة الفرنسية من نفوذ الكنيسة واتجهت نحو العلمانية بمعنى اللادينية .

غير ان اغلب الذين أشرفوا على مدارس الارساليات كانوا من الرهبان والقساوسة الذين يحملون قــدراً كبيراً من الحماسة لدينهم ورغبة جارفة في تحقيق السيطرة الغربية عن طريق التعليم ، وقــد مضى التعليم في المدارس الوطنية قسمة بين المنــاهج الفرنسية والانجليزية كما رسمتها أنظمة الارساليات وعلى شاكلة مناهجها حتى اوائل الحرب العالمية الثانيــة ، ثم سيطرت عليه بعد ذلك مناهج التعليم الأمريكية ونظرية ديوي على وجه أخص .

وقد كانت هذه المناهج الثلاثة الفرنسية والانجليزية والامريكية قد وضعت في بيئاتها وطبقاً لظروف هــذه البيئات وأوضاعها ثم تطورت وتغيرت مرة بعد مرة في مواجهة مــا كان يواجهها من تجارب ، ثم نقلت هكذا الى أنظمة التعليم العربية دون مراعاة فوارق البيئة أو تباين العصر ، أو اختلاف الثقافة والعقائد .

ولقد ظل العرب والمسلمون يخضعون لهذه المناهج خضوعاً شديداً ويحاول البعض التخلص من هذه التبعية وهــذا النفوذ بعد ان ثبت فشل هذه المناهج

في تكوين الطالب العربي والمسلم وعقـدت عشرات المؤتمرات التربوية لإجراء تعديلات وتغييرات تتناسب مع ظروف العرب والمسلمين، ولكن أمراً واحداً لم يكن ليكون موضع الدراسة والاهتمام وهو ذلك الفارق الخطير من ناحيـة العقائد واللغة والتاريخ ؛ ذلك ان هـــذه المناهج افترضت اساساً أنها خارج نطاق الاسلام واللغة العربيـــة وأنها تدرس علوم الغرب كأنمـا هي في بيئة غربية خالصة .

لقد سيطرت النظريات الغربية الثلاث (الفرنسية والانجليزية والامريكية) على المدرسة ، وفرضت اسلوبها ، وتجاهلت تماماً أي اعتبار للعربي أو للمسلم، وإنما حاولت ان تشكل هذا الدارس وكأنه غريب تماماً عن بيئته وثقافته . وكانت ظاهرة الانفصال عن الدين والاخلاق هي أبرز معالم المناهج الدراسية.

وإذا كان الغرب قد أقام نظرية في التربية والتعليم على أساس إبعاد الدين عن التربية وفق تجربته مع المسيحية الغربية فإن الامر كان مختلفاً مع الاسلام الذي هو ليس ديناً فحسب ، ولكنه فكر وحضارة ومجتمع ، والذي لم يقف موقف الصدام مع معطيات العلم أو حركة التقدم ، فلظروف خاصة بالغرب انفصلت مناهج التربيـة والتعليم عن الدين الغربي ، ولكن هذه الظروف لم تواجهها المجتمعات العربية الاسلامية، ولم تكن مناهج التربية والتعليم الاسلامية قادرة على ان تنفصل عن الاسلام الذي هو بمثابة الأساس المكين لكل مقومات المجتمع والعلم .

والتربية الاسلامية تقوم أساساً على بنـــاء الشخصية الانسانية على أساس الايمان بالله والمسؤولية الفردية والالتزام الاخلاقي ، وهـــذا يعني ان فصل مقومات الخلق والعقيدة عن التربية من شأنه ان ينشىء شخصيات هشة ضعيفة لا تعرف مسؤوليتها إزاء مجتمع يواجه التحدي الخطير الدائم من قوى الاستعمار الغربية المتسلطة بالغزو العسكري والسيطرة الاقتصادية .

ولا ريب ان الغرب حين يسيطر على مقدرات العـــالم الاسلامي في مجال

التربية والتعليم والثقافة إنما يحاول ان يحجب عن المتعلمين هذا التحدي الخطير الماثل الذي هو بمثـابة الرأس من الجسد والذي لا يمكن للعرب والمسلمين ان يتجاوزوه في مرحلة من أخطر مراحل حياتهم التاريخية .

ومن هذا التحدي وحده نواجه ذلك الخلاف الكبير بين أساليب التربية ومناهجها في الغرب وفي عـالم الاسلام ونحتاج الى امتلاك الإرادة القادرة على بناء مناهج تربوية إسلامية عربية قادرة على بناء الشخصية الانسانية الصامدة.

ومن العجب ان هـذه التجربة الخطيرة التي استمرت اكثر من مائة عام لم تزل عاجزة عن ان تدفع أولي الرأي في العـالم الاسلامي الى كسر هذا القيد وبناء منهج تربوي إسلامي أصيل قادر على إعداد الاجيال القادرة علىمواجهة الأخطار، وما نزال غارقين في التبعية لأساليب التربية الغربية نتيجة لسيطرة الرجال الذين أعـدهم التغريب والغزو الثقافي لتولي مناصب القيـادة الثقافية والفكرية .

وما تزال أنظمة التربية والتعليم في الغرب تنحدر عاماً بعد عام ومرحلة بعد اخرى تحت سيطرة الأهداف التلمودية الصهيونية ، ومـا زلنا ننقل آخر مودات التعليم، ذلك ان آخر الصيحات التربوية الغربية التي تدعو الى التعليم الحر والداعية الى مذهب افعل ما تشاء ليست بمناهج أصيلة، وإنما هي مراحل متتابعة منهزائم الفكر الغربي وانحداره وسقوطه في براثن الأساليب التلمودية التي هدمت الاسرة وأثارت موجـات التحلل والهيبية والتحرر من الضوابط التي يقاسي منها المجتمع الغربي . فكيف يمكن لمجتمع نام في طريقه الى البناء ان يتخذ من أنماط مجتمع منهار أسلوباً لحياته وتكوينه ؟

(٣)

إن أخطر الخلافات بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي إنمـا تنصب على مفهوم التربية نفسه ، فالغربيون يرون ان التربية هي إعداد الأجيال لمواجهة المجتمعات المتغيرة على نحو يمكنهم من ان يلائموا بين أنفسهم وبين هذه المجتمعات، وتلك هي أحـــدث نظريات التربية الغربية ، ولا ريب أننا في عالم الاسلام والأمة العربية نفهم التربية على نحو أعمق وأوسع وأكثر وفاء لأمتنا وعقائدنا.

ونحن نعرف ان النظريات الغربية في أيّ ميدان من الميادين إنمـا تستمد وجودها من أساسين: (الاول) هو المادية التي لا تجعل للمعنويات أو الروحانيات أو ما يتصل بالدين والأخلاق أساساً .

(الثانيـة) هي التخصص والتجزئة والانشطارية من حيث ان تقوم كل مجموعة من الباحثين في مجال النفس أو الأخلاق أو الاقتصاد أو التربية بالانفصال عن الطائفة الاخرى .

أما في مجال الفكر الاسلامي فإن الأمر يختلف كثيراً ، فالفكر الاسلامي يقوم على قاعـــدة التكامل بين القيم المختلفة لا الانفصال بينها أو الصراع ، فالتربية مرتبطة بالمجتمع وبالأخلاق وبالاقتصاد وبالنفس على قدر واضح تتصل به وتتكامل معه ، ثم تأخذ طابعها الخاص دون ان تنفصل .

كذلك فالفكر الإسلامي يزاوج بين الثابت والمتغير ، وبين القديم والجديد

وبين الروح والمادة وبين الإلهي والبشري وبين الكلي والجزئي في تناسق واضح وتوازن رتيب .

والمناهج الاسلامية سواء في التربية أم في الأخلاق أم في الادب لا تنفصل عن الأصول كما أنها لا تنفصل عن الحركة الدائمة ، فهي توائم بين الارتباط بالأصل الذي هو بمثابة الإطار الثابت وبين الحركة التي هي من طبيعة الظروف المتغيرة دون ان يجعلها ذلك مجمدة وعاجزة عن التطور ودون ان تفلت من إطارها ذاهبة الى أبعاد بعيدة مغايرة لإطارها وأطولها وقيمها الأساسية .

وفي مجال التعليم تقوم المناهج الاسلامية على أساس تأكيد الرابطة بالارض وهي رابطة الوطن ، وتأكيد الرابطة بالأمة وهي رابطة العروبة ، ولكنها لا تدعها تتحرك في فراغ وإنما في إطار من مقومات الاسلام نفسه الذي هو الأصالة والجذور فلا تمكن لطوابع الوطن أو الأمة ان تعلو على القيم العليا التي جعلها الاسلام اساساً ومنطلقاً من حيث هو نظام ومنهج حياة .

ولقد تقول المناهج الغربية بتطور نظرية التربية بين حين وحين ، وهو تطور جذري غامر يتحرك دون قيد ضابط الى آماد بعيدة من غير ان يلقي بالاً الى أي روابط بالتاريخ أو الجذور أو القيم أو العقائد .

أما موقف الفكر الاسلامي من التربية فإنه يقبل بتطويرها دون ان تخرج من أطرها الأصيلة وقيمها الثابتة ، فتظل متصلة بالجذور وفي نفس الوقت قادرة على المعاصرة والحركة والتقدم .

ولقد نجد بين نظريات الغرب في التربية وبين المنهج الاسلامي فوارق وخلافات كثيرة نتيجة هذا الخلاف الجذري في النظرة العامة في عشرات المواضع والمواقف .

(٤)

تقوم نظرية ديوي في التربية على مصادر ثلاثة :

[الديمقراطية الليبرالية + الدارونية + البرجماتية] .

أما الديمقراطية الغربيـة فهي تعتمد النظرية الفردية واستعلاء الانسان وتحرره من كل عوامل السيطرة ، وهي في هـذا الطريق تقوم على سيطرة الانسان الابيض صـانع الحضارة وعبوديته غيره ، وتمضي في طريق مفاهيم الاستعمار والعنصرية ، وتقف من الانسان بصفة عامة موقف الفكرة اليونانية الرومانية القديمة : سيادة الغربي وعبودية من سواه .

أما الدارونية فهي تؤمن بالتطور المطلق كما جاء به خلفاء دارون وبذلك لا تؤمن بأن هناك قيماً ثابتة مطلقة، وهي بذلك تتجاوز الدين وتؤمن بتطور الأخلاق .

أمـا البرجماتية فهي لا ترتكز على حقائق ثابتـة لذاتها ولكنها ترى القيم وسائل تعين على الوصول الى غـايات ، فالفلسفة البرجماتية تنظر الى النتائج العملية الفعلية للعمل .

ويرى ديوي ان الأفكار أدوات وآلات يستخدمها الانسان ليكون علاقة فعالة مع بيئته، والعقل مجرد آلة يستخدمها في البحث؛ ولهذا تجعل البرجماتية

هدفها الإجابة عن السؤال : ماذا سنجني من العمل ؟

ويرى ديوي ان القيم الصالحة -ليست هي التي تحتوي على مضمون معين- وإنما هي التي تساعد الفرد على تكوين علاقة فعـــالة مع المجتمع ومع الناس ولذلك فهي في تغير مستمر وان قيم عصر سابق لا تصلح ليومنا هذا .

ولذلك فإن المدرس في نظره لا يجب ان يعـــلم القيم بل يجب ان يساعد الطفل على اكتشاف القيم بنفسه .

وبذلك يرفض ديوي كل ارتبــاط بين نظم التربية وبين الدين والأخلاق والقيم .

وكل هذه المصادر التي قامت عليها نظرية ديوي في التربية تقوم على تعارض مع مفهوم الاسلام أساساً ومع مفهومه في التربية ، فهو لا يرى أية حاجة لأن يعلم الحدث ديناً أو خلقاً أو قيماً ، وإنما يعلمه شيئاً واحداً هو أنه يعيش في مجتمع متغير وعليه ان يجـد الوسائل لكي يستطيع ان يعيش في هذا المجتمع ويتوافق معه أياً كان اتجاهـــه وتطوره . فهو قبول بالواقع الذي تسير فيه الحضارة الحديثـة والمجتمع الغربي دون ان يتخذ إلا الوسائل البرجمانزمية التي تستخدم الأفكار والقيم كأدوات فقط .

وديوي ومذهبه في التربية لا يؤمن بالترابط بين العقل والجسم ، ولا بين الروح والمادة ، ويدعو الى قبول الواقع لا تغييره .

فديوي ومذهبه هو ثمرة آخر مراحل التحول الخطير الذي يمر به الفكر الغربي والمجتمع الغربي تأثراً بالمـــادية وبالماركسية ، ويمضي في نفس الطريق الذي ترسمه المخططات التلمودية فيقرر ان الروابط الاسرية قدتحطمت وكذلك الروابط الاجتماعية .

ومن هنا فإن الطفل يجب ان ينشأ فيهذه الصراعات ويشترك فيها ويستسلم لها دون ان يعارضها أو يغيرها .

ولا ريب ان هـــذا الاتجاه وهذا المفهوم يتعارض تماماً مع اتجاه التربية الاسلامية التي تحاول إنشاء أجيـال قادرة على التغيير والإصلاح ، وقائمة في عملها وحياتها على أساس الايمان بالله والمسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي .

ومن هنـا فان مذهب ديوي ليس مقبولاً ، لا كلياً ولا جزئياً مع منطلق التربية الاسلامية بل معارض لها ، ومن هنا كان خطره منذ فرض على مناهج المربين في البلاد العربية والاسلامية .

(٥)

إن مفهوم التربية وفلسفتها بصفة عامـــة في الغرب يتعارض مع مفهوم التربية الاسلامية ، ذلك أنها تحاول ان تقدم للحدث المفاهيم الأولية للحياة مستمدة من نظريات الفكر الغربي ، فالانسان حيوان كما تقول نظرية التطور. وتنطبق عليـه تشريحات الحيوانات والحشرات ، والجنس هو مصـدر كل التصرفات كما تقول نظرية فرويـــد ، والتطور حركة مطلقة كما تقول نظرية التطور بدون حـدود أو ثوابت ، والأخلاق نسبية لأنهـا مرتبطة بالعصور والبيئات ، فهي متغيرة والانسان جسد فحسب وليس هناك نفس أو روح ، والدين من مخلفات العصور البالية سواء أكان أفيوناً للشعوب كما تقول الماركسية أو ســـلاح الإقطاعيين والأمراء كما تقول الديمقراطيه ، والجنس الابيض تاج الخليقة وصانع الحضارة وهناك جبرية في التاريخ أو حتمية في المادة .

هذه هي الخطوط العامـة التي تقوم عليها تربية النشء وهي مضادة تماماً لمفهوم الاسلام ، فالانسان في الاسلام سيد الكائنات وهو مستخلف في الارض ولكنه ليس سيداً مطلقاً بـل مسؤولاً ، وليس حيواناً مطلقاً ولكنه روح ومادة ونفس وجسم ، ولا تطبق عليـه تشريحات الحيوانات والحشرات لأنه يتميز بالعقـل والارادة . والجنس ليس مصدر كل التصرفات وليست المـادة مفسرة وحدها للتاريخ ولكن الجنس والمادة عاملان من بين عدة عوامل منها الدين والعنصر والمناخ .

فإذا قامت فلسفة التربية على المادية وعلى إنكار الجوانب الروحية والمعنوية فقد أقامت من الانسان مفهوماً ناقصاً وقاصراً . وإذا قامت على أساس ان الانسان حر الطبيعة والمسؤولية فقد تجاوزت مفهوم الاسلام الذي يعطي الانسان حرية الارادة ولكنه يجعله موضع المسؤولية ، وإذا رأت ان تجعل بين الله والانسان حلولاً أو اتحاداً فقد عارضت مفهوم الاسلام وأنكرت المسؤولية الفردية التي هي أساس الجزاء .

كذلك فان مفهوم التربية الغربية يعارض مفهوم التربية الاسلامية في أمور عديدة منها الإلحاح على اعتبار الدين قضية شخصية لا علاقة لها بالدولة ولا بالمجتمع ، وهذا ما لا يقره الاسلام ولا يقول به ، فالدين أساساً منهج حياة ونظام مجتمع . ولذلك فإن نظرية فصل الدين عن الدولة نبات غربي لا ينمو في بيئة المجتمع الاسلامي ، كذلك فالاسلام لا يعتبر الدين عائقاً في سبيل النهضة أو التقدم بل يعتبره معيناً ومساعداً ، كذلك ترى التربية الغربية ان ضوابط الاخلاق تعيق التقدم بينما يفرق الاسلام بين الاخلاق والتقاليد التي تبدو جميعاً في نظر الغرب وكأنها من صنع المجتمع ، أما قيم الأخلاق فإنها ثابتة ومتصلة بالانسان وليس بالمجتمعات كالخير والشر والحق والباطل وهي مما لا يقبل التطور أو التغير ، أما التقاليد التي هي من صنع المجتمع فهي تتبدل وتتحول ، ومن هنا لا يقر مفهوم التربية الاسلامي ان القيم الخلقية تتطور بتطور المجتمعات أو وسائل الانتاج .

(٦)

تؤمن التربية الاسلامية اساساً بالأخلاقية. فأخلاقية التربية دعامة حقيقية لا سبل الى تجاوزها . وتستمد أخلاقية التربية عنصرها من حركتها في إطار الدين نفسه ، وليس خارجاً عنه ومن هنا تركز التربية الاسلامية على الاسرة كقاعدة ثابتة للأمة . وتنمي في الأم مسؤولية واضحة ، وفهماً واسعاً يمكنها من تكوين النشء الجديد ، ويجعل لهـــا وللأب مسؤولية أساسية في إعداد الجيل القادم .

والفرد المسلم ليس في صراع مع مجتمعـــه ولكنه في مواءمة ، وليس في صراع مع الجنس ولكنه في توازن مع حاجاته وقدراته . ولقد أقام الاسلام للجنس مفهوماً قريباً الى الفطرة فأباح الاتصال بين الرجـل والمرأة ، ولكنه نظمه ووضعه في إطاره الصحيح الذي يعلي من شأنه ويكرم المرأة ولا يذلها، ثم جعل هذه الإباحة قائمـــة ثابتة ليس فيها خلاف وليست موضع صراع ، ولكنـه سمح لكل من يستطيع ان يقيم الاسرة ولمن لا يستطيع ان يؤجلها ويعليها حتى يتاح له ذلك .

كذلك فالاسلام يرى الاسرة دعامة ويرى الزواج فطرة ويرى تنظيم ذلك كله في إطار الدين شريعة تحقق سلامة المجتمع وتحفظ كيان الافراد .

فالأخلاق ليست قيـــداً ولكنها ضوابط تمكن من قيـام المجتمع الكريم والاسرة السليمة .

ولقد جاءت إطلاقات الغريزة الجنسية في الغرب نتيجة إنكار الدين الغربي لها وإنكاره لطبيعتها ، فكان لا بد من التحول من النقيض الى النقيض ومـا يقاسيه المجتمع الغربي الآن من ثورة جنسية وانفجار في العلاقات بين الرجـل والمرأة إنما هو رد فعل الحرمان الذي أطلقته الكنيسة للعلاقات الطبيعية بين الرجل والمرأة .

أما المسلمون فإنهم لم يصادفوا هــذه الأزمة لأن دينهم اعترف بحاجات الجسد وأباحها ووضع لها الاطار الذي تتحرك فيه والضوابط التي تحفظها من الاضطرابات .

وإذا وصفت المفاهيم الغربية الأخلاق بأنهـا عادات اعتادها الشخص في الاغلب ، ولذلك فهي ليست ثابتــة وهي في نفس الوقت ترتبط بالمجتمعات والعصور ، فإن ذلك موضع خلاف عميق مع المفاهيم الاسلامية وربما يرجع في الاغلب الى مادية النظرة الغربية التي لا تفرق بين الاخلاق المرتبطة بالدين وبين العادات والتقـاليد المرتبطة بالمجتمع ، والاولى ثابتة والاخرى متغيرة ، ومن شأن ذلك فإن المسلمين يرون في الاخلاق قيماً أساسية لا تتبدل على مدى العصور أو اختـلاف البيئات ، بينما يرون في العادات والتقاليد قيماً متغيرة يصيبها الضعف والتفسخ .

ونحن حين ننظر الى المفهوم الغربي للأخلاق الذي يراد طرحـه في أفق الفكر الاسلامي وبناء منهج التربية في العالم الاسلامي على أساسه نذكر جيداً مصدر ذلك الذي تشير اليه بروتوكولات صهيون حين تقول في إحدى موادها الأساسية :

« يجب ان نعمل لتنهار الاخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا. إن فرويد منا . وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ويصبح همـه الاكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه » .

ونحن نعرف ان فرويد دعـا الى نسبية الاخلاق ووصف الاخلاق بطابع القسوة حتى في درجتها العادية، وقال إن التسامي بالنفس هو نوع من الشذوذ.

ولقد هوجمت هـذه الآراء في الغرب قبل ان تهاجم في الشرق ، ولكن القوى الخفية مـا زالت تدفعها وتقدمها في كل مكان حتى في مجال دراسات التربية الحديثة وفي الغرب حقيقة قائمة الآن تزري بهذا الاتجاه وتقول بأن العالم تضخم جسمه وضعفت روحـه ، وان الاخلاق لم تتقدم بالسرعة التي تقدمت بها الصناعات ، وان تقدم العلوم لم يضمن ارتقاء الاخلاق .

وإن هذه الفلسفات المادية مـا تزال تهدم الايمان القديم ولكنها لم تشأ ان تكون إيماناً جـديداً فهي تثير الشبهات والشكوك وتدع الاجيال الجديدة حائرة ، وذلك هو أسلوب التلمودية الصهيونية .

ولا ريب ان التزاوج بين انتهازية مذهب البرجماتية وتحلل مذهب فرويد من شأنه ان يجعل التربية الغربية فاسدة فساداً شديداً لأنهـا لا تتحرر من الاخلاقية فحسب ، بل هي تعارض هذه الاخلاقية وتزدريها وتصفها بالجمود والتخلف .

(٧)

من وجوه الاختلاف البعيدة المدى حرص الجامعات الاجنبية في البلاد الاسلامية على ان تقدم دراسات عن العلوم الانسانية التي تتصل بالتاريخ وعلم النفس والاخلاق والعلوم الاجتماعية والفنون الى جانب دراساتها عن العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها، أما العلوم الانسانية فإن للعرب والمسلمين مفاهيم فيها تختلف عن مفاهيم الغرب، مستمدة من ثقافتهم وقيمهم وعقائدهم ولذلك فإن إصرار هذه الجامعات التي هي إرساليات تبشيرية في الاساس على تدريس هذه المواد من شأنه ان يخرج اجيالاً لا تفهم مجتمعها وقيمه إلا من وجهة نظر الغرب وطبق مقررات الاستشراق ، وهي وجهة نظر مخالفة تماماً لمفهوم العرب ومعارضة تماماً لأصالتهم ولأهدافهم .

وتدعي هذه الجامعات أنها تقدم هذه الدراسات بأسلوب علمي ، هذا الاسلوب العلمي لا يصلح كثيراً لدراسة العلوم الانسانية لأنه يقوم على قواعد الاسلوب التجريبي الذي يطبق في دراسات المادة والجماد والطبيعة بينما الدراسات الانسانية المتصلة بالنفس والاخلاق والمجتمع لا يصلح لها إلا اسلوب آخر .

ونحن حين نقدم للدارس المسلم والعربي نظرية دارون على أنها مسلمة علمية ونقيم عليها مفهومه عن الانسان فيتقرر في نفسه أنه حيوان ثم نعلمه مفاهيم سبنسر في التطور المطلق للمجتمعات استمراراً من نظرية دارون في التطور

البيولوجي ، فإننا حينئذ نفصله عن أساس عميق وأصيل في الفكر الاسلامي تضطرب معه كل النظريات والمفاهيم والقيم .

ذلك ان الاسلام والفكر الاسلامي لا يقر مـا طرحته نظرية داروين من فروض بأن الانسان حيوان ولا ما فرضه سبنسر من تطور المجتمعات الى غير ما نهاية ، وكان الأولى بهذه الجامعات إذا درست هذه المواد ان تدرسها على أنها نظريات وفروض قد تصح وقد تخطىء ، وان هناك بين باحثي العلوم من عارض نظرية داروين ونظرية سبنسر وكذلـك الامر في فروض « فرويد » التي تدرس على أنهـا مسلمات في علم النفس ، بينما توجـد عشرات المدارس ووجهات النظر في هذا المجال .

ونحن نعرف ان النظريات تتغاير ، وتختلف ، وتتحول سريعاً سريعاً حتى ما يصدق منها في زمن ما أو فترة ما لا يصدق في زمن وفترة اخريين. فلماذا نقدم للدارس المسلم والعربي مثل هذه النظريات والفروض التي هناك معارضات كثيرة لها في إطار البحث العلمي فضلاً عن معارضات الفكر الاسلامي لهـا وفق مقرراته الاساسية .

ولا ريب ان تقديم هذه الفروض على أنها مسلمات تبنى عليها نظرة الدارس الى الانسان والى المجتمع والى الحيـاة من شأنه ان يؤدي الى فهم مغاير تماماً لفهم الاسلام . وهذا ما تقصد اليه هذه الجامعات بتدريسها العلوم الانسانية التي ليس المسلمون والعرب في حاجة اليها من الغرب ، وإنما هم في حاجة الى العلوم الطبيعية والتجريبية التي تنقصهم اساساً. كذلك فإن جامعة الارساليات تعلم الشباب المسلم والعربي مادة التـاريخ ما قبل الاسلام وما بعده والعصر الحديث على نمط مضطرب اشد الاضطراب مغاير لوجهة النظر العربية الاسلامية تماماً ذلك ان مـا يعرض عليه هو وجهـة نظر الغرب في مفهوم التاريخ من حيث إن الغرب صاحب السيادة الحالية على الحضارة والمسيطر بالاستعمار على

عوالم كثيرة منها عالم الاسلام .

كذلك فإن للغرب وجهـة نظر بالنسبة لتاريخ اليونان والرومان تختلف ايضاً عن وجهة نظر العرب والمسلمين، فنحن كمسلمين وعرب نواجه المجتمعات السابقة للاسلام بفهم يقوم على ضوء ما قدمته رسالات الأنبياء للأمم ومـا عارضت به الأمم رسالات الانبياء من مفاهيم وفلسفات وفكر بشري وكيف جاء الاسلام ليصحح هـذه المفاهيم ويحررها من الزيف ويعيد تقديم الفكر الرباني الاصيل للانسان من جديد .

هذا المفهوم الاسلامي وهذا الموقف يخالف تماماً بل ويعارض تماماً موقف الغرب ، فنحن حين ندرس مـادة التاريخ في الجامعات الارسالية إنما نتبنى وجهـة نظر الغرب الى الاسلام والعرب والاديان ، وهي وجهـة نظر مغايرة تماماً وتعني ان يكون الدارس غربي الفكر ، فهو لا يصلح مطلقاً لأن يكون قائداً لأمته ، فإذا قادها أودى بها الى مهاوي الهلاك .

كذلك الامر فيما يتصل بدراسة العصر الحديث والحضارة الغربية فإن المفهوم الاسلامي لهـا تختلف تماماً ، فإن الغرب في العصر الحديث زحف على بلاد العرب والمسلمين فاحتلها وأقـام فيها استعماراً خطيراً استنزف مواردها وسيطر على مقدراتهـا وفرض عليها نظماً وفكراً ، وحال بينها وبين حرية الحركة والارادة ، وعارض مصلحيها وقـاوم مجاهديها ، وما زال يفرض نفوذه الاقتصادي والثقافي عليها .

أما من وجهة نظر الغرب فسوف تسيطر على الباحث المسلم والعربي دعوى العمل الضخم الذي قام بـه الغرب في سبيل تمدين هذه الشعوب التي توصف بأنها كانت متخلفة ومتأخرة ، ثم كان الغرب مصدر تقدمها .

هذه هي وجهة الخطر من دراسات الجامعات الاجنبية في بلاد المسلمين ، وهو خطر لا يتوقف عند هـذه الجامعات ولكنه يمتـد الى مختلف مناهج

الجامعات الوطنية ايضـاً على نحو أو آخر ، فالدارسون في الجامعات العربية لا يدرسون إلا علوم الغرب في الاجتماع والاقتصاد والسياسة وغيرها على أنها العلوم العـالمية دون ان يعرفوا ان للاسلام وجهة نظر في هذه القضايا عليهم باعتبارهم أبناء هذه البلاد ان يعرفوها، وان للاسلام أوليات في جميع مجالات العلم التجريبي والعـلم الانساني لا يذكرها الذاكرون في مجال البحث مما يشعر الباحث العربي المسلم بأنه عـالة على هذه الحضارة الحديثة وان قومه وفكره لم يكن له أي نصيب من الجهد والعمل في بناء هذه الحضارة .

وفي مجال دراسة الحضارة تحاول مناهج الجامعات الارسالية ان تكشف عن الحضارة الغربية سيدة العالم وتحاول ان تصور الحضارة الاسلامية وكأنها رافد من روافدها ، وكل مـا قام به المسلمون من جهد في مجال البحث العلمي والعلوم الانسانية يختزل في أنه كان حفاظاً على ترجمات الفلاسفة اليونانية ليس إلا ! ومن شأن هـــذا كله ان يخلق نظرة استصغار واحتقار من الدارسين المسلمين والعرب لأمتهم وحضارتهم ونظرة تمجيد وإكبار للغرب فلا يجدون مفراً من تبني الآراء القائلة بالتبعية والانصهار .

الفصل الثاني

اوجه النقص في الاقتباس

أبرز أوجه النقص التي تعانيها التربية في العالم الاسلامي نتيجة فرض المناهج الغربية على المدرسة الوطنية هو ظهور طابع الازدواجية في التعليم وفي الثقافة .

ذلك ان الاسلوب الاستعماري في التعليم استهدف الانفصال عن المنهج القديم دون القضاء عليه وإنشاء منهج آخر مستقل ، ومن هنا سار المنهجان معاً في وقت واحد ، حمل الاول طابع الدراسة الدينية واللغوية واستأثرت به المعاهد الاسلامية كالأزهر والقرويين والزيتونة ومعاهد الحديث وغيرها ، وهذه أقصيت عن النفوذ السياسي والاجتماعي ، وعزل خريجوها تماماً عن الحياة ، بينما ركزت الوظائف الرئيسية والقيادات العملية في أيدي خريجي النوع الآخر من التعليم الذي أطلق عليه التعليم الوطني أو القومي والذي فرض الاستعمار مناهجه ونظمه وصاغه على نحو معين لتخريج مجموعة من المواطنين ذوي الولاء للغرب وللفكر الغربي وهم في نفس الوقت يحملون بذور الكراهية وجذور الخلاف لخريجي التعليم الديني ، وبذلك تعمقت هذه

الازدواجية ، وترسبت نتيجة لامتدادها آثار بعيدة المدى وكان هذا كله وفي مجموعه خطراً شديداً على حياة المسلمين ومستقبلهم .

يقول الدكتور ظفر احمد الانصاري : هذان النظامان المتنافران ينتجان نوعين من الناس ذوي نظرتين مختلفتين الى الحياة وغير قادرين على إدراك وجهة نظر كل منهما .

ويشير الدكتور الأنصاري الى أثر النظام الوافد في التعليم فيقول : إن العقول التي شكلها هذا النظام التعليمي قد غلب عليها الإعجاب المطلق الذي لا تحفظ فيه ، والتقليد الكامل لكل ما هو أجنبي ، وهي بشكل عام عاجزة عن التمييز بين التقدم العلمي من ناحية والمثل الثقافية من ناحية اخرى . وانها كانت سبباً في نشأة جيل مجتث الاصول الثقافية ، مما ترتب عليه :

اولاً : ان النزعة الجامحة نحو التمدن لا تستدرج جماهيرنا للعمل الصبور في المختبرات العلمية بقدر ما تستدرجهم الى حانات الخمر وصالات الرقص .

ثانياً : ان الاعجاب المسرف بشعب ما والتقبل الأعمى لمذاهبه وآرائه وحتى طبائعه الفطرية يؤدي الى قتل القدرة على التفكير الأصيل ولا ينتج إلا عقولاً مقلدة .

ومعنى هذا : ان النظام الاجنبي الذي استقدم الى بلادنا يشكل تهديداً أكيداً لقدراتنا على التحيز بذاتيتنا وتهديداً لقدرتنا على الارتباط بديننا وتهديداً لما نؤمله من ان نكون شعباً يحترم ذاته .

وان الازدواجية قد خلقت اتجاهين متناقضين وأوجدت قوى هائلة من النزاع الداخلي تهدد كياننا كشعب ذي عقيدة ورسالة محددة .

وان هذا يستدعي — كما يقول الدكتور الانصاري — الى التفكير جدياً في إيجاد نظام آخر جديد .

(٢)

ترتب على هذه الازدواجية آثار بعيدة المدى أهمها : الانشطار والثنائية في الكيان الاجتماعي والفكري للأمة ، وقد صور هـذا دكتور محمد فاضل الجمالي حين قال :

« لا شك ساعدت التربيــة الغربية كثيراً على توسيع آفاق اختبارات الشعوب الاسلامية وذلك بتوعية هذه الشعوب وجعلها تدرك موقعها في عالم اليوم ، ولكن التربيــة الغربية تحمل في طياتهـا جراثيم التفسخ الاجتماعي والاخلاقي والروحي للعالم الاسلامي ، ولذا وجب دراستها دراسة انتقادية .

فالمشاكل والاخطار التي تحملها لنـا التربية الغربية تتأتى إما عن طريق اقتباسنا التربية الغربيــة اقتباساً مستعجلاً دون ان تنسجم انسجاماً كاملاً وتتلاءم مع احتياجات الشعب وتقاليده الروحية ، أو لأن هـذه المشاكل والاخطار كامنة فعلاً في التربية الغربية ذاتها . (ذلك) ان اقتباس التربية الغربية بدون ربط كاف لهذه التربية بالقواعد التربوية التي تشمل دين الشعب ولغته وتاريخه القومي والفنون والآداب المحلية ، قد أوجد انشطاراً وثنائية في الكيان الاجتماعي والفكري للشعب . إذ ان وجود جماعـة يفكرون ويتحدثون بلغة عربية وتعابير جديدة بينما هناك جماعة اخرى من ابناء الشعب ذاته تفكر وتتحدث في تعابير قديمة مما يسبب فقدان الوحدة والانسجام .

وهذا مـا حدث في عدد من البلاد الاسلامية الأمر الذي يشكل مشكلة ثقافية واجتماعية وسياسية كبرى .

ويرى الدكتور الجمالي ان هناك سبعة آثار خطيرة للاقتباس الفاسد :

اولاً : إن التربية الغربية ولا سيما تلك التي تقدمها المدارس الاجنبية أو المدارس الوطنية التي تقلدالغرب قد تهمل احياناً اللغة القومية فتكون النتيجة ان الطبقة المتعلمة تستعمل فيما بينها لغة أجنبية .

ثانياً : في اقتباس التربية الغربية تتجه العناية فيالغالب الى القالب والمظهر أكثر من الحقيقة والجوهر فالطالب المسلم اليوم قد يعنى ويقلق مناجل الشهادة واللقب العلمي اكثر من اهتمامه بالضبط العلمي .

ثالثاً : اقتباس التربيـــة العربية يؤكد عادة على عملية الحفظ اكثر من التأكيد على التفكير والفعالية والبحث (الشكل والقالب في التربية الغربية أكثر من الروح والجوهر) .

رابعاً: إن الذين ينالون قشرة من الثقافة الغربية يصيبهم الغرور والادعاء والبعض الآخر يعوزهم التكيف ، ويصدق هـذا حينما يتأخر انتشار الثقافة العامة بين ابناء الشعب .

خامساً : التأكيد حتى الآن على النوع الأكاديمي في التربية الغربية وذلك على حساب التربية العلمية والتقنية .

سادساً: الكثير ممن ينالون الثقافة الغربية لا يعرفون شيئاً كافياً عن دينهم ولا عن حضارة أمتهم وجذورهم الروحية قد قلعت من تربة بلادهم .

سابعاً : فضلاً عن اعتيادهم على المشروبات الكحولية والانغماس في التمتع بالشهوات والتحلل الخلقي .

(٣)

يكاد أغلب دعاة الفكر الغربي والثقافة الغربية والمتأثرين بالتربية الغربية ان يجمعوا على فساد عملية الاقتباس من التربيــة الغربية ، لأنها حرصت على ان تنقل المحاذير والسلبيات واوجــه النقص بينما تركت الايجابيات والقواعد العامــــة الصالحة لكل الامم والعصور كأنما كان هؤلاء الدعاة أعداء لأممهم وخصوماً لأوطانهم . يقول ساطع الحصري :

إن نظام التعليم في أي بلد لا يكون نظاماً قائماً بذاته ، يعمل بمفرده مجرداً عن النظم العائلية والقومية السائدة في البيئة التي ينتسب اليها وإنمـــا يكون جزءاً من مجموعــة النظم الاجتماعية والخاصة بتلك البيئة ، وهو يعمل معها ويؤثر فيها ويتأثر بهـا على الدوام ، ويتبين من ذلك ان النظام التعليمي القائم في بلد من البلاد إذا انتقل الى بلد آخر ، بما انه ينتقل بمفرده وينفصل عن سائر النظم التي ترافقه في منشئه الأصــلي لا يمكن ان يعطي نتائج مماثلة للتي يعطيها في بيئته الاصلية وهذا هو نتيجة ضرر الاقتباس بدون تأمل وتكييف [١] .

ويواصل تفسير وجهة نظره هذه فيقول :

---

(١) كتاب حول الوحدة الثقافية العربية .

إن البلاد العربية تسير في شؤون التعليم على طرق تخالف المبدأ ، فبعضها يتجه نحو النظم الافرنسية وحـــدها ، وبعضها يسير نحو النظم الانجليزية ، وبعضها يستلهم النظم الأمريكية ، ويقوم جـدال وكفاح بين مؤيدي هذه الأنظمة بصورة علنية أو خفية .

وعلى العرب ان يعدلوا عن الاستمرار في هذه الخطط .

فقد لاحظ زعماء الإصلاح فياليابان ان الطلاب الذين يدرسون في بلد من البلدان الغربية يبقون تحت تأثير تلك البـلاد بصورة لاشعورية ، فقرروا ان يفرضوا على كل طالب يدرس في بلد من تلك البـــلاد ان يقضي سنة في بلد آخر قبـــل ان يعود الى اليابان ليستطيع ان يوسع أفق انظاره ومطالعاته ويصبح أكثر إدراكاً لمقومات الحضارة الغربية منغير ان يبقىمبهوراً بإحدى البلاد الغربية على وجه الانحصار .

ويعود مرة اخرى الى الغاية فيقول :

إن الاقتباس من نظم التربيــة والتعليم يجب ان لا يرتكز على نظام أمة من الامم على وجـه الانحصار ، بل يجب ان يقوم على دراسات شاملة على استعراض كل النظم القائمة في البلاد الناهضة .

ونضيفالى ما يراه ساطع الحصري: وان تجرى دراسة هذه النظم وعملية الانتقاء في ضوء الأصول الأساسية للتربية الإسلامية نفسها بحيث لا يقبل ما يتعارض مع قواعدها الأصيلة وهي: التوحيد والإيمان بالله والمسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي والجزاء الأخروي .

(٤)

أكد أكثر الباحثين في التربية ان معايب النظم التربوية الغربيـة الوافدة فقدان المثل الاجتماعية العليا ، يقول دكتور بانيكار :

كانت التربيـة في ظروف الوضع الاستعماري محافظة جامدة لأنه لم يكن من مصلحة الاجنبي المستعمر الذي يبغي استغلال البلاد ان تروج تربية حيوية تدعو الى الانطلاق ، والنفسية التي كان يراد خلقها لدى النشء كانت تميـل بالطبع الى التقليل من قيمة الثقافة الوطنية مع تمجيد فضائل السيد الاجنبي ، وكانت أبرز أهـداف التربية الاستعمارية إثارة الروح الانهزاميـة في نفوس المواطنين لتتمكن من التحكم بهم وبخيراتهم دون عناء كبير .

والآن وقد تخلى الاستعمار عن أغلب بلاد العالم الاسلامي فهل زالت هذه الروح من مناهج التعليم ؟ صحيح انهـا زالت من حيث الإطار العـام ولكنها لا تزال باقية مسكنة في أعمـاق البرامج والمناهج تقديراً للغرب وللحضارة الغربية وإيماناً بهـا وولاء لها ، ودون مـا قدرة على إثارة الروح الاسلامي ومفاهيمه وقيمه وبناء أجيال جديدة عليه .

فما زالت البلاد الاسلامية عاجزة عن ذلك نتيجة تلك الطلائع التي ما زالت تسيطر على أنظمة التعليم وتحول دون تغييرها .

فالأساتذة فؤاد جلال وعبد العزيز القوصي واسماعيل القباني وطه حسين كانوا حريصين تمام الحرص على السير في نفس الإطار الذي تجري فيه مناهج التربيـة ، وكان خلافهم على الولاء الفرنسي أو الامريكي ولكن فلسفة ديوي كانت مقبولة لديهم جميعاً .

كان ارتباط التعليم بالنظم الغربية قاعدة مقررة .

وكان إبعـاد الدين عن مناهج الدراسة والبحث أمراً مفروغاً من إعادة بحثه أو النظر فيه .

ولقد توالى في السنوات الماضية انعقاد مؤتمرات التعليم وأصدرت «شارات» براقة خـادعة ، ولكنها كانت تخفي من وراء ذلك إمعانها في الاستمرار في نفس الطريق الذي تسير فيـه وتعميقه ، وهي ممعنة في توجيه مناهج التعليم وجهة غربيـة صرفة أي وجهـة علمانية لا دينية «تؤدي الى ضياع الجيل القائم والجيل القادم ضياعاً لا تقوم معه نهضة في هذه المنطقة مما يمكن لليهود ولشيعتهم الذين يتولونهم من دول الاستعباد الغربي وذلك بترويج بعض الآراء والاساليب التربوية والنفسية الفاسدة » وكلها مذاهب هدامة تحمل اسم العلم الحديث . وخاصة في مجال العلوم الاجتماعية والانثروبولوجيا .

وقد ثبت تمامـاً ، ان كل المخططات التي تسير فيها نظم التعليم في البلاد العربية لن تؤدي الى تحرير هذه الأمة لأنها تستمد مناهجها من أنظمة مدارس الارساليات ومنها التعليم في لبنان وانها بعد ان تحررت من نفوذ الاستعمار لم تستطع حتى الآن ان تتحرر من سلطانه على التربيـة والتعليم الذي يستخدمه الآن من أجل حماية نفوذه استبداداً واستعماراً في آن .

وما تزال الحقيقة التي لم تتغير تصك الآذان بأن استمرار اللجوء الى تبني الطريقة الغربيـة في صوغ مناهجنا التعليمية سيجعلنا تابعين وعبيداً للغرب وسيفقدنا شخصيتنا .

يقول أحد كبار مربي هذه الأمة وائمتها :

« إن الفكرة التي تسود عقول رجال المعارف هي وجوب إبعاد العنصر الديني عن العقول والأذهان حتى تكون المدارس علمانية فقط وإن كان الكثير منهم لا يستطيع المجاهرة بهـــذا الرأي ، الدافع لهذا الرأي هو تقليد أوربا ونظمها إعجابا يدفعنا الى السير وراءها » .

ومن أبرز عوامل امتداد هذا الخطر بالرغم من محاولات الإصلاح والتغيير الكثيرة هي ان بعض القادة والمتصدرين في مجالات السياسة والحكم في البلاد الاسلامية كانوا نتاج نظام التعليم الغربي، فهم ما زالوا يدينون له بالولاء ويبقى بعد ذلك ان يدمغهم دكتور عمر فروخ بهذا الحكم :

« وجـــدت بعد ثلاث واربعين سنة من التعليم ان طلابنا وتلاميذنا وهم مجموع الأجيال المقبلة قـد فقدوا كثيراً من الخلق الديني الذي كان لا يزال موجوداً في التـــلاميذ الذين عرفتهم في عشر العشرين وعشر الثلاثين وعشر الاربعين ، ثم وجـــدت في السنوات الاخيرة بين الطلاب حركات واتجاهات مؤسفة ، وحالات لا تعكس النقص في التربية الدينية فحسب ، بل تنعكس على الوجود الاجتماعي والطبيعي للأمة كلها » .

(٥)

إن مسألة فصـل الدين عن مناهج التربيـة والتعليم هي من أخطر المحاذير وهي من أسوأ الاقتباسات للتي تـدل على سوء النية والتبعية المغرضة ، فقد أساء هذا الى الاجيال المتوالية إساءة شديدة .

وحين يراد منا ان ننفصل في العالم الاسلامي عن عقيدتنا نجد الامم جميعاً تربط بين التربية والعقيدة. والعقيدة عندنا ليست ديناً عبادياً فحسب ولكنها نظام اجتماعي كامل والتربية نفسها جزء منه.

يقول العلامة أبو الحسن الندوي في هذا الصدد [١] :

في الغرب لا يسمح للمواد التي تبذر بذور الشيوعية والماركسية وتستهزىء بفكرة الملكية وتثمير الثروة وتنظيمها على غير أسس الشيوعية والماركسية ولا يسمح ولا يفكر في استيراد أقل عـدد من الأساتذة السوفييت مهما بلغوا من البراعة والإبداع والتفوق في العلوم والفنون .

كذلك : لا يسمح قادة التربية والتعليم في الغرب «باستيراد» منهج تعليمي من بـلد الى بلد ولو كانا يلتقيان في العقيدة والفكرة الأساسية في الاجتماع

---

(١) نحو التربية الاسلامية الحرة .

والنظرة الواحدة الى الانسان والحياة والكون .

وبالرغم من اللقاء في اللغة والثقافة بين أمريكا وإنجلترا ، وفي المذهب البروتستانتي فإن الموجهين لسير التربية والتعليم لا يرون استيراد مناهج التعليم من بريطانيا . ومن رأيهم ان نظام التعليم ليس من البضائع التي تستورد من بلد الى بلد .

ويقول الدكتور كاننت : إن عملية التربية ليست تعاطياً وبيعاً وشراء ، وليست بضاعة تصدر الى الخارج أو تستورد من الداخل ، إننا في فترات التاريخ خسرنا أكثر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الإنجليزية أو الأوربية الى بلادنا الأمريكية .

ويعاود الأستاذ الندوي القول : إن التربية في نظر هؤلاء القادة الذين يغارون على شخصية وذاتية بلادهم « لباس » يفصل على قامة هذه الشعوب وملامحها القومية وتقاليدها الموروثة وآدابها المفضلة وأهدافها التي تعيش لها .

إنه «لباس» يجب ان ينسجم مع اجوائها وبيئاتها التي تعيش فيها والآداب التي تحتضنها والتاريخ الذي تغار عليه .

وإذا كان الغرب يفعل هذا في مثل هذه الدقائق التفصيلية والفرعية في جو تحكمه لغة واحدة وثقافة مشتركة فكيف بنا وبيننا وبين الفكر والثقافة واللغة والعقيدة والآداب والاخلاق الغربية فوارق عميقة .

ولماذا يراد لنا ان نكون تابعين ، ومحتوين ، وساقطين في احضان التغريب والسيطرة الثقافية .

ويتحدث الباحثون عن شؤون التعليم والتربية ان الشاعر فخته عند هزيمة ألمانيا لفرنسا نابليون ، دعا الى إعادة النظر في طرائق التربية والتعليم وعمل الى تحرير المناهج من الإسفاف والإباحة فكان نتيجة ذلك النصر في معركة (سادو) وغيرها من معارك السبعين .

ويردد علماء الاجتماع ان الدول التي تجتاحهـا هزات عنيفة فإنها تتنبه تواً الى ان مصدر الخطر هو فساد نظام التعليم فتعيد النظر فيه .

فلماذا لا تهزنا ضربات الصهيونية العالمية وغزوها الظاهر والمقنع وسيطرتها على مناهج التعليم الغربية وما اقتبس منه في بلاد الإسلام ؟

إن الصهيونية العالمية قد سيطرت على التعليم الغربي وجردته من كل القيم والمثل وحررته منالاخلاق والدين لهدف معروف، وهي تسعى الآن لتطبيق ذلك في أفق التربية الإسلامية .

ونحن نعرف ان المدرسة هي التي تستطيع ان تغير نظـــام المجتمع بما لا تقدر عليه سائر المؤسسات الاجتماعية ، وان طريقة الاصلاح تكمن في عبارة (ارسموش) التي يرددها الغربيون ونأخـذ منهم كل شيء عمياناً مصفدين ولا نصغي الى الحقائق التي يمكن ان تنير لنا الطريق .

يقول ارسموش : « سلمني إدارة التربية ردحاً من الزمن ، أتعهد لك بأن أقلب وجه العالم بأسره » .

لست أدري كيف نعرف هذه الحقائق ثم يصر رجالنا على عزل الاسلام عن مقومات مناهج التربية والتعلم ويخدعوننا بأن يجعلوا الدين مادة تدرس.

إن الاسلام ليس دينـاً عبادياً لاهوتياً كي يدرس ، إنما الاسلام هو روح الفكر والثقافة والتربيـــة والقيم الاجتماعية والسياسية والقانونية جميعاً وهو قوامها .

إنه ذلك الطابع الذي يطبعها جميعاً بروح الإيمـان بالله والالتزام بشرعته وإقامة حدوده وتنفيذ ضوابطه .

ولقد آمن بذلك أكثرمن كانوا متابعين للنظرة الغربية وعرفوا مدى خطر ذلك على أمتنا وعلى كياننا .

يقول الدكتور الجمـــالي : إن الشاب المسلم الذي يرتاد مدرسة أجنبية لا يتعلم شيئاً عن دينه عادة . وهو لا يدري بأن للشاب الغربي مدرسة دينية في

البيت أو في الكنيسة ان لم تدرسه في المدرسة . إن التربية الأجنبية تقصر كثيراً في مهمتها التربوية حين تترك الشباب المسلم محروماً من معرفة أصول دينه ، فهو بذلك يخسر الأسس الضرورية لأي شكل من أشكال التربية الاخلاقية والروحية على أسس قوية راسخة ، والشباب المسلم ذو الجذور المقلوعة والنفس القلقة بسبب حرمانه من التربية الروحية قد يكون شخصاً متشائماً وقد يصبح عنصراً مشاغباً في المجتمع الذي يعيش فيه .

ولقد نقلنا نحن منهج مدرسة الارساليات الى المدرسة الوطنية دون ان نقدر الفارق البعيد العميق بين منهج التربية الاسلامي ومنهج التربية الغربي .

ذلك ان نظم التعليم الغربية قد تكون في الغالب مبنية على فلسفات ذات صفة ثنائية ، أو انشطارية Dualists فهي فلسفات تفصل الدين عن الدولة والروح عن الجسد والفرد عن الجماعة ، فالدراسات العلمانية مثلاً قد تؤدي بسهولة الى اتجاهات فكرية مشككة أو مادية أو ملحدة أو عدمية ، وفي نشأة الشباب المسلم على هذا الطراز من التفكير ينشأ غريباً عن مجتمعه ويعيش في فراغ روحي .

ونحن نعتقد ان الفلسفة الانشطارية — أو الثنائية — في التربية الغربية تصبح لعنة في حياة الانسان حين نفصل الدين عن الدولة والروح عن الجسد والفكر عن العمل والعلم عن الدين .

ذلك « ان الاسلام لا يفصل الدين عن الدولة ، ولا الدين عن العمل ولا العلم عن الاخلاق فالدولة والعلم والاخلاق والعمل ، يجب ان تتفاعل كلها وتتحد وفق قوانين طبيعية واخلاقية ذات مصدر إلهي .

والمسلم الذي لا يتفهم دينه على الوجه الكامل قد يقع فريسة للفلسفة الانشطارية (الثنائية) التي تمارس في الغرب .

ولقد سقط فعلاً عدد من الشبان المسلمين ضحايا لتربية غربية ذات فلسفة انشطارية [1] » .

---

(١) آفاق التربية الحديثة للدكتور محمد فاضل الجمالي .

(٦)

إن اقتباس اساليب التربية في شؤون التاريخ والادب والعلم قد أحدث أخطاراً بعيدة المدى في النفس العربية والاسلامية .

إن تدريس مادة التاريخ على النمط الغربي إنما تفرض النظريات المادية الاصل التي تفسر التاريخ بالمادة أو الاقتصاد أو الجغرافيا ، والتي تنظر الى العالم كله نظرة واحدة ، فلا تفرق بين أمة وأمة أو دين ودين ، ثم هي تحاكم العالم على وضعه القائم: بحسبان ان الغرب صاحب الجنس الأبيض هو المسيطر الآن والسيد الحاكم وان الشعوب الملونة هي المستعمرة والمتأخرة .

ولا ريب ان هذا الوضع هو وضع مؤقت وليس وضعاً طبيعياً ، فقد كان العرب المسلمون سادة العالم لألف عام متصلة ، وان مرحلة الضعف التي تمر بهم الآن لا يمكن ان تتخذ ذريعة للحكم على تاريخهم كله .

ومن شأن تقبل هذه الاساليب في دراسة التاريخ ان يجعل الدارس المسلم والعربي يحتقر ماضيه وتاريخه وقيمه وأمته ويقف موقفاً يائساً بالنسبة للمستقبل ، بينما يلزم ان تكون التربية الاسلامية موجهة لهذا الشباب الى الايمان بمستقبل أمته متى عادت الى نهجها الحق وإيمانها بعقيدتها ورسالتها .

كذلك فإن تعلم الأدب على النمط الأوروبي يقود الى جعل الاسلام غريباً في عيون الناشئة المسلمة ، فهو يفصلهم عن أساس البيان ومصدر الأدب وهو

القرآن الكريم ، فإذا عرض له عرض له عن طريق مذاهب لا تؤمن بالوحي والنبوة ، فهي لا تراه منزلاً من عند الله بل تراه من كلام البشر ، فهي تحاكمه وفق مناهج النقــد الأدبي كما يحاكم الغربيون التوراة والإنجيــل مع الفارق البعيد بــين كتب بشرية فقدت أصولها السماوية وبين القرآن الذي هو النص الموثوق الذي لم يصبه أي تحريف .

كذلك فهناك خطر المناهج الغربية في الدعوة الى الفنون والمبالغــة في الاهتمام بها ومدى خطر ذلك على نقل الأمم من جادة الحق الى التحلل والرخاوة .

يقول الاستاذ أبو الحسن النــدوي : لقد أثبت التاريخ مرة بعد مرة ان الشعوب التي تتخذ الوسائل غايات والعلوم والفنون آلهة تعبد ، ويقوى فيها النظر والجدل على حساب الخلق والعمل ، ويكثر فيها الافتتان بالفنون الجميلة ، وتضعف فيهــا الإرادة وقوة المقاومة للمغريات ووسائل الترفيــه والتسلية وتضعف فيها الغيرة والحميــة ، وتعشق الحياة والملذات وتنتشر فيها البلبلة الفكرية ، وينتشر فيهــا التشكيك الشامل للعقائد والآداب والاستخفاف بجميع التقــاليد والعادات التي كان فيها الشيء الكثير من القوة والصلاح ، ويتطاول فيها الريب الى مصادر الدين ومراجع التــاريخ والى الشخصيات القديمة والحوادث التاريخيــة والى الأعراف والعادات يقود هذه الحملة كبار الاساتذة وحــذاق الأدباء ونوابغ الباحثين وحملة الأقلام ومنشئو الصحف ، وينتشر هذا السم في كل طبقة من طبقات الأمة ، ويتسرب الى عقول الشباب ونفوسهم ، ويتغلغل في أحشائهم ؛ فإن هــذه الأمة لا تثبت أمام أيّ عدو زاحف أو قوة مهاجمــة ، ولا تثبت في معركة يوماً واحداً ؛ وهذه قصة اليونان وقصة الرومان .

(٧)

يدمغ الدكتور محمد فاضل الجمالي نظام التربية الغربي بأمرين خطيرين : عجزه عن خلق روح الوحدة والترابط وإهماله للنواحي الروحية والاخلاقية.

أما عن الأول فيقول : إن التربية الغربيـة تعوزها الوحدة والترابط ، ويعوزها الانسجام والتوفيق بين نواحي الوجود ، ذلك ان الغرب قد أنجب علماء عظاماً وأخلاقيين كبـاراً وفنانين مبدعين وأدباء مجيدين وإداريين قديرين ، كل واحد يمتاز في حقـل اختصاصه ولكن الواحد منهم قلما يعنيه التوافق والانسجام مع المجموع. وكل واحد يتعمق في حقل اختصاصه بدرجة متناهية بدون ان يكون له تمـاس مع الاختصاصات الاخرى أو اكتراث بوجهة نظر أصحابها ، فالعالم مثلاً قد لا يهمه كثيراً مصير القيم الاخلاقية ، والسياسي أو الإداري قد يصوغ مقاييسه الاخلاقية العملية الخاصة به .

وتربية الفكر قد لا تسير جنباً الى جنب مع بناء الاخلاق الفاضلة وتقديم الذوق الجميل . كذلك ففي التربيـة الغربية اللادينية خطر جسيم ينجم عن نسيان خصائص الانسان الروحية والاكتفاء بالتأكيد على نواحي حياته الجسدية والاجتماعية وبالجملة فإن أهم نقص في التربية الغربية هو فقدان الانسجام بين المتطلبات الزمنية للانسان والمتطلبات الخلقية والروحية .

ونحن نعرف مـدى الخطر الذي ترتب على اقتباس هذا الطابع في مجال

التربيـــة الاسلامية ونعرف كيف يقيم الاسلام التخصص في دائرة الشمول والتكامل فلا يجعله منفصلا انفصالاً يذهب به الى الاستعلاء أو التفرد حتى لا يفقد المسلم روح الوحدة ولا يفقـد الفكر الاسلامي طابع الترابط الجامع بين القيم والعناصر .

الى أيّ حد كان اقتباس هـــذا الطابع في مجال التربية الاسلامية خطيراً وما ترتب عليه من آثار جلى !

يقول الدكتور الجمـالي : إن الإهمال النسبي للنواحي الروحية والاخلاقية في التربية الغربية قد تسرب الى أنظمة التعليم الحديثة في العالم الاسلامي .

فأصبح من نتائجه ان هناك تقصيراً في التأكيد على نشوء الانسان روحياً وخلقياً في تربية الجيل الاسلامي الجديد ، ولا سيما إذا قارنا ذلك بالتأكيد الحاصل على النواحي العلمية والفكرية والجسدية للحياة الانسانية .

والنتاج التربوي لهـــذا التوجيه الناقص : هو إنسان منحط في إنسانيته احياناً ، إذن فتربيـة الإنسان كل الإنسان كما يوحي بذلك كل فلاسفة التربية العظام لا يزال حلماً يجب تحقيقه في الشرق وفي الغرب .

ذلك ان فقدان الوحـدة والانسجام في التربية قد يؤدي الى الإفراط أو التفريط في معالجة بعض الأمور على حساب أمور أخرى . فالانحياز الى جهة دون الجهات الاخرى يصبح من الاخطار التي تفقد الحياة اتزانها واستقرارها، فالمرء قد ينحاز إما الى هذه الفلسفة أو تلك وإما الى هذه الجهة أو تلك .

أما إذا كانت الحقيقة بين بين أي توجد بين النهايتين فلا يعبأ بها ، فقـد نشاهد البعض يتطرف في (فلسفة العقلانية) والآخر يغالي في (فلسفة المادية) أو نرى هذا يتحمس للفلسفة المادية وآخر يتحمس للفلسفة الروحية .

وهذا متطرف في الفردية وهذا متطرف في الجماعية .

وهذا متعصب للقومية وهذا مدفوع للأممية .

وهذا مفكر تمكن في حياة التأمل ، وهذا عامل يدوي لا صلة له بالحياة الفكرية .

هذه الانقسامات والانشطارات التي نتيجتها إما هذا وإما ذاك حيث لا تلاقي ولا توفيق ، سببها عدم الأخذ بالوسط الذهبي الذي يجمع الحقيقة من كل الاطراف ومن المركز الوسط بين القوى المتضاربة .

إن الإفراط والتفريط وعدم الأخذ بفلسفة الوسط الذهبي قد فرق الانسان عموماً بما في ذلك العالم الاسلامي الى معسكرات متنافرة ، وها هي الإنسانية منقسمة على نفسها اليوم من أدنى الارض الى أقصاها .

إن فقدان التوحيد والانسجام قـد أدى الى التطرف والتحيز ، بما جعل من التربيــة أداة للتعصب والفكر المغلق وقـد يبرر العنف كوسيلة للعمل السياسي أو الاجتماعي ، والمرء قد يلجأ الى الطعان بدل الحوار ويمارس البغضاء والكراهية بدل الأخوة والمحبة .

أما التربية المؤسسة على التوحيد والانسجام فإنها تعنى بروح الإيمان المؤدي الى الاعتدال والوسط الذهبي والتفكير المعقول المتزن وضبط النفس ، وهذه هي الصفات التي يؤكـد عليها القرآن الكريم ولكن بعض النظم المقتبسة من الغرب قد حملت معها : « منهجاً عقائدياً متحزباً » تعوزه في الغالب المحبـة والمنطق والاعتدال .

هذه الصورة من أثر اقتباس (نوع) من أنواع التربية الغربيـة الى العالم الإسلامي والمجتمع الإسلامي ، وقد رأينـــا مثل هذه الآثار واضحة وعميقة وبعيدة المدى والأثر فيما أصيب به المسلمون في السنوات الأربعين الاخيرة من نكبات ونكسات .

(٨)

وإذا كانت بعض الأنظمة التربوية الغربيــة المقتبسة قد قدمت لنـــا هذا النموذج من العقـائديين المتعصبين والمتحزبين الذين « لا يمارسون التسامح والاعتدال » فإن هناك أنظمة تربوية غربية اخرى – ونحن في العالم الاسلامي خاضعون لنظامين تربويين يتصارعان بيننا – هـذه النظم الاخرى قدمت لنا – على حد تعبير الدكتور الجمالي – تطرفاً في التراخي الأخلاقي والحرية غير المسؤولة فهي : « تقود الناشئة الى نوع من اللامبالاة الأخلاقية، فيصبح تناول الكحول واستعمال المخدرات والتهاون في العفة من الأمور المتسامح فيها وتصبح القيم الاخلاقيــة نسبية وعرضة للتقلبات والشهوات الفردية ولبذهب ضبط النفس الى حيث ... » .

هذا وان الشباب الغربي قد يمارس شيئاً من الاعتدال وضبط النفس حتى في جو الحرية المطلقة ، أما الشاب المسلم الذي ينشأ في محيط اجتماعي ضيق، إذا ما تعرض الى هذا الجو فقد يصبح عرضة لخطر فقدان ضبط النفس بحيث يصبح إباحياً؛ وليس قليلاً عدد ضحايا الانهماك في المسكرات والشهوات البهيمية بين الشباب المسلم نتيجة تربية تتمسك بفلسفة أخلاقية رخوة .

البَابُ الثَالِث

التربية والتعليم والثقافة في إطار الإسلام

الفصل الأول

التربية الاسلامية

لا بد للباحث المسلم ان يفرق تفرقة واضحة عميقة بين التربية والتعليم والثقافة . حيث تختلط هذه القيم في مفاهيم التربية الغربية وتتداخل كثيراً ولا سيا ذلك التداخل المبهم بين التربية والتعليم .

فالفهم الإسلامي للتربية أنها الإعداد الروحي والنفسي للفرد بحيث يكون مؤهلا لتلقي التعليم والثقافة على نحو موجه فيأخذ ما هو أساسي وبناء وما هو بسبيل ان يمده بالقدرة على أداء رسالته في الحياة والمجتمع ، هذه الرسالة الجامعة بين هدفي الدنيا والآخرة ، من حيث البناء والعمل والسعي الى آفاق التقدم ، دون ان يكون ذلك على حساب القيم الخلقية أو المسؤولية الفردية بل لحسابها ودعماً لها .

فليس من مفهوم الاسلام ان يكون العلم للعلم منفصلاً من غير غاية ، ولا ان يكون العلم للدنيا وحدها ، ولا ان يكون للآخرة وحدها انفصالاً عن الدنيا والسعي فيها . فالمسلم يسعى في الحياة من أجل العمل والكسب ليقيم المجتمع الاسلامي القوي بالعزة والتمكن والكرامة ثم يجعل هذا المجتمع القوي

الكريم خادماً للغايات الإنسانية العليا التي تجمع بين الإخاء البشري والطابع الاخلاقي ومرضاة الله والتي تتوقف عن معارضة حدود الله أو تجاوز ضوابطه.

في هذا الضوء يكون الهدف الاول والأساسي من التربية هو :

« بناء شخصية المسلم »

الذي سيبني المجتمع الاسلامي القوي الكريم القـادر على مواجهة أخطار أعداء الإسلام ، والعامـل على نشر كلمة الله في الارض ، فالشخصية المسلمة لها رسالة وعليها تبعة وهي تحمـل التزامين أساسيين : الإرادة الحرة القادرة ذات المسؤولية الفردية والجزاء الاخروي ، والالـتزام الاخلاقي الذي يطبع كل التصرفات في كل الميـادين والقطاعات والقيم ؛ وهو التزام قائم بالنسبة للسياسة والاجتماع والاقتصاد والقانون والتربية جميعاً .

ومن شأن الإسلام وهو دين جـامع بين العقيدة والشريعة ، وبين العبادة وبناء المجتمع ان يحول دون قيام الازدواج الذي يعرفه الغرب في صور مختلفة :

الثقافة الدينية — والثقافة العلمية .

الثقاقة الادبية — والثقافة العقلية .

أو بين الإلهي والبشري .

فهو يجمع بين هذه جميعاً ويوازن ، ولا يفصل بعضها عن بعض إيماناً بأن الإنسان نفسه جامع بين المادة والروح ، والعقل والقلب ، ومطامح الدنيـا وأشواق الآخرة .

ومن أجل هـذا فإن منهج التربية في الإسلام منهج متكامل يعنى بتربية الجسم والروح والعقل حتى لا تطغى ناحيـة من النواحي على الاخرى وبذلك ينشأ المسلم سوياً قوي الصلة بالله محققاً لرسالته في الحياة .

ومن أجل تكامل النظرة الإسلامية الى الحياة والوجود والمجتمع ، جمعت

التربية الاسلامية بين تأديب النفس وتصفية الروح وتثقيف العقل وتقوية الجسم ، فهي تعنى بالتربية الدينية والخلقية والصحية والجسمية دون إعلاء لأيّ نوع منها على حساب النوع الآخر [1] .

وقد لفت هذا المعنى نظر البعض من حيث المقارنة فقال : إن التربية الاسلامية تعمل على إعداد الإنسان لا المواطن ، الإنسان المستخلف في الارض على مفهوم وحدة الدين ووحدة الجنس وتوحيد الله .

وحين تأخذ التربية الاسلامية «الفرد» ككل تعده بألوان مختلفة من الإعداد : بالمحاكاة بالقدوة ، والموعظة ، وبالعادة ، والتوجيه .

وهي حين تبدأ معه تعمل على ان تصله بالله سبحانه وتعالى ، وتحسن هذه الصلة وتعمقها في ضوء التوحيد ، فإذا ثبت في أعماقه ان الله سبحانه وحده هو الذي يعطي ويمنع ويضر وينفع ارتفع (الفرد) عن طبيعة الإذلال لأي من البشر ، واستطاع ان ينظر الى الحياة نظرة أكثر عمقاً وأكثر قدرة على الاقتحام وقول كلمة الله دون ان يخشى في الله لومة لائم ، ولم تجد وسائل الإغراء الى قلبه سبيلاً إيماناً منه بأن الله يرزقه ، وان الطريق الحق لا يقطع هذا الرزق مهما تألب عليه فيه الخصوم أو الأعداء .

وحين تركز التربية الاسلامية على بناء الأخلاق بعد بناء عقيدة التوحيد إنما تعمل على تمكين «الفرد» من مقاومة المغريات فلا يضحي شرفه أو عرضه في سبيل أي مطمع ، ذلك ان محك تربية الأخلاق هي الارتفاع بالنفس عن المطمع والهوى .

ولا ريب ان لتربية العقيدة والأخلاق أثرها العميق فيتكوين الشخصية ، فالغرائز قائمة في النفوس تعدل نفسها وتضبط اتجاهاتها وفق ما تدعوها اليه

---

(١) احمد فؤاد الاهواني .

العقيدة وحسب مـا توجهها اليه من سمو وكال ، والخطر هو في تركها دون توجيـــه وضبط ، والخوف الأكبر هو في إطلاقها على النحو الذي تدعو اليه التربية الحديثة في مفاهيم : ديوي وفرويد .

والإسلام في مجال الغريزة يأخذ بالضبط لا بالإطلاق، وبالتبريد لا بالإثارة.

والاسلام يعترف بالغرائز وغاياتها، ولكنه لا يطلقها ، ويدعو الى ضبطها والسير بها في نطاق « التقوى » والخوف من الله والجزاء فلا تكون قوة ضـد الخير أو الحق ، ولا تتجاوز الحدود التي أقامها الدين الحق في سبيل حمـــاية الإنسان نفسه أولاً من أخطار التمزق والانهيار .

وكيفما يكن أثر الوراثـــة أو أثر البيئة في تشكيل الانسان فان التربية الإسلامية من شأنها ان تعيـد تشكيل الفرد بحيث يقوم من أخطاء النفس أو تجاوزاتها .

ويرجع الاسلام الأخطاء كلهـــا والأخطار كلها الى ضعف العقيدة الدينية وتراخي مفهوم التقوى والمسؤولية رالجزاء .

ومن هنا يوجه الإسلام الفرد منـذ الطفولة الباكرة الى فهم هذه الحقائق من الايمان بالله الى المسؤولية الفردية الى الالتزام الاخلاقي الى الجزاء الاخروي ليستطيع تحمل مسؤوليته في الحياة .

ولا ريب ان التربية الإسلامية في أسسها تقوم على الفطرة وتنمي القدرة على التفرقة بين الخير والشر والحق والباطل بحيث يستطيع الانسان ان يهتدي الى ذلك دون توجيه خارجي :

«الاثم ما حاك في النفس وكرهت ان يطلع عليه الناس» .

فالتربية الاسلامية هي تهذيب الشخصية وتزويدها بكل ما يمكن قواها الفكرية والبدنية من تحمل مسؤولية السعي والعمل والنضال .

وهي تعنى بقوة البدن وقوة الروح معاً متصلين لا منفصلين .

(٢)

أول ما تعنى به التربية الاسلامية هي تجلية نظرة الاسلام الى الانسان .

فالاسـلام ينظر الى الانسان نظرة تكريم وتفضيل ، فقـد أوتي أمانة الاستخلاف في الارض ، ووضعت كل معطيات الحياة وخيراتها له ليقوم عليها وينشىء بها المجتمع الرباني المصـدر الإنساني الطابع بالإخاء والعدل والعمل الصالح .

والاسلام ينظر الى الانسان نظرة متكاملة جامعة (روحه وجسمه وغرائزه وعقله) وكلها قوى متلاقية ، وقد اعترف بميوله وغرائزه وأشواقه ، وأباح له حرية الممارسة لكل ما يرغب فيه وفق إطارات تنظم حركته وضوابط تحول بينه وبين التمزق أو الانهيار وفي ضوء الفهم الكامل للحقائق الأخلاقية الثابتة التي لا تتغير : الخير والشر ، الحـلال والحرام ، الفضائل والرذائل ، المباح والممنوع .

وقد انشأ الله الإنسان من تراب الارض ونفخ فيه من روحه ، فهو جامع بـين مادية الارض وأشواق الروح ومترجح بينهما فلا يستطيع ان يشعر بالطمأنينة النفسية إلا إذا وازن بينهما ، فإذا انحرف الى أحداهما عاش حياة الاضطراب والتمزق .

وعلى ضوء طبيعة الإنسان الجامعة بين المادة والروح صاغ الاسلام منهجه

التربوي الجامع المتكامل الذي يختلف بالطبع اختلافاً جذرياً عن مناهج التربية المختلفة سواء الغربية منها أو الشرقية المرتبطة منها بالمفهوم المادي الخالص أو الروحي الصرف .

لقد أعلن القرآن ان النفس الإنسانية قد ألهمت الفجور والتقوى فأوجب تزكيتها بالتربية على النحو الذي يهذبها ويربيها ويجعلها سوية صالحة ، وجعل هذه التزكية بالتربية أمـــانة في أعناق الوالدين والمدرسين والمسؤولين عن الأجيال .

وأقام هذه التزكية على أساس إنساني في الأساس لا يعرف فوارق الوطن أو اللغة أو الجنس أو العقيدة : كل بني آدم من تراب .

وجعــل أساس التزكية التهذيب لا الكبت ، فالإسلام يعترف بالطاقات الحيوية في الانسان ولا يعطلها عن الممارسة ولا يلغيها ، ولكنه ينظم عملها بما يحقق الخير والايجابية ويؤدي الى إقامــة المجتمع الصالح من غير عدوان من إنسان على حق إنسان .

وهو في ذلك يجمع بين ضرورات الجسد وأشواق الروح ويعطي كلاً منها نصيبه المعقول ويقيم المراوحة بين ذلك ضوابط وحدوداً .

ومن هنا لا تنشأ لدى المسلم تلك التحديات التي تصيب شخصيته بالاضطراب سواء عن طريق الكبت والانغلاق أم الاندفاع والانطلاق وكلاهما مرت بـه المجتمعات الغربية .

ومن هنا تستهدف التربية الاسلامية بناء شخصية الفرد السويّ القادر على احتمال أمـانة الإنسان المستخلف في الارض بالحق ، والقادر على التعرف على الخير والشر والعامل في سبيل إقامة المجتمع الرباني المصدر الإنساني الطابع ، ليس المجتمع الإقليمي المنغلق ، ولا المجتمع الأممي المنفتح ، هذا الفرد المسلم هو القادر على تزكيــة النفس وضبط الغرائز ، والمسؤول بالإرادة الحرة عن نتائج عمله وهذا الهدف الذي دعت اليــه التربية الإسلامية من بناء الشخصية

هو العامل الوحيد القادر على الحفاظ على القيم والعقائد والارض بالمرابطة في الثغور ، والوقوف على خطوط المواجهة دوماً ، وجيلا بعـــد جيل ، يحمي أرض الاسلام ، ويدافع عن كيان الأمة ، ويحمل رسالتها للعالمين .

ولقد كان الغرب الاستعماري يعرف ذلك ، وقد واجهه مواجهة صريحة في الحروب الصليبية ، ورأى لويس التـاسع كيف كان الاسلام قادراً على ان يملأ هذه النفوس بالقوة والعزيـة وبالعتاد القليل استطاع المسلمون ان يهزموا اعلى الجيوش .

ومن هنا نبتت عنـده تلك الفكرة الخبيثة الماكرة التي كتبها في وصيته والتي أصبحت من بعد نبراساً للغزو الغربي : وهي القضاء على هذه القوة ومحو تلك الشخصية وإزالة ذلك الانسان وإحـــلال بديل منه شخصية مضطربة ممزقة ، تحب الترف وتهوى إطلاقات الأهواء والجنس والغرائز ، وكذلك عملت الإرساليات التبشيرية على بناء هذه الاجيال التي واجهت الهزيمة والنكسة سنوات بعد سنوات ، دون ان يدفعها ذلك الى التنبه الى مصدر الخطر :

ذلك الخنجر المغروس في أحشائها : خنجر التربية الوافدة .

إننا نستطيع ان نستفيد من تجارب كل الأمم في التربية والتعليم والثقافة ولتكن : على شريطة ان نبني أساس التربية الاسلامية اولاً ثم نقبل في ضوئه أو نرفض ولتكن قاعدتنا هي :

« خذ ما صفا ودع ما كدر » .

« إن التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ستفضي حتماً الى زعزعة إرادتهم في ان يعتقدوا أو ان ينظروا الى أنفسهم على أنهم هم ممثلو الحضـارة الربانية التي جاء بها الاسلام .

(٣)

إن التربية في مفهوم الاسلام هي إنشاء الانسان إنشاء مستمراً من الولادة حتى الوفاة. هذا على الامتداد الأفقي ، أما الامتداد الرأسي فهي تربية كاملة متوازنة : عقلية بالمعرفة ، وجسمانية بالرياضة ونفسية بالإيمان .

وهي جامعة من حيث إنها حين تغرس القيم الخلقية والاجتماعية التي تحمي الانسان من أخطار الاضطراب والتمزق، تربي في الانسان الإرادة الحقة، حباً للناس ، وإيثاراً وبعداً عن الأنانية وتجنباً للرذائل .

فالتربية الاسلامية في طبيعتها إيجابية بناءة ، تقوم على مدافعة الاخطار لا الإستسلام ، وتستهدف المقاومة لكل محاولات هدم الشخصية لا التراخي والاباحية .

ولقد كانت التربية الغربية المسيحية لأنها تستمد مصادرها من دين، تحاول بناء الشخصية ولكنها ضلت الطريق مرتين :

المرة الأولى حين انحرفت عن رسالة الدين الحق ، فأعلت من شأن قيم لم يأذن بها الدين ، وهي معارضة غرائز الجنس أو التقليل من شأن المسؤولية الفردية والجزاء الأخروي تأثراً بنظريات الحلول والاتحاد .

المرة الثانية حين سيطرت عليها الأيدلوجية التلمودية فدفعت المجتمع الغربي الى التفريط والانطلاق ، وكان ذلك بطبيعته هو رد فعل المرحلة الاولى التي قامت على الانغلاق والكبت .

أما الاسلام فإنه يعترف بالغرائز ويدعو الى ممارستها في اعتدال، ووفق ضوابط وحدود تحول دون الانحراف أو الجمود ، ولذلك فقد حال ذلك دون وقوع المجتمعات الاسلامية في أخطار الاضطراب النفسي الذي تعانيه المجتمعات الغربية .

(٤)

لم يقع فهم التربية الاسلامية في محاذير التربية المسيحية الغربية التي كانت تستهدف إعداد الفرد للآخرة ، وذلـك بالقسوة عليه في مجال الجنس والمال بما تدفعه الى تطليق الحيـاة والهروب منها والعيش في الأديرة . وفق فلسفة تقول :

« العمل على نيل رضا الله بإذلال النفس وتعذيب الروح » .

ولقد كان هذا الهدف مما اطلق عليه النظرية الطبيعية للتربية من العوامل التي دفعت المفكرين الغربيين الى تجاوز الجانب الديني في التربية كلية ، أول الأمر، الى الدعوة للأخلاق منفصلة عن الدين كما حملت لواءه الفلسفة المثالية، ثم جاءت المرحلة التاليـة التي تهاوت فيها قيم الدين والاخلاق جميعاً بظهور الفلسفات المادية والبرجماتزمية .

هذه المحاذير لم يعرفها منهج التربية الاسلامية حتى يقال إن الذين يدعون الى منهج التربية الغربية إنمـا يريدون ان يحررونا من مثل هذا الخطر ، فلم يكن الاسلام في يوم من الايام دعوة الى رضــا الله بإذلال النفس وتعذيب الروح ، فقد دعانا الحق تبارك وتعالى الى السعي في الارض :

(فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) .

وهو الذي دعانا الى التماس نعماء الحياة (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) بـــل انه الحق تبارك وتعالى حمل على الذين يعرضون عن نعم الحياة (لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) .

فلقد دعا الاسلام الى العمل والسعي والكسب وأقـام ذلك كله في إطار الحلّ والخير والتقوى .

(٥)

حين يفتح الاسلام للتربيــة الاسلامية مجال « التكامل » والنظرة الجامعة يحرر الانسان من ذلك التمزق والاضطراب الذي تفرضه المناهج الغربية التي تتناول الكائن البشري تناولاً مجزءاً متقطعاً ، فرجال التربية يعالجونه بعيداً عن رجال الاخلاق ، ورجـــال الدين يعالجونه روحياً ويغفلون عن جوانبه الاخرى ، والماديون ينظرون اليـــه نظرتهم الى الحيوان ، والبعض يحاكمه بفلسفة المحسوس فيسقط مـــا لا تدركه الحواس ، والبعض يحاكمه على أساس العقل فيغلق جانب الوجدان والروح ، أما الاسلام فإنه يعالج الكائن البشري ككل متكامل .

ولذلك فإن أبرز ما يتميز به منهج التربية الاسلامية هو : وحدة الاتجاه وتكامل النظرة ، استمراراً من الفطرة ، والتقاء بالروح والعقل جميعاً .

فمنهج التربية الاسلامية وحـده هو الذي يصل الانسان بخالقه ، ويصله بالارض ، ويصله بالانسان والمجتمع والحيـاة ، فلا يدعه يترك الحياة والارض ولا يدعه يتهالك عليها ، وهو حين يدعوه الى عبادة الله يؤمن بأن العبادة لا تمنع من الضرب في الارض وعمارتها ، ومعنى العبادة ان يكون أخلاقياً في كل عمله ربانياً في كل اتجاهه ومن هنا تكون تربية الروح والعقل والنفس والجسم.

« فتربية الروح » تفتح بصيرة الانسان على آيات الله في الكون فيستشعر

من ورائها القـــدرة القادرة الخلاقة المبدعة ، لتوقظ النفس من غفوتها وتجدد اللقاء بين ظاهر الانسان وباطنه : من داخل النفس وفي صفحة الكون، حيث يقرأ كتاب الله الناطق (القرآن) وكتابه الصامت (الطبيعة) .

والعبادة وسيلة بناء الروح والتقوى هي قاعدة البناء كله و «تربية العقل» بالعلم ، والعلم هو كل العلم ، وليس العلم الديني فحسب ، وبذلك تنمو العلاقة بين العقل والروح، وتتجه مادة العلم في الاسلام الى الخير والى الرحمة وتكون خالصة للبشر جميعاً .

وإذا كان الانسان قد كشف أسرار العلم فإن معرفته بهذه المفاتيح والسنن لا تغنيه عن معرفة الله تبارك وتعالى الذي فتح له هذه الآفاق ، وهو القائم من وراء كل هذه القوى والسنن مدبر لها وصانع وخالق من العدم .

فلا تنفصل العلوم عن مصدر العلم ، ولا تتجه العلوم الى الطغيان والظلم والإبادة ، بل تتجه الى ما وجهه اليها خالقها : الرحمة بالانسانية وإسعادها .

«وتربية النفس»: تكون بالزكاة والصدقة والبذل والصوم والكلمة الطيبة وتكون بالاستعلاء على السوء والظلم والحرام ، وبالتضحية والتنازل الى الفقير والى الجماعة . وقد حرص الاسلام على تربية القوة الضابطة في المسلم وتنميتها منذالصغر، وأبرزها الصبر وأداته الصوم حتىيكون المسلم قادراً على الامتناع عن كثير من اللذات والرغبات المباحة ، فتحقق بذلك إرادته وقوة ذاته .

« وتربية الجسم » : تكون ببناء الجسم القادر على الجهاد ، القوي الصامد في الشدائد ، الخشن المفطوم منالشهوات، بعيداً عن القمع والكبت. والاسلام يقرر ان المسلم لكي يستطيع أداء وظيفته وتحمل مسؤولياته يجب ان يكون قوي الحواس . ولذلك كان المؤمن القوي خـــيراً وأحبّ الى الله من المؤمن الضعيف . وقد دعـــا الاسلام المسلم الى بناء جسمه بالسباحة والمصـــارعة والفروسية ، وان يتعود الخشونة ولا يستسلم للترف : « اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم » .

(٦)

تبدأ التربية الاسلامية في البيت عن طريق المحاكاة والقدوة والتلقين ، ذلك ان الطفل ينشأ فيعمل مـا يعمله أبواه ، فإذا كانا يقيمان الصلاة ويقرآن القرآن فعل مثلهما وانطبعت في ذهنه تلك الصورة وتأثر بها مدى الحياة .

وقد حرص الاسلام على العناية بالطفـل قبل ان يولد بإعداد الإطار الذي يتحرك فيه، فدعا الرجل الى اختيار الزوجة الصالحة، وفضل اختيار الزوجة ذات الدين على ذات الجمال والمـال والنسب والحسب ، لأنها هي القادرة على حمل المسؤولية .

وفرض على الأبوين حق تسمية ابنهما وحسن رعايته منـذ اللحظة الاولى بأن يكون أول ما يسمعه هو اسم الله تبارك وتعالى .

وقد أعلن الإسلام ان كل مولود يولد على الفطرة ثم يوجهـه أبواه الوجهة التي يختارانها له . ومن هنـا كانت مسؤولية الآباء نحو الأبناء وهي مسؤولية أساسية :

(فالرجل في بيته راع وهو مسؤول عن رعيته والأم في بيتها راعية وهي مسؤولة عن رعيتهـا) وإن الآباء مسؤولون عن فساد أبنائهم واخطائهم ،

وعليهم في ذلك عقوبة التقصير وعـــدم بذل الجهد في تنمية هذه الثمرة على الوجه الأحسن .

والطفل (١) أمانة عند والديه وقلبـه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة يجب حمايتها ويجب (٢) البـــدء بتهذيبه منـذ فطامه لئلا تثبت في نفسه الأخلاق الذميمة فيصعب بعـد ذلك نزعها من نفسه ، وليكن تهذيب الولد بالحمد مرة وبالتوبيخ اخرى وبالإيناس مرة وبالإيحاش مرة ثانيـــة ، وإن الطفل (٣) المستحي لا ينبغي ان يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه ، ولا يؤخذ الطفل بأول هفوة بل يتغافل عنه ولا يهتك ستره ، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه .

ويقول الامام الغزالي : إن الطفـل يأتي الى الحياة ونفسه صحيفة بيضاء خالية من كل نقش وتصوير وإن المربي أباً ومعلماً هو الذي ينقش على هـــذه الصحيفة ما يشاء من خـير وشر ، والصبي قابل لكل ما ينقش عليه ومائل الى كل ما يمال به اليه ويجب تعويده الاخشيشان في المأكل والملبس ، ويحبب اليه القصد في المطعم والقناعة بالخشونة ، ويستعان في تأديب الصبي بحيائه ، فالحياء بشارة من الله تعالى تدل على اعتدال الخلق وصفاء القلب ، والرياضة البدنية تقوي جسم الطفل .

وليعود مكارم الاخلاق ويجنب سيئها ويمنع من لغو الكلام وفاحشه ويمنع من قرناء السوء ويقتصد في التعنيف عند وقوع الذنب لأن كثرة العتاب تهون عليه سماع الملامة وتخفف وقع الكلام في نفسه .

---

(١) الغزالي .

(٢) ابن سينا .

(٣) الغزالي .

وفي سن التمييز لا يسمح له بترك الصلاة والطهارة ولا يؤخذ الغلمان بطريقة واحدة ، بل يختلف علاجهم باختلاف أمزجتهم وطباعهم وأسنانهم وبيئاتهم .

ولقد دعا المربون المسلمون الى اتخاذ قاعدة القدوة والمحاكاة أساساً للتربية :

«فالاطفال يأخذون بالتقليد والمحاكاة أكثر مما يأخذون بالنصح والارشاد قال عيينة بن أبي سفيان لمعلم ولده : ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك فإن عيونهم معقودة عليك فالحسن عندهم ما صنعت والقبيح عندهم ما تركت » .

(٧)

أعلنت أصول التربيـة الاسلامية حقيقة خالدة : إن العلم لا يكفي ولا ينفع بدون الاخلاق ولذلك فإن الخطوة الاولى للتعليم والثقافة هي «التربية».

وكل تربية لا ترقى الى ترقيـة الخلق السامي وتقويته ليست جديرة بأن تسمى بهذا الاسم ، والاخـلاق ليست كلمات تلقن تلقيناً ولا عبارات تعرف مباشرة من الكتاب . فالعلم وحده لا يغني بدون الاخلاق، والتربية الخلقية هي في الواقع تربية اجتماعية، ويجب ألا ينظر الى الخلق وكأنه شيء شخصي محض لا يهم سوى صاحبه ، وإنمـا ينبغي ان ينظر اليه من الناحية التربوية الاجتماعية اكثر من النظر اليه من الجهة الفردية .

ولا ريب ان مسؤولية الآباء والأمهات بالغـة في تنشئة الطفل وفي الآثار المترتبة على ذلك في مستقبل حياته كـله . وقد دعا الاسلام الآباء الى ان يختاروا لأبنائهم اسماء جميلة ، فالاسم الجميل بعيد الأثر في نفسية الطفل، وعلى الآباء اختيار مرضعـة الطفل بحيث لا تكون مشوهة نفسياً أو ضعيفة عقلياً « فاللبن يعدي » والخطر ان تنقل صفات المرأة وخصائصها العقلية والنفسية الى الولد . وإن النبي نهى عن استخدام «الظئر» المجنونة وعلى الطفـل ان يرضع ما أمكن من لبن أمه ، وعلى الأم ان تمـارس حنانها ورعايتها للطفل في السنوات الأولى ما أمكن فإن محاذير الانصراف عن ذلك لا حد لهـا .

ولقد أشار المربون المدون الى ذلك منذ ألف عام ويزيد فدعوا الى ان يرضع الطفل من لبن أمه ما أمكن فإنه أشبه الأغذية بجوهر ما سلف من غذائه وهو في الرحم، وقد كشف العلم الحديث عن هذه الحقائق اليوم وبين مدى خطر الرضاعة الصناعية وانصراف الأم الى تربية أبنائها عن طريق دور الحضانة وخطر ذلك على مستقبل الأبناء .

كذلك دعا الاسلام الى تعليم الأطفال الرياضة وهي في عود طري ليكون قادراً على الحركة السريعة والنشاط ، وفي الوقت الذي دعا فيه الى التكوين الخلقي في سن باكرة ، واستعمال الوسائل المختلفة من الترهيب والترغيب ، دعا الى خلق جو من الإيناس حول الطفل ، حتى يشعر بالطمأنينة والأنس والبهجة ، ولقد أولى المربون المسلمون ذلك غاية الاهتمام حتى قال قائلهم : إن أبرز مميزات التربية الاسلامية عنايتها بالنص على الرفق في معاملة الأطفال وعلاج زلاتهم .

أما الأم فقد حملت التربية الاسلامية لها مسؤولية كبرى وأمانة عظمى.

فقد حرص الاسلام على إعداد الأم : بوصفها المدرسة التي ستبني الأجيال الجديدة نفسها ، ولذلك أعدّ لها تربية خاصة منفصلة عن تربية الرجل وفقاً لتكوينها ولرسالتها ولمسؤوليتها . ودعا الى بناء فكر المرأة على أساس فهمها لوظيفتها في الحياة أساساً ومسؤوليتها على تنشئة الأجيال وإعداد مناهج الدراسة لها على هذا النحو مع الايمان بحقها الكامل في المساواة التامة التي لا تتنافى مع قوامة الرجل .

ولقد كانت التربية الاسلامية للمرأة عامل قوة ودافع حماية لها من أخطار المجتمعات الفاسدة وأهواء الرجال ومطامعهم ووفقاً لرسالتها الأساسية في بناء الأسرة ورعاية الرجل وتربية الأبناء .

ومن هنا فقد ركزت التربية الاسلامية في مجال الأسرة وفي إطار القدوة،

وفي هذا يقول الكسس كاريل في كتابه الانسان ذلك المجهول :

« لقد ارتكب المجتمع العصري غلطة جسيمة باستبدال تدريب الأسرة بالمدرسة استبدالاً تاماً ، ولهـذا تترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة حتى يستطعن الانصراف الى أعمالهن ومطامعهن الاجتماعية . انهن مسؤولات عن اختفاء وحدة الأسرة واجتماعاتها التي يتصل فيها الطفل بالكبار فيتعلم منهم أموراً كثيرة لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجي والعقلي والعاطفي طبقاً للقوالب الموجودة في محيطه » .

ولقد عاشت الأم المسلمة تربي أولادها وتنشئهم على أغاني الكرم والقوة والشجاعة ترويها لهم في قصص التاريخ وفي نماذج الرجال .

وحين دعا الاسلام الى ان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة كان يستهدف مسؤولية الأم التي يجب ان تعلم القرآن والسنة وتاريخ الاسلام .

والتي كانت تربى تربية خاصة منفصلة عن تربية الذكور .

وكان يحرم عليها الشعر الفاحش والكلام المقذع . وكانت توجه من نافذة أنها أم الاطفال وعون الزوج وراعية البيت .

(٨)

وفي محيط الأسرة المسلمة تتكون الثمرة الطيبة :

فالرجـل والمرأة يعملان معاً في سبيل بناء الفرد المسلم العابد ، المتحرر من كل التحديات الضاغطة ، فيكون الأب للابن قدوة والأم للبنت نموذجاً طيباً ولا ينسى الأبوان لحظـــة أنهما موجهان ومرشدان وان أي تصرف لهما سيؤثر في هذا النتاج إيجاباً وسلباً .

ومن أهم ما يجب ان يتحرر منه الطفل [١] وجدانياً وعملياً وواقعياً :

الحرمان والخوف والجهـل . فالجاهلية تعمل على تعميق الخوف في نفس الانسان وتجعله شاملاً وعاماً ، تجعله يخاف مما يحيط الانسان سواء كان مادياً أو معنوياً ، فلا ينظر الى الحياة إلا نظرة خوف من المصير والموت والمجهول وخوف من الجوع والفقر وخوف من المسؤولية .

فالتربية الاسلامية تستهدف تحرير الانسان المسلم من الخوف : فلا يخاف إلا الله وحده ، اطمئناناً الى ان صلته بالله تحميه من كل الاخطار .

وكذلك «التحرر من الجهل» وذلك بعدم إدخال الخرافات والاعتقادات

---

(١) من بحث للاستاذ محمد العربي الناصري .

الفاسدة الى عقل الطفل فتبعده عن الرؤية الحقيقية للكون والحيـــاة كلما نما وكبر ، ويتحقق ذلك بتكوين التصور الإسلامي للكون والحياة والانسان .

وكذلك تقويم الطفـــل على الفطرة : ومعناه تحرير نفسيته من الرواسب الدنيوية لتنشأ وتنمو قوى نفسه وهو مستعلي الهمة خـــال من العقد موجه توجيهاً يهيئه لخلافة الله في الارض .

ويرى المربون المسلمون ان النمو يمتد في ثلاثة ابعاد : النمو النفسي والنمو الجسمي والنمو الروحي ، وإن هـذا النمو الأخير هو أوسع وأكبر يقوم على أساس التقوى أي الاتصال بالله في الرجاء والخوف وكلما نما هذا المحور وترعرع في نفس الانسان ارتقى روحياً من الاسلام الى الايمان الى الاحسان .

والإحسان هو ان تعبـــد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وأساس هذه التربية التي تجعل الناشىء المسلم قوياً محصناً إزاء موجات التحلل والتمزق هو الصلاة تبدأ في السابعة ويضرب عليها في العاشرة فتصبح جزءاً لا يتجزأ من حيـاته فتنهاه عن الفحشاء والمنكر وتصبح بينه وبين الله باباً ، فإذا حزبه أمر لجأ الى الصلاة .

وبذلك تتحقق الغاية المثلى من التربية الاسلامية وهي تحرير المسلم من الذل والخوف ووساطة الوسطاء وشفاعة الشفعاء .

فالعمل كله موجـه الى الله لا يطلب به هوى خاص ولا مطمع فردي ، والأمور كلها خالصة لله فلا خوف من التحديات ولا الاسواء .

فإذا كان الأفراد كذلك فإن الأسرة تقوم على دعائم ثابتة والمجتمع مجموعة الافراد المؤمنين والاسرة الثابتة .

ولقد حث الاسلام على الزواج من أجل بناء الاسرة دعامة المجتمع ، ومن أجل التحرر من أهواء الجنس وموجات الإباحية .

ويؤكد الاسلام تكوين الاسرة وبناءها (جعل لكم من أنفسكم أزواجاً) .

والزواج ليس شركة مادية ، ولكنه تمازج روح بروح ، وقيام مودة ورحمة ، والاسلام حين يحث على الزواج ينهى عن العزوبة لأنهـــا تحلل من المسؤولية وهروب من تبعة بناء الاسرة. وقد دعا الى حسن اختيار الزوجة حتى تكون الاسرة مستقرة منيعة ، وحصر أفضل النماذج في صاحبة الدين، ودعا الرسول الى تزويج من ترضون دينه وخلقه حتى لا تكون فتنة في الارض وفساد كبير ، فالطابع الديني في المرأة (دون المال والجمال والحسن والنسب) هو الدعامة التي تحطم كلها كل أخطار الاسرة وأزماتها .

ولقد وضعت الشريعة الاسلامية لهذه العلاقة أسساً وضوابط حتى لا تخضع لأهواء الرجال، ثم جعل للطفل من بعد ذلك نظاماً كاملاً في الرضاعة والحضانة والنفقة والتربية حتى لا يجري الامر وفق رغبات متماوجة ، وقد شرع هذه القوانين والنظم لحماية الطفل حتى يبلغ سن الرشد .

فالتربية القائمة على أساس معرفـة الله وتقواه هي التي تهيء النشء المسلم لحمل رسالته ومسؤوليته . كذلك فقد جعل الاسلام للأبوين بعد ذلك حقوقاً قبل الأبناء وجعل العقوق من أكبر الكبائر .

(٩)

في ضوء مفهوم التربيـــة الاسلامية نرى مجتمعنا الحاضر الذي اعتمد على أساليب التربية الغربية الوافدة مضطرباً غاية الاضطراب في حاجة الى تصحيح كثير والى إعـــادة النظر في أساليبه ووسائله ، فقد ضعفت مسؤولية الآباء والأمهات وتراخت ، وحـــل التهاون محل الحزم عجزاً من الآباء عن تقدير تبعتهم الخطيرة حتى بدأ الأب منكوراً من أبنائه وليس موضع ثقتهم فهم لا يستمعون اليه لأنه هو نفسه ليس نموذجـاً صالحاً ، فالآباء يغيبون عن أسرهم ولا يتابعون أحوال أبنائهم ويتركونهم ومعهم أسئلتهم الحرجة ليتلقوا الاجابة عنها من الصحف أو من دعاة الانحلال .

والأم تقضي أغلب أوقاتها خـــارج البيت مع صديقاتها في مواطن اللهو واللعب، وقد تحولت البيوت الى فنادق. وأصبحت أفلام السينما والمسرحيات هي التي تعطي مفاهيم الاجتماع وعلاقات الرجـل والمرأة ، والآباء يتركون أبناءهم وبناتهم بغير رقابة من حيث اختيار أصدقائهم ورفقائهم، وقد استهانوا بالصغائر وعجزوا عن فهم علاقـــة الملابس والزينة بتكوين رجولة الرجل وأنوثة الانثى .

ولقد عجزت التربيـة الحديثة عن تحقيق بنـاء الفرد المسلم والفتاة المسلمة والاسرة المسلمة وذلك حين جردتها من مفهوم التربية الاسلامية الكامل الذي

رسمه لها القرآن مترابطاً في مصادره الثلاثة : (تربية الجسم والروح والعقل) بما يحقق التوازن والتكامل بين العناصر الثلاثة التي تكون في مجموعها الشخصية الانسانية ، وذلك حتى لا تطغى ناحية من هـــذه النواحي بالاستعلاء فتفقد النواحي الاخرى حاجتها ، وبذلك يحدث «التمزق» الذي هو اخطر آفات انعدام التكامل الانساني ومصدر كل الأزمات التي تواجهها البشرية حين أعلت من شأن العقل أو الجسم وتجاهلت تكامل العناصر وترابطها .

ذلك ان التربية الحديثة التي استشرى منهجها في المدرسة الاسلامية حرمت الشباب المسلم من عنصري الايمان والخلق وحاولت ان تدفعه في طريقه مجرداً منها مستهيناً بها عاجزاً عن استيعاب الآثار البعيدة المدى لممارستها .

كذلك كان لهـا خطرها حين عجزت ان تفصل بين الرجولة والانوثة في فهم وجهة الحياة وهدفها ، وفي الزي والملبس والزينة .

كذلك كان إطلاق التربية من الضوابط وتجاهـــل الموازنة بين الترهيب والترغيب بعيـد الأثر في حرمان الشباب المسلم المعاصر من تكامل الشخصية ومن الحـذر من الوقوع في الاخطار التي من شأنها ان تدمر الشخصية وتهدمها وتعرض الشباب الى التمزق والانحلال .

كذلك عجزت التربيـة الحديثة عن ان تقدم للانسان المسلم أساليب الرجولة والقوة وبناء مفهوم المروءة والاريحية ، فلم تجد الشباب الحدث يخف الى عون الضعيف أو الفقير أو العـاجز أو يستشعر في نفسه ذلك الحنان أو الشوق أو الخوف ، ولقد نجد في مناهج التربية الحديثة الرياضية وكنا لا نجد لها هدفاً واضحاً مستمراً من غرضها الحقيقي ، فهي تجري كعملية بناء للجسد دون ان تكون مكملة لنمو العقل أو الروح بحسبان أنها جميعاً تتكامل في بناء الانسان . وفي الاسلام إنمـــا تكون الرياضة موجهة الى بناء شخصية الرجل القادر على الجهاد وعلى المساهمة في الاعمال الجادة وتكون الوجهة فيها خالصة لله أساساً .

كذلك عجزت التربية الحديثة ان تمنح المسلم الشاب فهم الدور الحقيقي للانسان في الحياة: رسالة ومسؤولية وإرادة حرة وجزاء أخروياً، إن وجهة الانسان المسلم هو الله وهدفه هو الحق وغايته هي الخـــير وتحددت وجهته خالصة واضحة :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً »
وأبرز ما تحاول التربيـة الحديثة تجاوزه والإغضاء عنه الدعامة الاخلاقية في التربية ، وهي تمثل اساساً هاماً ، فقد جعل الاسلام من الاخلاق قاعدة البناء كله والقاسم المشترك على مختلف القيم ، وجعل أساس الاخلاق (التقوى) وهي قمة الدين والمجاهدة وهي رأس الامر كله بمعنى مقاومة تيارات الاهواء والمطامع والرغبات المذلة والقـــدرة على مواجهة الاحداث والازمات بصبر وطمأنينة وصمود وذلك في مواجهة الاخطار التي تحيط بالمسلمين دومـــاً وفي كل عصر وحتى يكونوا قادرين على حمـاية كيانهم ووجودهم من الغزو والانهيار . ولقد ربط الاسلام بين المنهج والتطبيق وبين الخلق والسلوك .

وجعل التطبيق مناظر الايمان فلا يتحقق الايمان حتى يصبح سلوكاً مؤثراً في واقع الحياة وحيث يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قضية اساسية في المجتمع الاسلامي .

والمسلمون اليوم وهم يرون كيف وصلت بهم نتائج تطبيق مناهج التربية الحديثة وآثارها حين التمسوها أو فرضت عليهم، يجب ان يعودوا الى منهجهم التربوي الاصيل المستمد من قيمهم الاساسية وهو الذي يصلح لهم وحده دون غيره .

(١٠)

من أبرز وجوه الخلاف بين أصول التربية الاسلامية وبين آخر صيحات التربية الغربية في تحولاتها المتعددة والتي لا تنتهي : فكرة « حرية التربية » بمعنى إطلاق الحرية للناشىء بدون رقابة أو توجيه سواء في مجـــال الغرائز أو الملابس أو التصرفات أو المعارف والاصدقاء أو غيرها من شؤون الحياة ، هذه الحرية المطلقة لا يقرها مفهوم التربية الاسلامية ويراها محنة تمر بها المجتمعات الغربية وخطراً داهماً بعيــد الاثر فيما يواجه الشباب في الغرب اليوم من تحلل وانهيار وفساد وتمزق نفسي .

ولسنا في حاجة الى ان نحتكم الى غـــير الغربيين أنفسهم في جرائر هذه الدعوة وأخطارها وفي مصادر هذه الدعوة وخلفياتها .

والشباب الناشىء في أول الامر قليــل الخبرة والمعرفة ولا يحسن اختيار طريقه ، فإذا تركناه مطلق الحرية عجز عن النجاح وكبا وفشل وتساقط ، لأنه أصبح خاضعاً لأهوائه في فترة لم تشكل فيها ثقافته ولا تجربتــه وحيث توجد مغريات الانحراف في كل مكان .

وضبط الحريات ووضع القواعد لهـــا ليس مصدر تسلط أو استعباد أو دافع الى الحيلولة دون حق الاجيال الجديدة في الحركة ، بل على العكس من ذلك فهو بمثابة وضع الانوار الكاشفة على الطريق الطويل المظلم الكثير العقبات .

ولقد كانت رعاية التربية الاسلامية للنشء بالغة الرفق والاحسان، ولكنها حاسمة في حمايته من الاخطار وتجنيبه المزالق وخاصـــة في فترة المراهقة التي تغلب فيها النظرة البارقة والتصرف المندفع .

ولنعلم ان الدعوة الى حرية التربيــة أو إطلاق التربية ليس قانوناً حتمياً نافذاً ، ولكنه وجهة نظر ومحاولة مفترضة من بعض المربين ، أخذ بها دعاة مذهب معين ، ورفضها الكثيرون ، والذين قبلوا بهـا عادوا فتحلل أغلبهم منها بعد ان ظهرت نتائجها السيئة ، ولم يبق متمسكاً بها إلا اتباع المذاهب المتحللة والمنحرفة من دعاة الإباحية والإلحاد ومن اتباع الدعوات المادية وحملة ألوية الدعوة التلمودية الصهيونية في محـاولة لتحقيق أهدافها في تدمير الشباب مقدمة لتدمير المجتمعات .

ولقد تعالت هـــذه الصيحات من رجال التربية الذين اعتمدوا المذاهب المادية وتابعوا فرويد ظناً منهم ان التوجيه ووضع الضوابط من شأنها ان تؤثر في كيان الفرد فتحول بينه وبين القدرة على الحركة والنمو ، ولقـد ترددت أقوال عن ما يسمى بأخطار الكبت ومـا يـترك في النفس من آثار ، وثبت بالتجربة التي أجراها العلماء ان ذلك كله محض توهم وان لا حقيقة له بل لقد ثبت ان التربية الموجهة أصدق أثراً في إنشاء الافراد عامة. كذلك تبين زيف دعوى كراهية الأب ، وتبين ان الحمـلة عليه في الغرب لها جذور في العقائد والفلسفات القديمة ، وأنه يراد بها تدمير الاسرة اساساً .

كذلك ثبت كذب ما ادعاه اتباع المذاهب المادية من كراهية الفتاة للأم فقد أثبت الباحثون ان أغلب رسوم الاطفـال تحتوي اهتماماً واضحاً بتكبير حجم الأم بعكس مـا تقول به نظرية فرويد (عقدة الكترا) من ان الطفلة تتعلق أكثر بأبيها ، وان هذه الرسوم كما يقول الباحثون أبرزت حقيقة بالغة الاهمية وتساؤلات تثير الشك في مصادر نظرية فرويد التي اعتمدت في كراهية

الابن لأبيه على أسطورة أوديب ومـــا يماثلها بالنسبة للفتيات من الاعتماد على اسطورة الكترا ، وذلك في محاولة لإيجاد الصراع داخل الاسرة بين الأم والاب وبين البنت والولد .

كذلك فان الحرية التي تدعو اليها التربيـة الاسلامية هي حرية منضبطة تستهدف تقويم النشء وحمايته في هذه الفترة من العمر ، وهي فترة التكوين بحيث ينشأ فيها الابن أو البنت في محيط من الرعاية وفي قدوة سليمة وفي فهم عميق لمهمة الرجل ومهمة المرأة ودور الاب ودور الام ، حتى إذا مـــا بلغ الناشئون رشدهم أعطيت لهم الحرية في الاختيار والتفضيل لما يرونه صالحاً لهم على ضوء ذلـك التكوين الواعي الدقيق ، ولا ريب أنه من الجرم الكبير في حق المجتمع وحق الآباء والامهات ان يترك النشء في هـــذه السنوات الاولى دون توجيه ورعاية وحماية ، وإن من شأن الدعوة الى إطلاقه وعدم تقييده إنما يستهدف تحطيمه وتدميره وهو ما حدث فعلاً في مجتمعات الغرب إذ كشفت عشرات الاحصائيات والابحاث الميدانية عن ان ما يقاسيه الشباب في الغرب الآن من تصدع وتمزق وإغراق في الاباحة والمارجوانا وغيرها جـــاء نتيجة هذا الاسلوب التلمودي الخطير ، وان ما دعا اليه الاسلام هو الاسلوب الأمثل وان الدعوة الى تكريم الانسان ليست في دفعـــه الى المخاطر بغير سلاح أو تجربة ، وإنما في حمايته وبنـائه وإعداده ليكون صالحاً لحمل أمانة المستقبل في أمته .

ولا ريب ان نظرية الاطلاق من شأنها ان تدفع النشء الى ان يكون عبداً لأهوائه وشهواته ، فضلاً عن أنه يعجز عن اختيار الاصلح إذا ما اتيحت له حرية الاختيار لأنه لم يوجه عقلياً ولا نفسياً الى ما يصلحه والاولى ان يعطى مفاتيح الامور فيعرف الخير والشر والحق والباطل وما يصلحه ومـا يضره قبل ان يعطى حق ممارسة حريته .

ومن حقنا في ضوء هـذا التحليل ان نحكم على التربية الغربية بأنها تربية

قاصرة وان عوامـل كثيرة تتحكم فيها تستهدف تدمير الامم المنقولة اليها ، فعلينا ان لا ننظر اليها على أنها الدواء الوحيد ولا الدواء الصحيح، وقد رأينا نتائجها في وطنها وبيئتها ولنعرف أنهـا نبت غريب عنا وأنها قد أدت في النشء الذي طبقت فيـــه الى الزيغ والالحاد والميوعة والتحلل والاضطراب والتشكك ولنعرف ان لنا طبيعة اخرى خاصة لها وجهتها .

ووجهتها في التربية بناء الشخصية المسلمة وعلاج النفس الانسانية وصياغة النموذج الكريم من الانسان على نحو يمكن الانسان المسلم من تأدية رســـالة الاسلام . ولما كان العلم لا يكفي لتكوين الفرد والثقافة لا تكفي ولا قيمة لأيّ علم ولا أي ثقافـة بدون قاعدة أخلاقية وهدف عقائدي لذلك كانت التربية الاسلامية هي الرجـــاء الذي تتطلع اليه البشرية لإعادتها مرة اخرى الى جادة الحق والى الطريق المستقيم .

(١١)

إن أبرز معالم منهج التربية الاسلامي هي أنه :

(أولاً) : منهج متكامل يعنى بتربية الجسم والروح والعقل جميعاً بما يحقق التوازن والتكامل بين العناصر الثلاثة التي تتكون من مجموعها الشخصية الانسانية ، وذلك حتى لا تطغى ناحية من النواحي بالاستعلاء فتفقد النواحي الاخرى حاجتها وبذلك يحدث التمزق الذي هو اخطر آفات التكامل الانساني ومصدر كل الازمات التي تواجهها البشرية حين أعلت من شأن الجسم وتجاهلت تكامل العناصر كلها وترابطها .

(ثانياً) : وحدة الاتجاه أو وحدة الفكر بمعنى ان تصوغ قاعدة عامة للنفس الانسانية تلتقي فيها الامة كلها على ارض الواقع ، ولا يمنع هذا من الاختلاف في الفروع .

(ثالثاً) : يرى الاسلام ان الانسان يولد وفيه عاملا : الخير والشر . والتربية هي التي توجهه الى أحدهما : (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) ومن هنا يتحتم بناء الفرد وتوجيهه ودفعه الى الطريق الصحيح ببناء إرادته ودفعه الى تحمل المشاق ومواجهة الشدائد والانفطام عن الشهوات .

(رابعاً) : جعل الاسلام التربية منهجاً وقدوة وجعل المنهج تطبيقاً في القدوة : (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة) .

والقــدوة تتمثل في الابوين ثم في المعلم ثم في الاصدقاء والمعارف فإذا لم تتحقق في هــذه النماذج عجزت التعاليم والمناهج عن ان تقدم شيئاً ذا بال لأنها تظل قائمة في حدود النظرة المجردة .

ويقول المربون : إن الطفل يتقبل من آبائه اكثر مما يتقبل من معلمه وإن ناشيء الفتيان فينا ينشأ على ما كان عوده أبوه .

ومن هنا تأتي مسؤولية الآباء وما يرتكبه البعض في حق ابنائه من تقصير في التوجيه والمتابعة يوماً بعد يوم .

(خامساً) : الطبيعة الانسانية مرنة ويمكن تشكيلها وهي اساس بنــــاء الامم والمجتمعات ويمكن عن طريقها تغيير العرف العــام ، ولذلك فقد عمد اليها المصلحون لبناء مجتمعات ناهضة ، ولا بد من إعداد البيئة الصالحة للتربية الحقـة التي تقوم على أساس التقــاء المناهج بالواقع والتي لا يوجد فيها تناقض بين ما يعلن وما يقدم .

(سادساً) : اهمية دور الام البالغ في إمداد الابناء بالحنان والرحمة والحب والعاطفة ومدى خطر نقصان ذلك أو تلاشيه .

(سابعاً) : الحرص على كمال الذاتيــة والطابع والنوع ، فالابناء لا بد ان يكون لهم تربية خاصة وزيّ خاص ومنطلق خاص لفهم الحياة وتعلم امورها يختلف عن منطلق الفتــــاة وكذلك تباين الملابس والزينة ، وانه من الخطر امتزاج ذلك لأنه يفسد الفوارق العميقة القائمــة بين شخصية الفتى وشخصية الفتاة والتي يجب ان نحرص على بقائها وتعميقها .

(ثامناً) : إقامة أساس التربيــــة على الترهيب والترغيب معاً على طريقة الحزم الممزوج بالرفق والربط بين الايــنــــاس والايحاش على ألا يؤخذ الطفل بأول هفوة بل يتغافل عنــه ولا يهتك سره ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه .

(تاسعاً) : تربية الابناء على الرجولة والخشونة :

(علموا أولادكم العوم والرماية ومروهم فليثبوا على الخيل وثباً) .

(عاشراً) : القرآن هو مدخل الفكر واللسان والذكر في كيان كل مسلم فهو المصدر الاول للتعليم والتربية والاخلاق ، وقد قدم لنـــا القرآن منهجاً كاملاً للمعرفة : عالم الطبيعة وعـــالم الغيب وعـالم الآخرة ورسم لنا صورة كاملة عن نشأة الحياة وعن سر خلقنا .

(حادي عشر) : منحنا الاســلام فهم دورنا الحقيقي في هـــذه الحياة ومسؤوليتها بها .

(ثاني عشر) : جعل الاسلام العبادات هي علامة الاتصال الدائم بالمصدر الاكبر وجعل ممارستها في اوقات معينة مرتبطة ببناء الارادة وإعداد النفس الانسانية للترقي الى الملأ الاعلى .

(ثالث عشر): جعل الاسلام(الالتزام الاخلاقي) قاعدة البناء كله والقاسم المشترك على مختلف القيم والاوضاع .

(رابع عشر) : دعا الاسلام الى الفكر والذكر ونعى على الغافلين .

الفصل الثاني

التعليم الاسلامي

لا بـــد لكي يقوم منهج التعليم الاسلامي من ان تكون قوائم « التربية الاسلامية » قد أعدت وانه لا سبيل الى نجـــاح رسالة التعليم إلا إذا قامت وفق منهج تربوي صحيح ، فالتربية للفرد والتعليم للمجتمع . والتربيـــة هي الطريقة التي تطبع بها الفرد بطابع معين لإعداده لتلقي التعليم الذي هو مجموعة المعارف التي تزود الفرد بالخبرات . والتعليم وحده لا يغني ولا يكفي دون ان تمهد امامه الطرق من الاخلاق والقيم والاهداف الواضحة السديدة ، والخلق ليس شيئاً فردياً فحسب ولكنه فردي وجماعي ، والعلم بعـــد ذلك رسالة وليس وسيلة لكسب العيش ، فإذا ضاق أفقه الى هذا الحد حرم الناشيء من الترقي الصحيح . ولا ريب ان العـــلم والقدرة على كسب المال إذا لم تكن مقرونة بالخلق والهـــدف أصابت صاحبها بالاضطراب والفساد مما يفسد عليه قدرته ومهارته ويجعل وجهتها الى الشر والانحلال .

فالتربية هي إعـــداد للنشء من ناحية إعداد الاطر النفسية والاجتماعية القادرة على حمل أمانة رسالة العلم على أساس نظرية الحياة التي يؤمن بها الناشيء

والهدف الذي يتجه اليـــه فرداً وأمة وجماعة وفي إطار الامانة المنوطة به والمسؤولية القائمة في عنقه .

إذن فلا يمكن إطلاق التربيـة أو إطلاق التعليم ، لأن ذلك الاطلاق من شأنه ان يتجه بالناشئين الى غير الغاية التي تراد بهم أو يستهدفها مجتمعهم أو أمتهم . والتربية والتعليم ليسا غـــاية ولكنهما وسيلة لغاية : وسيلة التربية لبناء الانسان القادر على حمل رسالة الامة وعقيدتها ووسيلة التعليم حماية الامانة وتنميتها وإذاعتها ودعم العقيدة وتطبيق الشريعة وإقامة الحجـــة بالمنطق والدليل على صدقها وصحتها .

فالتعليم ليس من اجل منطلق حر لا ضابط له ولكن من اجـــل دعم نظرية الحياة لأمة . ذلك ان الامة صاحبة الرسالة يجب ان تقوم على الصغار بالتربية والتعليم ليكونوا ورثة صالحين لهدف حياتها ولنظام مجتمعها، وعليها من اجل ذلك ان تصوغهم في قوالب عقائدها ومناهج حياتها .

ويصدق في هـذا قول تربوي غربي لا أدري لماذا لم يعرفه دعاة التعليم الحر أو مدرسة (افعل مـا تشاء) يقول : مهما قيل في تفسير التربية فما لا يختلف فيه أنهـــا سعي للاحتفاظ بنظرية سبق الايمان بها وعليها تقوم حياة الامة وجهاد في سبيل تخليدها ونقلها الى الاجيال القادمة .

ولعل في هذا إجابة عن التساؤل الذي يتردد : عن التربية والتعليم وهل هما وسيـلة أم غـاية ؟ إن المعرفة لا تصلح بدون إطار الخلق والمعرفة وسيلة الى هدف هو بناء منهج الحيـاة الصحيح ودعمه وتحريره مما يصيبه على مدى الايام من الاضطراب أو الانحراف .

ولا ريب ان الله هو المثل الاعلى للمسلمين وهو الغاية القصوى التي يجب ان تنتهي اليها كل غايات التربيـة والتعليم وان القرآن الكريم هو نقطة الانطلاق لبناء النفس الانسانية في الفرد وبنـاء الاسرة ثم بناء الجماعة الاسلامية القائمة

على شرعة الله بالحق وإقامة نهجه الرباني المصدر الانساني الهدف على هذه الارض.

فأين هذا من مناهج المدارس الوطنية والجامعات القومية التي يزخر بها العالم الاسلامي اليوم ؟ وكيف يمكن ان يكون تدريس مادة (الدين) وسيلة لتحقيق هذه الغاية وكل ما يتعلمه المسلم متصل بالاسلام من قريب حتى علوم التكنولوجيا والفلك والطب والطبيعة وغيرها ؟

إن هدف التربية والتعليم كما يقول الدكتور الجمالي : هي كيف يمكن مساعدة الانسان ليؤدي مهمته كمستخلف لله في الارض وهي المهمة التي نص عليها القرآن الكريم ، وهل تستطيع انظمة التربية الغربية سواء المسيحية منها أم المادية ان تحقق ذلك ؟

محال : فالتربية المسيحية تقوم على أساس فلسفة مختلفة تماماً لأنها تستمد وجودها من نظرية الخطيئة الاصلية التي تبنى عليها عمد التربية والاخلاق وفلسفة الحياة البشرية كلها ، وهي نظرية منقوضة تماماً في الاسلام ؛ هذا بالاضافة الى الخلاف بين الجزاء الاخروي الذي هو في الاسلام حسي ومعنوي وفي المسيحية معنوي ، وهناك الخلاف الاكبر مع مفاهيم التربية المادية وهي مستمدة اصلاً من مفاهيم التلمود حيث تهدم عمادين اساسيين في التربية الاسلامية المسؤولية الفردية وما يتبعها من الالتزام الاخلاقي والجزاء الاخروي . فضلاً عن نظرتها الى الانسان على نحو مادي حيواني وعلى نمط جزئي انشطاري مادة وليس روحاً ، جسداً وليس نفساً .

من شأن هذا كله ان يعمق الفوارق بين النظرية الغربية والنظرية الاسلامية في أدق مفاهيم العلم والتعليم فضلاً عن مفاهيم التربية والاخلاق .

ونحن في مفهوم الاسلام قد حققنا بالتربية بناء الانسان أما بالتعليم فنقيم بناء المجتمع الذي هو مجموعة من الافراد تسعى الى غاية كريمة هي إقامة شرعة العدل والإخاء والرحمة .

أمـــا وقد غرست التربيـة روح المسؤولية والشعور بالواجب والارادة القادرة على التغير والإخلاص في العمل فإن التعليم يبدأ لكي يشحن هذه النفس وهذا العقل بالقدرات التي تمكنه من العمل الصحيح في اتجاه الغاية المثلى وبكل الملكات والقدرات في اتجـاه الاستجابة للعصر ودون مجاوزة قواعد العقيدة وضوابط الشريعة .

فإذا كان التعليم هو الحركة فإن التربيـــة هي إطار الثبات الذي يحقق طابع الاخلاقية وصـدق الوجهة الى الغاية وتصحيح المسار مرحلة بعد اخرى حتى لا تتجاوز الامـــة اهدافها الحقة وغاياتها الاساسية حين تحاول المطامع والاهواء ان تجرفها عن الطريق المستقيم .

(٢)

إذا كان مفهوم التربية في الاسلام هو الترابط بين تربية العقل والقلب والجسم فإن التعليم هو بمثابة إعداد العقل إعداداً سليماً ليكون قادراً على الفهم والاستجابة ولذلك فقد عني قادة التربية الاسلامية في ذلك بعدة أمور:

(اولاً) : إعطاء الفرصة الحدث للاختيار في مجال التعليم بما يتناسب مع رغبته وذوقه وقدرته دون ان يفرض عليه علم معين فيجعل أساس التربية مراعاة ميول الاطفال واستعدادهم حتى لا يرهق الاطفال بأعمال يصعب عليهم أداؤها ، لأنها لا تجري مع رغباتهم ، فالتربية الاسلامية تحترم الميول مهما كانت متواضعة . (ثانياً) أذنت التربية الاسلامية للطفل بعد الانصراف من المكتب ان يلعب لعباً جميلاً يستريح اليه من تعب التعليم بحيث لا يتعب في اللعب ، وقررت أنه إذا منع الصبي من اللعب وأرهق بالتعليم مات قلبه وبطل ذكاؤه وتنغص عليه العيش . (ثالثاً) : دعت التربية الاسلامية الى الرفق في التعنيف عند وقوع الذنب لأن كثرة العتاب تهون على الحدث سماع الملامة وتخفف وقع الكلام على نفسه . وان يكون التأديب بالحزم الممزوج بالرفق ؛ ذلك ان الشدة على المتعلمين مضرة بهم فإن إرهاق الحد في التأديب مضر بالتعليم سيما في أصاغر الولد ، ومن كان مرباه بالعسف والقهر من

المتعلمين سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها [1] .

(رابعاً) : أرست التربية الاسلامية قواعد جلى لإعداد المعلم نفسه فدعته الى الشفقة على المتعلمين ، وان يجريهم مجرى بنيه ، وان يفيد الآخرين من غير ان يطلب على ذلك أجراً ، وألا يلقي على التلاميذ ما لا تحتمله عقولهم ، وان يبدأ بالأهم والاساسي والبدء بالقريب الملموس قبل البعيد المجهول ومراعاة الفروق العقلية والميول الفردية بين الاطفال .

ويجب على المعلم ان يتجنب كل ما يثير الشك في نفوس الضعفاء والاقتصار على العام المتداول المألوف .

وان يحرص المتصدي لعلم من العلوم ان لا يقبح في نفس المتعلم العلوم الاخرى وان يراعي التدريج في ترقية المتعلم من رتبة الى رتبة ، وان يكون المعلم عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعله .

(خامساً) : حرصت التربية الاسلامية ان تدعو المتعلم ان لا يتكبر على العلم ولا يتآمر على المعلم بل يلقي اليه زمام أمره ويذعن لنصيحته ويتواضع لمصلحته مع الاصغاء والإدراك والاطلاع ، وعلى الطالب ان لا يدع فناً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من أنواعه إلا نظر فيه ، ولما كان من غير الممكن الالمام بكل العلوم فالحزم ان يأخذ من كل شيء أحسنه ، وان لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله ، وان يحرص المتعلم على شرف الثمرة ووثاقة الدليل وليعلم ان أشرف العلوم هو العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله ، وان يكون قصد المتعلم تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة .

ومن يراجع آراء رجال التربية الغربيين (فروبل وهربرت سبنسر وجان جاك روسو) وغيرهم يجد ان الاصول الاولى للتعليم في الغرب كانت مستمدة من هذه القواعد .

---

(١) هذه مجموعة من آراء ابن خلدون والغزالي وابن سينا .

وقد أشارت الدكتورة علية الكبارة في رسالتها عن التربية والتعليم الى المصادر التي أخذمنها هؤلاء المربون الاجانب نظرياتهم التربوية والتعليمية وردتها تفصيلاً الى ابن عبدون وابن خلدون والعبدري والغزالي شيخ المربين .

أما مناهج التربية والتعليم المعاصرة فإنها قد اختلفت عن ذلك كثيراً ، ووقعت في الاحتواء التلمودي الصهيوني بعد سيطرة مفاهيم الثورة الفرنسية التي عمدت أساساً الى هدم جانبين اساسيين في التربية الغربية هما : الدين والاخلاق .

(٣)

إذا كانت التربية تستهدف تكوين شخصية الفرد ، فإن التعليم يستهدف تكوين شخصية الامة ، فهل استطاع التعليم الوطني في العالم الاسلامي خلال هذه الاجيال الاخيرة ان يحقق هذا الهدف وان يخرج الجماعة الفاهمة لدورها ورسالتها ، القادرة على حمـــل هذه الرسالة في العالمين ، المستطيعة ان تحمي نفسها من غـارات المعتدين وغزوات الآخرين ؟ ذلك مـا تجيب عنه وقائع التاريخ بالنفي البات ، وهـذا ما قصدت اليه القوى الاستعمارية ، وما حققته حـين أخرجت المسلمين والعرب من إطـار نظامهم التربوي والتعليمي الذي خرج اولئك الأعلام النوابغ في مجالات الحرب والسلم والحكم والعلم والفكر مما تزدهي بأسمائهم واعمالهم صفحات التاريخ .

لقد أخرجت الأمة كلها من إطارها وهدفها لتكون باحثة عن القوت ، متصارعة على الدرجة ، متطلعة الى المطامع القليلة .

وإن نظرة على الشباب المسلم في آخر مراحله التعليمية في الجامعة ليكشف عن ان مراحـل التعليم كلها عجزت عن ان تقدم له هـدف بناء نفسه أو هدف بنـاء أمته ، وأنهـا شغلته بمعلومات ومناهج من شأنها ان تجعله شاكاً متردداً ، حالماً ، مضطرباً ، ممزقاً ، فلا أجابت هـذه المناهج عن حاجاته النفسية ولا هي قدمت اليه هدف أمته الحقيقي في الحياة .

وأخطر ما قدمته هـذه المناهج أنها جعلت دراسة العلوم الطبيعية بديلاً لمفاهيم دينه فمزقت الوحدة بين قلبه وعقله، ذلك أنها قدمت له تلك النظريات والفروض المتغيرة التي لم تثبت على أنهـا حقائق ، فإذا به يقارنها بما جاء في مفاهيم الاسلام ، فلا يعرف كيف يلائم بينها . ولمـا كان أساتذته الطبيعيون هم القدوة فقد قبل وجهة نظرهم ، وغفل عن مصدر قوانين الطبيعة الاول ، الخالق الذي هو الحقيقة الاساسية في علوم الطبيعة نفسها ، فجرى وراء الفهم بأن الطبيعة تعمل تلقائياً وان العالم وجد صدفة وان المادة خالدة وغير هذه من الفروض التي لم تثبت والتي تحاول المدرسة أو الجامعة ان تقدمها اليه على أنها حقائق العلم .

ومن هذا المنطلق ركز المنهج العلماني في التعليم على إنكار مقومات التوحيد وأصول العقائد التي إن درست في مادة الدين فهي تدرس على نحو لا يملأ بها النفس ولا يحل الإشكال بينها وبين ما تقدمه علوم الطبيعة .

كذلك ففي دراسات الفلسفة وعلم النفس والعلوم الاجتماعية يحس الطالب المسلم ان هناك قوانين تحكم المجتمعات والامم مخالفة لتلك القوانين التي رسمها القرآن فهي معارضة حقيقية لكل ما جاء به الاسلام .

فإذا اتصل الامر بعلوم القانون والاقتصاد والسياسة وجد الطالب المسلم مناهج معارضة تماماً لمفاهيم الاسلام تدرس على أنها هي نظم المجتمعات .

وهكذا أقام المنهج العلماني (اللاديني) في التعليم نظاماً كاملاً شاملاً مضاداً لمفهوم الاسلام نفسه يستهدف إخراج الشباب المسلم من كل المقومات الاساسية لعقيدته وللنظـام الاسلامي نفسه الذي هو أولى النظم بالدراسة والتطبيق في بيئات العالم الاسلامي ومجتمعاته .

ومن هنا تتشكل لدى الطالب المسلم نظرة مادية خالصة للكون والحياة، وتنبني بينـه وبين الفكر الاسلامي حواجز صفيقة ، فلا يعرف عن الاسلام

إلا أنه دين عبادة وصلاة ومسجد وأنه ليس له صلة ما بالحياة والمجتمعات ، وليس له وجهة نظر واحدة في شؤون الاقتصاد أو القانون أو التربية .

ويعين على هذا ان دراسة الجغرافيا والتاريخ تقوم على الاقليمية البحتة ، وعلى تعميق الفواصل بين الاقطار ، وعلى إعلاء شأن التاريخ الاقليمي بما يتصل به من آثار فرعونية وإطارات إقليمية وكيانات خاصـــة ، فإذا عرف شيئاً عن البلاد العربية فمعرفته بها أو علاقته بها لا تعدو ان تكون رابطة تاريخية أو جغرافية بحكم خطوط الطول والعرض والجوار أو تبعاً لوحـــدة البحر الابيض المتوسط .

وتغيب عنه تلك الرابطة العميقة الواسعة : رابطة الاسلام وامته ودولته الضخمة الواسعة التي كانت جامعـة هذه الاقطار وهي وحدة فكر وعقيدة ولغة فإذا فكر في شؤون علاقات الامم لم يعد ان يفكر في إطار القوميات التي يدرسها على نمط القوميات الغربية وبمفاهيمها ، قوميات تحـاول ان تقوم على المصالح ولا ترتبط بالتاريخ أو العقيدة أو وحدة الفكر .

وفي مجـال علوم النفس والاخلاق والاجتماع تسيطر النظرة الجبرية وطابع العلوم الحديثة في الاستسلام للواقع وتقبله ومجاراة روح العصر دون نظر الى مدى صلاحيتها للنفس الانسانية أو المجتمع الاسلامي ، فيعجز المتعلم المسلم عن بناء التكوين النفسي والخلقي القادر على مواجهة اخطار التحلل والترف والإباحيات .

كذلك فإن هـذه المناهج لا تفرق بين خواص الرجال وخواص النساء ، فلا تقيم تعليماً منفصلاً للفتاة بحكم تكوينها النفسي والاجتماعي والبيولوجي ، وبحكم مسؤولياتها ورسالتها وعملها ، ولكنها تشترك مع الرجـــال في برنامج واحد فلا تعرف لها مهمة خاصة ولا هدفاً محدداً .

وبذلك تقصر مناهج المدرسة والجامعة الوطنيين عن بنـــاء المسلم القادر على معرفة هدفه وغايتـه ، فيعجز عن ان يعرف ان للاسلام وجهة نظر في

مختلف قضايا الاجتماع والاقتصاد والقانون والسياسة وعلوم النفس والاخلاق ، وان له منهجاً كاملاً مستقلاً مختلفاً عن هـذه الدراسات ، وهو أولى بأن يلم به لأنه يعيش في بيئة عربية إسلامية الأصلح لها ان تطبق ما يصلح لها وما يتصل بكيانها ومزاجها وذوقها وعقائدها .

كذلك فإن هذه العلوم المختلفة للاسلام فيها دور ، وقد أرسى جذورها وقواعدها وأقـام المنهج العلمي التجريبي الذي تنبني عليه العلوم الحديثة ، ودوره في الفلك والطب وغيره بالغ الاهمية ، كل هذا لا يعرفه المتعلم المسلم فيظل مليئاً بإحساس الانتقاص لأمتـه والإكبار للغرب ، بيـنما لو اتيحت له الفرصة لعرف دور أمته في بنـاء هذه العلوم وعرف وجهة نظر فكره الاسلامي فيهذه النظريات التي يدرسها علىأنها علوم ثابتة ومسلمات لا مراجعة فيها، بينما هي تتغير كل يوم وبينما هي عرضة للخطأ والصواب وبينما يجد أهلها من نتائجها كثيراً من الاضطراب وهي من نتاجهم الخاص فكيف بها لتطبق في بيئة اخرى مختلفة تمام الاختلاف .

ومن شأن مناهج المدرسة الحديثة في البلاد الاسلامية أنها لا تبني شخصية المتعلم المسلم منحيث إيمانه بلغته ولا تاريخه ولا عقيدته ولا مقومات فكره، ولا تكشف له عنالدور العظيم الذي قامت به أمته وعقيدته فيبناء الانسانية نفسها خلال الف عـام تقريباً ، وتطلعه على ان المرحلة التي يمر بها الآن هي مرحلة تخلف ، وان التخلف إنما جاء من الغفلة والانفصال عن القيم الاساسية التي دفعت الأولين بقوة .

ولذلك نجد في المدرسة الوطنية إهمالاً للغة وغلبة للعامية ، ونجد استعلاء للغـة الاجنبية ، وفي الجامعات تدرس العلوم باللغات الاجنبية ليظل الشباب على إحساس دائم بالتبعية والولاء والعبودية للغات التي يتعلم بهـا بينما أصبح ميسوراً الى حدبعيد ان تنقل العلوم كلهافي وعاء اللغة العربية وان تدرس بها.

(٤)

كانت ازدواجية التعليم من اخطار التحديات التي حرص النفوذ الاستعماري على بقائها وتعميقها، وذلك حتى يقع المجتمع الاسلامي في هوة الصراع الدائم. ذلك ان التعليم الذي عرفه العالم الاسلامي قبل الاحتلال كان تعليماً جامعاً، وكان طابعه عقائدياً، ولكنه لم يكن دينياً بالمعنى الذي يحاولون ان يصفوه به تشويهاً واحتقاراً، فقد عرف الازهر في السنوات الماضية علوم الفلك والطبيعة والرياضيات ولم يتوقف عنها إلا في سنوات قليلة، وكان مفهوم العلم عند المسلمين في مختلف كتاباتهم هو العلم الجامع لعلم الدنيا والآخرة. غير ان النفوذ الاستعماري كان يرى مدى الخطر في هذا النوع من التعليم فوصفه بالجمود رغبة في إقامة رأس جسر للتعليم الاجنبي والمدني المستمد من المدرسة الغربية في مناهجها وفي علومها ايضاً، ومن خلال هذا العمل أتيح له ان يوسع قاعدته وان ينشىء اجيالاً تبناها وحماها ووكل اليها العمل والقيادات وحجب اجيال التعليم الاسلامي القديم وعزلهم عزلاً تاماً ولم يسمح لهم بالاندماج إلا بعد ان أصبحت له الاغلبية المطلقة وبعد ان اهتز التعليم الاسلامي وانتقص من اطرافه وتمزق على قاعدة التخصص التي هي بمثابة التجزئة، وكانت هذه اول هزيمة له وأكبر نصر لأصحاب المناهج الوافدة، حيث استطاعوا ان يخضعوا المنهج الاسلامي الجامع المتكامل الى اسلوب التخصص دون ان يكون ذلك على قاعدة الاستيعاب الواسعة التي تضع الجزء في مكانه من الدائرة

الكلية فلا يتجاوزها ولا يقصر دونها .

وسيطر التغريب حتى جاء الوقت الذي دعا فيه خصوم الاسلام الى ان يلغى التعليم الاسلامي في السنوات الاساسية ويصبح دراسة تخصص في السنوات العليا .

وقد سقطت هذه الدعوة وعجزت عن ان تحقق وجودها، وبقيت الثنائية وظل الازدواج قائماً مستمراً ، على اساس وجود نظامين تعليميين مختلفين في في الغاية والمنهج والتقاليد والظروف بينما تحتاج أمتنا الى منهج أصيل مستمد من اللغة العربية والاسلام مساير للعصر ملتق به يحول دون انقسام القوم على أنفسهم أمام عدوهم ، ذلك ان إيجاد وحدة الشعور ووحدة العقلية هو اساس وحدة الامة والمقدمة الحقيقية لبناء هذا الكيان العربي الاسلامي قوياً شامخاً.

ولقد ثبت ان الثنائية قد حالت دون وحدة الامة ، وأصبحت خطراً على وحدة الفكر وإن السبيل الوحيد لهذا هو ان يقوم اساس التعليم إسلامياً اصيلاً ثم يستمد ما يحتاج اليه من الانظمة المختلفة دون الخضوع لها وان يكون ما يقتبس منها بمثابة (مواد خام) يؤخذ منها ما يلزم دون ان تفرض أي تبعية أو تحول دون فقدان الروح الاصيل .

ومن غير الانطلاق من مقدمة القرآن نفسه كأساس للتربية والتعليم فإن كل محاولة باطلة وكل جهد ضائع بمحاولات الترقيع والحذف والإضافة .

لا بد ان يقوم الاساس على الايمان بالله والنبوة وللقرآن منزلاً من عند الله ودستوراً للحياة والمجتمع ومنهجاً كاملاً للميتافيزيقا وللغيب ولعالم الشهادة ، وان يكون القرآن أساس جميع العلوم ومصدرها ليس بأنه يحمل مادتها المتطورة بل على اساس انه المنهج الذي يرسم الحركة والإطار الذي تجري الحركة داخله لا تجاوزه .

وان ننطلق على أساس ان نأخذ العلوم الطبيعية والرياضية والتكنولوجيا

أخذاً مباشراً بأن ننقل مادتها الى اللغة العربية، أما في نظام العيش ومقاييس الاخلاق والنفس والاجتماع فلا نلتمس إلا مفاهيمنا الاساسية . أما في شؤون القانون والاقتصاد والسياسة فتجري المقارنة الواسعة بين منهج المسلمين ومنهج الغربيين ليكشف الدارس المسلم حقائق الامور على ان يكون منهج الاسلام ونظامه شيئاً قائماً بذاته منفصلاً تماماً عن التاريخ الذي هو محاولة نجحت في مراحل ولم تنجح في اخرى ، وهي ليست محسوبة على اصول الاسلام وإنما محسوبة على الحاكمين الذين عملوا بالاسلام أو تجاوزوه.

لتعقد مناهج التعليم العربية الاسلامية المقارنات بين العلوم الانسانية والاجتماعية الغربية وما وصلت اليه وبين العلوم الاسلامية في هذا المجال لنكشف للبشرية مدى أصالة الاسلام في مواجهة الانسان والحياة والمجتمع .

أما في العلوم التجريبية فعلينا ان نبين دورنا في إعداد هذه المناهج والمرحلة الضخمة للتي قطعها المسلمون في الطريق الى الطب والفلك والكيمياء والبحث العلمي ثم نتابع الدراسة بروح الاسلام التي هي روح الأخوة الانسانية التي تجعل العلم رحمانياً لا عدوانياً وتجعله للبشرية كلها وليس حكراً لقلة من أصحاب النفوذ والثروات .

(٥)

كشف الدكتور محمد البهي خطر سيطرة مناهج الغرب التربوية في مقدمها: سبنسر البريطاني وديوي الامريكي فأشار الى مدرسة المعلمين العليا التي انشأتها بريطانيا والتي دربت فيها جيـــل القادة التربوية في مصر وقال : لقد خلت برامجها من الثقافة الوطنيـة وهي الثقافة الاسلامية العربية وإن أخذ التاريخ الاسلامي في صورة متواضعة مكاناً متواضعاً فيها ، ولكنه على كل حـال لا يمثل الثقافة الاسلامية في كمها ولا في نوعها . ومع تعدد اقسام التعليم فيها ، كان هناك قدر مشترك ضروري بين هـــذه الاقسام هو علم «التربية» وورد الاستعمار البريطاني لفن التربية في هذه المدرسة العليا كتب سبنسر الانجليزي، ثم بالإضافة اليها كتب ديوي الامريكي وكلاهما من دعـاة مذهب (الواقعية) في التعليم أو بعبارة اخرى من دعاة إنكار الدين (أي المسيحي) ومن دعاة إبعاده عن مناهج التعليم .

وتعلم الطلبة في مدرسة المعلمين العليا في القاهرة حجج سبنسر وديوي ضد الدين ، ومقصود سبنسر وديوي من الدين (وهو المسيحية) وعلى الأخص الكثلكة .

ولكن المتخرجين من هذه المدرسة طبقوا هذه الحجج أو نقلوها الى مجال الدين الاسلامي، إذ اعتقدوا ان ما يوجه الى أي دين يصح ان يوجه الى دين

آخر وبالأخص وهم خلو منذ نشأتهم التعليمية الاولى في مدارس التقدم المدني — وهي المدارس الحكومية — من أية صورة عن الاسلام كدين وثقافة ، إذ ذاك وهي حياة تبعد كثيراً أو قليلاً عن ان تمثل الاسلام تمثيلاً صحيحاً .

وكان هؤلاء المتخرجون معلمين ثم أصبحوا بعد ذلك ذوي إشراف فني تربوي في وزارة المعارف المصرية وصحبتهم في حالتهم الاولى كما رافقتهم في حالهم وهم مشرفون على التربية والتوجيه في وزارة المعارف صورة إبعاد الدين عن مجال التربية .

وترددت في نفوسهم نفس العوامل التي أثارها (سبنسر) و (ديوي) ضد المسيحية وعلى الاخص : ان معرفتها وتعاليمها ضرب من خيال الانسان يقع تحت الظروف السيئة في الحياة وهي لذلك أولى ان تكون خرافة من ان تمثل الواقع ويشترك معها في الضعف وعدم تمثيل الواقع ما يسمى بفلسفة المثل والقيم الاخلاقية ، وزاملت هذه العوامل في نفوسهم خفة وزن رجال الدين كما زاملتها في نفسي سبنسر وديوي ولكن رجال الدين هنا في مصر ليسوا قساوسة إنجلترا وأمريكا ، وإنما هم علماء الأزهر ، لأنهم حملة الثقافة الدينية الاسلامية . وألحقوا بعلماء الأزهر في الاستخفاف بقيمتهم أبناء دار العلوم لأنهم أزهريو النشأة ، ولأنهم لا يخرجون عن كونهم حملة الثقافة الوطنية الاسلامية والعربية .

واختفى الاحتلال البريطاني رسمياً في سنة ١٩٢٢ وظهر الاتجاه التقليدي لفكرتي سبنسر وديوي في التربية المصرية منذ عام ١٩٢٥ أي منذ حاولت وزارة المعارف ان تستقل عن المشورة البريطانية في التعليم والتربية . ولكن هذا الاتجاه التقليدي تبلور تبلوراً واضحاً عندما انشأت وزارة المعارف المصرية معهد « التربية العالي » وتزعم التوجيه التربوي فيه الاستاذ إسماعيل القباني ، وعرف القباني وتلاميذه المدرسون تحت زعامته في معهد التربية العالي بأصحاب المدرسة (الديوية) وازداد تشبثهم بديوي بعد انتهاء الحرب

العالمية الثانية وبعد ان دخلت أمريكا كمساهم في السياسة العالمية الدولية واحتلت ثقافتها في الشرق مكاناً مرموقاً بما تقدمت به الى بلاد هذا الشرق بما سمته (مساعدات فنية) واقتصادية وتبادل ثقافي بين الطلاب والعلماء .

وعن طريق المساعدات الفنية الأمريكية والتوسع في تبادل الزائرين من العلماء المصريين، نمت عظمة ديوي في نفوس أتباعه من موجهي التربية في مصر وأخذ بها مكان القداسة .

وتولى القباني وزارة التربية فنقل نظم مراحل التعليم المختلفة في أمريكا الى التعليم المصري ، وحرص هو ومعاونوه من أتباع مدرسة ديوي في مصر ان تتحقق أفكار ديوي في التعليم ، كما حرصوا على إبعاد أبناء الأزهر والاستخفاف بأبناء دار العلوم وعلى التخلص منهم ومن إشرافهم ؛ والسبب أنهم حملة الاسلام ولغته [1] » ا.هـ .

ثم كانت بعد ذلك خطة التعليم الخطيرة التي حاولت القضاء على اللغة العربية العظمى وهي طريقة (شرشر) التي استقدمها أتباع ديوي في مصر والتي كانت بعيدة المدى في خلخلة نظام تعليم اللغة العربية .

---

(١) مستوى الكفاية الفنية للتعليم في مصر : الدكتور محمد البهي .

(٦)

كانت كليـــة الآداب من أخطر كليات الجامعة أثراً في دعم المنهج الغربي الوافد في التعليم ، ذلك ان هذه الكلية بفروعها (فلسفة واجتماع وعلم نفس ولغة) «هي التي تختص بدراسة شخصية الأمة في تاريخها وفلسفتها وحضارتها وطبيعة إقليمها وآثارها وأدبهـــا القديم والحديث وما تلتقي فيه من روافد حضارية شرقية وغربية قديمـة ومحدثة » ولذلك فإن سيطرة مناهج التغريب عليها كان بعيد الأثر في تكوين الاجيـــال التي نشأت وهي تنظر الى مصر والعرب والعربية والاسلام والقرآن نظرة استخفاف بينا تعلو في نفسها أمجاد الغرب وفلسفاته وحضارته .

ولقد دعا كثيرون الى إطلاق الجامعة لدراسات الغرب دون أي قيـــد يربطها بالأمة أو عقائدها أو قيمها وعمل في سبيل ذلك كثيرون في مقدمتهم لطفي السيد وطه حسين وأحمد أمين وأمين الخولي وغيرهم .

وقد واجهت حركة اليقظة الاسلامية هذا التيار وحـددت مهمة الجامعة فقالت :

« إن الجامعـة المصرية وكل جامعات الدنيا مطالبة في البيئة التي نشأت فيها بأمرين اثنين : أولها ان يتنزه القائمون بها عن كل موجدة نحو دين البلاد ومقدساتها وحقوقها فلا يتخذوا من البحث العلمي وحرية الرأي وسائل لتوهين

رابطــة النشء المثقف ، بدينه وقوميته ومقدساته ، لا سيا إذا كان دينهم صديقاً للعلم وداعياً الى الحق وآخذاً بيد المعرفة ينشطها ويرفع مقامها .

وفي مصر أناس نعرفهم بأعيانهم ويعرف أتباعهم بسيماهم لا يفتأون يعملون على توهين رابطة النشء بالدين ، وتهوين أمره عليهم وتشكيكهم فيه وتنفيرهم منه ، وما فتئوا يحاولون إقناعهم بأن الحقائق تخالفه وانه وقف حجر عثرة في طريقها . والواقع انهم لم يتحرروا من مؤثرات بيئتهم إلا ليتدثروا بمؤثرات اجنبية عنهم ، ولم تتحرر افكارهم من قيود التقاليد الاسلامية إلا ليصفدوها بأغلال تقاليد اخرى غريبة عنهم ، فسدنة هيكل الجامعة يجب ان يحرصوا على ان يعرفوا في أمتهم بأنهم مجردون من الضغن لمقدساتها ويجب ان يتنزهوا عن ان تحفظ عنها كلمـة أو حركة تدل على ان لهم هوى يميل بهم الى جهة معينة ويصبغهم بلون يعرفون به ، أما الذي يقنع أمته بأنه منغمس في هذا الهوى الى أذنيه ، مصطبغ باللون الخاص الذي يجافي به الإنصاف والاعتدال ولا يغسل وجهه عنه ، فليعذر النـــاس إن اعتبروه من أعداء الحقيقة لا من سدنتها وانصارها .

(ثانياً) الأمر الذي تطالب بـه الجامعة هو ان تقوم بمهمة البعث لعناصر هذه البيئة ، وان تجـــدد حياتها المعنوية ، فالجامعات الايطالية اليوم تنحو بالفعل نحو إحياء مجـــد الرومانيين وإقناع الطلبة الجامعيين بأن من واجبهم إكمال سلسلة التاريخ التي ابتدأها قياصرة روما، كذلك فإن الجامعات الألمانية تعلم ان لها وظيفة روحية لا تتنافى وطبيعتها نحو حقائق العلم .

إن لمصر مكانة في المجتمع الاسلامي والأمـــة العربية ومن شأن ذلك ان يكون الجيل القـــائم الآن في مصر والأجيال التي ستخلفه حلقات في سلسلة التاريخ الاسلامي ، وهي لا تكون كذلك عن جـــدارة واستحقاق إلا إذا اعترفت الجامعة المصرية بأنها الهيكل العلمي والثقافي في بلاد عربية إسلامية.

وإن من واجبها للاسلام الذي هو دين المصريين والعربية التي هي لغة المصريين ان تحمل لون محاسنها وأمجادها كما تحمل لواء العلم المجرد والعقل الحر والفكر المطلق ، وإن هذا لا يتنافى مع هذا ، ومن زعم أنه ينافيه فهو غشاش .

كما ان الاسلام لا يقف في طريق العلم في مصر ولا في غير مصر فيجب على هيكل العلم في مصر ان لا يقف في طريق الاسلام ، نريد نشئاً مثقفاً عالماً ولكنا نريد نشئاً مسلماً عربياً .

وكلما ابطأ القائمون على أمر الجامعة في هذه الحقيقة تأخروا عن ان تأخذ مكانها الذي تستحقه ، وكانوا بذلك مسيئين الى وطنهم [1] » ا.هـ .

ولقد تداولت الابحاث المتعددة تلك الاخطار التي واجهتها الجامعة في العالم الاسلامي كله ، ومن كلية الآداب أصدر طه حسين مفاهيمه التي جعلها اساساً للبحث الادبي وهي مضادة لحقائق القرآن وأصول الاسلام وقد سيطرت مناهج المستشرقين على مفاهيم الأدب والفلسفة والاجتماع والأخلاق والنفس منذ اليوم الاول ، ولم تتناول الدراسة إلا مذاهب فرويد ودوركايم وليفي بريل ورينان الذي أقامت له كلية الآداب احتفالاً مهيباً عام ١٩٢٧ بمناسبة مرور مائة سنة على ولادته القى فيه الشيخ مصطفى عبد الرازق محاضرة طويلة ردد فيها ما أورده رينان من تحقير للعرب وانتقاص للمسلمين .

ولا ريب عندما بدأت الجامعة المصرية كانت الآمال معلقة بها ، وقد رأى القائمون بها من الوطنيين خروجاً عن ذلك القيد الذي وضعه (كرومر) في عنق التعليم المصري بسياسة الكتاتيب ، ولكن هل استطاع الغيورون والمؤمنون بهذا

---

(١) مجلة الفتح : محب الدين الخطيب مجلد ١٩٣٧ .

الوطن ان يمحوا هذه النبتة ، لقد واجه كثير من الباحثين هذا التحول الخطير فقال صاحب فتى العرب الدمشقية عام ١٩٣٠ :

« أنشئت الجامعة فتهلل القوم في جميع انحاء الشرق العربي وتفاءلوا منها خيراً وباتوا يعلقون عليها الآمال الطوال والأماني الكثيرة وما هي إلا عشية أو ضحاها حتى حصحص الحـــق ووضح الصبح لذي عينين فتبين لهم أو كاد ان تلك الجامعـة تبث الآراء الشاذة التي يريدها الاستعمار الاوربي في الشرق وأنها إنما اتخذت آلة هدامة للكيان العربي عن طريق الأدب والعلوم. وها نحن نرى الجامعة المصرية أو بعض القائمين بأمر الجامعة يعلنون الحرب على العرب والعربية ، فقد اتضح لأبناء الأقطار العربية بعد الإشكال السبب الذي دعيت به الجامعة المصرية ولم تدع الجامعة العربية في مصر وشارتها الفرعونية ، وكل هذا يقوم على الدعاية على ان مصر فرعونية بحتـة وان الآداب العربية واللغة العربية دخيلة بل محتلة بقوة الفتح، والدين في الآداب المصرية واللغة الفرعونية ، وإن السياسة (الجريدة) قد اتخذت ثكنة حربية يرابط فيها مجاهدو القومية الفرعونية بقيـادة أشخاص لا يستطيعون ان يبرهنوا على ان مصريتهم ترتفع الى اكثر من خمسة أجداد أو عشرة » .

وفي هـذه الفترة كان هناك صراع شديد على من يحل محل الأزهر : هل الجامعة المصرية أم الجامعة الامريكية في القاهرة ، وفي هـــذا تقول جريدة السياسة في ٢٦ فبراير ١٩٢٧ (إن الجامعة المصرية أرادت أم لم ترد ، رضي القائمون بالأمر فيها وفي الدولة المصرية أم لم يرضوا ، صائرة لا محالة الى حيث تحل من ناحية النفوذ خارج الحدود المصرية محل الجامع الأزهر ونفوذه الكبير في تلك العصور التي مضت) .

وقد علق على هـذا السيد محب الدين الخطيب فقال إن الأزهر للاسلام والجامعة للثقافة الجديدة التي تقوم على إنكار الدين أو على تجريدها من الدين

أو الى عدم الحاجة اليه، فالتقابل بين الازهر والجامعة تقابل بين الشيء وضده.

ولقد أحس طلاب الجامعة في فترة ما بأن دراستهم لا تعطيهم ما يطمحون اليه من فكر ومن إجابة لقضايا النفس والحياة فطالبوا ان تجدد مناهج الجامعة وان يكون الاسلام حضارياً وعقائدياً مـادة اساسية في دراساتها، كذلك طالبوا بدراسة خاصة للبنات في كلية الآداب.

وقالت مذكرتهم (مارس ١٩٣٧) إن الفتاة المصرية في مسيس الحاجة الى تربية الروح، فهي في حاجـة الى دراسة خاصة بها لأنه مهما يكن من الأمر فليس كل المواد التي تدرس في كليـة الآداب تتفق ومستقبل الفتاة، دراسة تتفق وكونهن أمهـات المستقبل، إن الاختلاط في صورته الحالية في جميع الكليات يتنافى والشرع الاسلامي، إن الدراسة الخاصـة بالفتاة لخير تحديد لمصيرها وخير معين على حياتها المقبلة.

كذلك أشار الطلاب الى أسفهم « ان تنتهي مراحـل التعليم في الجامعة وما يعلم الطالب فيها من أمر دينـه شيئاً، بينما يعرف أرسطو وديكارت، وحيث يكون الدين في هـذه المرحلة الوازع الاكبر للشباب ».

سجل الطلاب هذا وما زال مطلبهم قائماً الى اليوم.

وقد أشار الكثيرون الى الجامعات الغربية وكيف تلتصق بها معابد بينما لا يوجد في الجامعات الوطنية في العالم الاسلامي أي إشارة الى هذا المعنى.

ولقد كان حرص التغريبيين الى الدعوة الى حرية الفكر حتى يجـدوا منها وسيلة الى تقـديم كل سموم الفكر الغربي وفلسفاته المادية والملحدة والإباحية الى الطلاب دون رقيب وكذلك تقرير الكتب الشهيرة لأمثـال برناردشو وغيره وفيها نقد للاسلام ورسوله، ولكن الدكتور طه شهد كيف وضعـه الطلبة بين المطرقة والسندان وفرضوا عليه الاستقالة بعد ان كادوا يقتلونه،

وكانت الجامعـة بذلك قد عرفت كيف تتحرر من قيود التغريب ولكنها لم تلبث ان تراجعت .

والجامعة في الحقيقة ليست داعية أو مسخرة لإحـــدى مدارس الفكر الغربي سواء الليبرالي منه أو الماركسي . ولا يجوز ان تكون كذلك ، وإنما هي مسخرة لفكر أمتها اساساً تقف على قاعدته الاساسية وتدرس كل المذاهب والنظريات ، فتأخذ منها وترفض في استقلالية وأصالة .

(٧)

لكي نكشف الى اي حـــد كان نظام التعليم الغربي بعيد الخطر في أفق المجتمع الاسلامي نقدم هذه المجموعة من الحقائق :

(اولاً): إن دراسة اللغة الاجنبية هي ولاء فكري إذا لم تدرس في إطار اللغة الاصيلةالتي يجب ان تكون قد وضعت أمام اهلها بصورة خليقة بالتقدير. واللغة العربية الفصحى لغة قد شهد لها عشرات من الاجانب ، وتميزت بهـا لغة قوم ولغــــة فكر في آن ، وقد نزل بها القرآن فأضفى عليها طاقات من البقاء والامتداد ، ولكن ما تزال اللغات الاجنبية في موضع التفضيل .

يقول هاميون كبير : إن التغير الذي حدث فيتكويننا الفكري والروحي نتيجة سيطرة اللغة الانجليزية كان تغييراً بعيد الأثر ، إننا ننظر الى العالم كله بمنظار إنجليزي ولا نتصل بالحيــاة الفكرية إلا عن طريق إنجلترا ولا نتذوق الآداب الاجنبية إلا كا يتذوقها الإنجليز بل إننـــا ننظر الى الآداب الشرقية بمنظار انجليزي » .

ومن هنـــا كانت تلك المحاولات المستمرة الى انتزاع الدراسة العربية من حضارة الدين والقرآن ، وذلك بمحاولة انتزاع حرمة اللغة العربيــة وعزلها تماماً ووصفها بأنها لغــة أمة من حقها ان تتصرف فيها ، وهو غير الحق تماماً

لأن العرب وحدهم أو اي قطر من اقطارهم لا يملك حق التصرف في اللغـــة العربية التي يحكيها سبعمائة مليون من المسلمين .

ومع ذلك تجري محاولات متعـــددة لانتقاص الفصحى بدراسة اللهجات والآداب الشعبية وتطبيق نتائج دراسات اللغات الاجنبية عليها .

ثانياً : حرصت المدرسة العصرية على إهمال العلوم العلمية والمعارف الكونية وصرف الأوقات وتضييع الجهـــد في فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة ، وذلك لتفويت الفرصـــة على الاجيال من ان تعرف جذورها ، أو تعرف بديلاً عنها علوم الغرب ، فهم لا يدرسون في التاريخ إلا الخلافات الدينية والمذهبية والخصومات التي وقعت بـين الحكام والأمراء ، وذلك كله بعيد عن أصول دراسات التـاريخ . وهم لا يدرسون إلا الفلسفات الاغريقية وصراع الايدلوجيات ولا يفرقون بين الفلسفة والعلوم بينما تفرق النظرة الاسلامية بين العلوم التجريبية والعلوم الانسانية وتجعـل لكل منها منهجها الخاص ، وهي تقبـل بمعطيات العلوم التجريبية وفق نظرة الاسلام الشاملة التي تؤمن بأن هناك حقيقة كبرى وراء كل القوى هي الحق تبارك وتعالى أساس التفسير الاصيل للحياة والكون والمجتمع وهي نظرة تقوم على الايمـــان بالله والنبوة والوحي والبعث والجزاء .

ذلك انه ليس من اليسير ان نفصل بين الاسلام وبين دراسات اللغة أو التاريخ أو العلوم ، فالاسلام بوصفه الاساس للتربية والموجه للتعليم في مجال الدنيا اولاً يتطلب ان تكون روحه واضحة بارزة في كل هذه العلوم ولا بد ان تكون العلوم الطبيعية والتجريبية قائمة على حقيقة التوحيد الاسلامي ، وعلى أساس الايمان بأن الله هو الخالق والصانع ، وأنه واضع القوانين وصاحب النواميس التي تحـكم قوى الكون والتي تحكم نظم المجتمعات ، وان كل مجتمع يخرج عن طبيعة هذه النواميس يهلك ويدمر ، وان الله سبحانه وتعالى هو الذي يمسك

هذا النظام كله ويديره بعد ان صنعه من العدم ، وأنه لا تخفى عليه ذرة من الذرات أو شيء من الاشياء فهو محيط بـه وعليم ومدبر . ومن شأن العلوم الطبيعية كما هو من شأن العلوم الاجتماعية ان تثبت التوحيد وتؤكد إرادة الله العليا على البشرية جميعاً كوناً وطبيعة وإنساناً ومجتمعات .

ثالثاً : يرد المستشرق جب والمستشرق ولفرد كابتول سمث : الإباحيـة والإلحاد اللذين يسودان الشباب المسلم الى مناهج المدرسة العصرية، يقول جب : إن النشاط التعليمي والثقافي (عن طريق المدارس العصرية والصحافة) قد ترك في المسلمين من غير وعي منهم أثراً جعلهم يبدون في مظهرهم العام لادينيين الى حد بعيد، ثم يعقب بقوله « وذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار » .

ويقول : إن التجدد والتفرنج في الشرق إنما همـا خاضعان لمقياس نظام التعليم الغربي ومدى سيطرته وتغلغله في المجتمع الاسلامي الشرقي ، والسبيل الحقيقي للحكم على مدى «التغريب» أو الفرنجة هو ان نتبين الى أي حد يجري التعليم على الاسلوب الغربي وعلى التفكير الغربي .

والاساس الاول في كل ذلك هو ان يجري التعليم على الاسلوب الغربي وعلى المبادىء الغربية ، وهـذا هو السبيل الوحيد ولا سبيل غيره . وقد رأينا المراحل التي مر بهـا طبع التعليم بالطابع الغربي في العالم الاسلامي ومدى تأثيره على تفكير الزعماء المدنيين وقليل من الزعماء الدينيين .

أمـا كابتول سميث فيقول : إن أهم أسباب حركة الحرية والإباحية التي تسود العـالم الإسلامي اليوم ومن اكبر عواملها نفوذ الغرب ، وقد حازت قصب السبق في هـذا المضمار تلك المعاهد الثقافية التي قامت بتربية جيل بأكمله على النمط الغربي الحديث . وكان مما صدره الغرب الى العالم الاسلامي تلك الأفكار المتعددة الجديدة التي تقع من الأهمية والدقة بمكان ، والاتجاهات

العقلية الدقيقة والميول الحديثة التي كان في نشرها أوفر نصيب لنمط التعليم الغربي الحديث ، ويفوقهـــا في ذلك تأثير معاهد الغرب الحقوقية والسياسية والاجتماعية الجديدة ونفوذها الزائد .

ومنها ما يسلط اجيالاً ومـــا يحاول تسليطه ، وبينما قام بعض المسلمين لمقاومة هــذا التيار رحب به البعض الآخر ، ان بعضهم قد وقع تحت تأثير هذه التربية رسمياً وبعضهم قــد رحب بهذا التيار بدافع من أنفسهم ، وانتج ذلك ان كثيراً من المسلمين اعترفوا بهـــذه النظريات والمعاهد كحقيقة ثابتة وخضعوا لها بالتدريج وهكذا استمر عمل التغريب بسرعة وقوة بالغتين. ولقد صرف تيـار نظام التعليم الغربي الشباب الاسلامي في البلاد العربية والعجمية (الذين كانوا زبدة أمتهم وزهرة بلادهم) وغيّر عقليتهم الى حد ان عقولهم أصبحت لا تستطيع ان تسيغ الاسلام الصحيح وأصبحوا لا يندمجون في المجتمع الاسلامي : «ان سحر الافرنج أذاب الصخور وأسالها ماء » .

ومن هنا نعرف الى أي حد أضعف النظام الغربي في التعليم الروح المعنوية في الشباب المسلم وجنى على رجولته «فأصبح شباباً رخواً رقيقاً مائعاً لا يستطيع الجهاد ولا يحتمل المكروه» وكيف فتح له الطريق الى الأهواء في عالم الفكر والبحث والى الترف والإباحية في محيط الحياة ، وكيف يحمل الدارس المسلم للغرب في ذهنه صورة رائعة بينما يحمل صورة ساخرة لمجتمعه وأمته .

وفي الجانب الآخر من هــذه الصورة نرى الرجل الغربي المسلم : ليوبولد فايس«محمد اسد» يطلع المسلمين على الحقائق للتي أخفاها المزيفون من التغريبيين فيقول : إن التعليم الغربي يحمـــل روحاً مستقلة وضميراً منفرداً تتجلى فيه عقيدة مؤلفيه وعقلية واضعيه وهو نتيجة التقدم الطبيعي في آلاف السنين وتعبير أفكار أهل الغرب ومجموع اقدارهم وقيمهم[1]، فإذا طبق في بلاد إسلامية

---

(١) نقلاً عن العلامة ابو الحسن الندوي .

أو مجتمع إسلامي يحدث بـــه قبل كل شيء صراع عقلي ثم يتدرج الى تعزيز العقيدة والردة الفكرية والدينية .

ذلك وان الاسلام والمدنية الغربية يقومان علىفكرتين فيالحياة متناقضتين تماماً ، لا يمكن ان تتفقا ، فإذا كان ذلك كذلك فكيف نستطيع ان نتوقع ان تظل تنشئة أحـداث المسلمين على أسس غربية ، تلك التنشئة القائمة في مجموعها على التجارب الثقافية الأوربية وعلى مقتضياتها خالصـــة من شوائب النفوذ المعادي للاسلام . إن التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ستفضي حتماً الى زعزعة إرادتهم في ان يعتقدوا أو ان ينظروا الى أنفسهم على أنهم هم ممثلو الحضارة الإلهية الخاصة التي جاء بها الاسلام، وليس ثمة من ريبفي ان العقيدة الدينية آخذة في الاضمحلال بسرعة بين المتنورين الذين نشأوا نشأة غربية ».

رابعاً : تستطيع التربية الاسلامية ومنهجها في التعليم ان تقدم للبشرية ذلك الطموح الذي طالمـــا تطلع اليه المصلحون والطوبيون ، وهو مساهمة البشرية جميعاً في بنـاء المجتمع الرشيد ، وذلك عن طريق اعتناق نظرتها الى الانسان ككل موحـد ، بعيداً عن محاولات تمزيقه بين الحيوانية والتأليه ، وبوصفه مستخلفاً في الارض ، له إرادته الحرة وعليـــه مسؤوليته الكاملة، وامامه الضوء الكاشف الذي جاء به الوحي ليملأ نفسه بالطمأنينة والسكينة والسلام ويفتح له آفـــاق العمل والسعي في الحياة الدنيا خالصة لله ولإقامة الإخاء البشري بين الناس جميعاً .

وصدق الدكتور الجمـــالي حين قال إن اسس الاسلام في التربية والتعليم يمكن ان تفتح الطريق لكل اساس صحيح وثابت لبناء تربوي قويم يقوم على:

(١) الايمان بالخالق .

(٢) العمل الصالح لخدمة الانسان والاسرة والأمة والانسانية .

(٣) التواصي بالحق: والسعي وراء الحقيقة وتحري العلم والمعرفة الصحيحة ونشرها بين الناس .

(٤) التواصي بالصبر : ويشمل العمـــل على ضبط النفس والتغلب على الشهوات والاندفاعات العنيفة الهوجاء ، فإن ضبط النفس يعد المفتاح الكل سلوك أخلاقي كريم وسورة «العصر» فيها تلخيص كل فلسفة تربوية صحيحة.

إن كلا من الايمـان والعمل الصالح والعلم والاخلاق يجب ان تسير معاً وبصورة موحدة منسجمة .

ويقول : ومن المؤسف ان التربية الغربية قد أظهرت ضعفها في هـــذه النواحي سواء في التطبيق في الغرب ذاته أو مما اقتبسه العالم الاسلامي من الغرب .

خامساً : إن نظريات الغرب سواء في العلوم أو الآداب أو التربيـــة هي مجموعة من المحاولات والفروض التي تعرض على مجال البحث والتطبيق فتصدق أو تفشل، فعلى المسلمين ان ينظروا اليها كذلك ولا يرونها حقائق أو مسلمات وإنما هي « تجارب بشر يخطىء ويصيب ويمشي ويتعثر » ولا نأخذها على أنها اشياء قد بلغت نها يتها، بل انها مواد خامة ونصنع منها ما نشاء وفق حالتنا وحاجتنا وتفرعها في قالبنا ونجردها مما اقترن بها من عوامل الإلحاد والإفساد والاستخفاف بالقيم الخلقية ثم نطبعها بطابع الايمان بالله والنظر العميق » [١] .

ولعل من اخطر ما يواجه الجامعات الغربية ويحاولون نقله الى أفق التعليم الاسلامي ذلك الخلاف العميق بين الثقافتين : ثقافة العلم وثقافة الأدب . فإن العالم الغربي يعيش في صراع عميق بين جو العلم وجو الفلسفة وجو الفن وجو الأدب ويقولون : إن العلم الطبيعي والأدب قد شق الناس شقين فإذا اجتمع أحدهما بالآخر فكأنما اجتمع غريب من الناس بغريب وأهل العلم الطبيعي هم أهل الجفاف وأهل العلم الانساني هم أهل الطراوة .

---

(١) من نص للعلامة ابي الحسن الندوي .

ونحن في أفق التعليم الاسلامي لا نحس بهذه الظاهرة الخطيرة لأن مفهومنا للحياة جامع ومتكامل ولا يجعل بين العلم والأدب أي نوع من الصراع . أما في الغرب فكلاهما مخدوع ، العالم الذي يظن أنه عرف كل شيء ، وهو لم يعرف إلا تفسير ظواهر الاشياء ، والأديب الذي يجري في أودية الأهواء والرغبات النفسية الجائحة ، لماذا لا يلتقي طرفا الصراع في منهج التربية الاسلامي الذي يجعل من العلم والأدب طرفين متكاملين لا عدوين متعارضين.

سادساً : لا سبيل الى قيام نهضة عربية إسلامية في مجال العلم التجريبي إلا في إطار اللغة العربية ، وكل دعوة الى قبول العلم في لغات الغرب هو تعويق لهذه النهضة ومحاولة لحجب المسلمين عن اللحاق بركب العلوم والتكنولوجيا ، وكل ما يذاع عن اتهام اللغة العربية بالتقصير خطأ وادعاء . فإن تجربة تعليم العلوم باللغة العربية قد قامت فعلا في اخطر المجالات وهي الطب وحققت نجاحاً كبيراً . فما زالت اللغة العربية قادرة كأقوى لغات العالم على الاشتقاق والتعريب والتصريف ، وإن تجربة دراسة الطب فيجامعة دمشق أثبتت بالحجج الدامغة نجاح التجربة وأوردت ما يفحم المعارضين وما يوضح ان اللغة العربية قادرة على الاطلاع بأعباء التعليم الطبي والعلوم الاخرى [1] .

وقد سقطت تماماً الآن الحجة التي يتذرع بها خصوم العرب والمسلمين وهي مسألة المصطلحات العلمية والأسماء الجديدة فقد أوفى ما اعد منها على اكثر من خمسين الف مصطلح . ويحذرنا الأستاذ محمد أسد من خطر احتوائنا داخل بوتقة الفكر الغربي إذا ما أردنا نقل العلم التجريبي : « وإذا كان المسلمون قد أهملوا فيما مضى البحث العلمي فإنهم لا يستطيعون ان ينتظروا إصلاح هذا الخطأ اليوم عن طريق قبول للتعليم الغربي من غير وازع ما ، إن كل تأخرنا

---

(١) دكتور عزة مريدن : عميد كلية طب جامعة دمشق (العربي نوفمبر ١٩٧١) .

العلمي وكل فقرنا لا يوزنان بذلك التأثير المميت الذي سيحدثه تقليدنا الأعمى لنظام التعليم الغربي في قوى الاسلام الدينية الكامنة . وإذا أردنا ان نحفظ حقيقة الاسلام الدينية الكامنة على أنها عنصر ثقافي فيجب علينا ان نحترس من الجو الفكري للمدنية الغربية؛ ذلك الجو الذي أصبح على وشك ان يتغلب على مجتمعنا وعلى ميولنا، وبتقليد عادات الغرب وزيه في الحياة يصبح المسلمون تدريجياً مضطرين الى الأخذ بوجهة النظر الغربية » .

ومن هنا نفهم أننا لا بد ان ننقل العلوم الى اللغة العربية اولاً ونحركها في دائرة فكرنا .

سابعاً : إن كل محاولة لرتق الثوب الخلق بقطعة من هنا أو من هناك هي محاولة باطلة ، فلا بد من إعادة بناء منهج التربية والتعليم الاسلامي على اساس قرآني إسلامي أصيل ، وفق مفهوم الاسلام نفسه ، وبذلك وحده يمكن تحرير التعليم من آثار مختلف المذاهب الغربية المادية المتغايرة المتضاربة التي حملت على مدى العصور المختلفة والبيئات المتباينة فوضعت داخل إطار التعليم حتى لا يصل أصحابها إلا الى الاضطراب الفكري والازدواج التربوي والتمزق النفسي وحتى لا يستطيع الدارس المسلم ان يجد وجهاً لرؤية الحق أو الاهتداء الى الطريق .

فهناك العقلانية والمادية والماركسية والوجودية والفرويدية والبرجماتية والديوية ، كلها تتضارب وتتماكس وتفسد كل شيء ، ويقف الاسلام منها في أصوله القليلة المنثورة هنا وهناك موقف الحيرة كأنه شيء غريب أو منبوذ .

والسبيل الاصيل هو ان يكون للعلوم التجريبية منهج وللعلوم الإنسانية منهج آخر وان لا يدرس الانسان في دائرة المادة أو دائرة الحيوان .

وللمسلمين قانون هو الشريعة الاسلامية وفيه نظام السياسة ونظام الاقتصاد ونظام الاجتماع ونظام الحقوق . ولهم وجهات نظر في كل أمور الحياة هي

الآن بعيدة تماما أو مستبعدة ، وكذلك فإن للمسلمين علماً للنفس والاخلاق ومفهوماً متكاملاً يختلف عما تقدمه مدرسة التحليل النفسي ومدرسة دوركايم ومدرسة العلوم الاجتماعية، ونظرة الاسلام للانسان والحياة والمجتمع مختلفة اساساً مع نظرة الغرب، فهي نظرة جامعة فيها الروح والمادة والعقل والقلب، بينما تنشطر النظرة الغربية نحو شطر واحد هو المادة، ونظرة الاسلام اخلاقية الجذور بينما تقوم النظرة الغربية على الحرية الأخلاقية ، ونظرة الاسلام تجمع بين الثوابت والمتغيرات بينما النظرة الغربية متغيرة مطلقة . كل هـذا له أثره البعيد في ضرورة بناء منهج التربية والتعليم من جديد .

ثامناً : نحن نجـد ان جميع الأمم تربط علومها بعقيدتها وتربط تعليمها بمذهبهـا وتجربة الدولة الشيوعية مثال يقدم في هـذا الصدد باعتبارها دولة عقائدية فهذه «روسيا لم تأخذ بمبدأ التعليم والتربية من حيث هو مبدأ إنساني عالمي وتراث بشري مشاع ، ومـاء صافٍ سائغ ولم تسمح باستيراد منهج من مناهج التعليم خارج المعسكر الشيوعي ولا بإدخال العلوم والآداب التي نشأت في حضـانة المربين البرجوازيين أو الأرستقراطيين والتي طعمت بأفكارهم ونزعاتهم وطرق تفكيرهم ويخاف منها إضعاف العقيدة الشيوعية أو التشكيك فيها. لقد اخضعت روسيا جميع العلوم والآداب النظرية فيها والتطبيقية حتى علوم الطبيعة والجغرافيا والتاريخ لمبادئها الشيوعية ولنظرات قادتها ومؤسسي دعوتها : ماركس وإنجلز ولينين ، وربطت بين هذه العلوم وبين اسس اولئك القـادة رباطاً وثيقاً مقدساً تغار عليه غيرة المؤمنين القدامى على عقائدهم وحرماتهم ، يقول جورفن العالم الطبيعي السوفييتي : « إن العلم الروسي ليس قسماً من اقسام العلم العـالمي ، إنه قسم منفصل قائم بذاته يختلف عن سائر الاقسام كل الاختلاف ، فإن سمة العلم السوفييتي الأساسية انه قائم على فلسفة واضحة متميزة ، إن التحقيقات العلمية لا تزال في حاجـة الى اساس وإن اساس علومنا الطبيعية هو «الفلسفة المادية» التي قدمها ماركس وإنجلز ولينين وستالين . إننا نريد ان نخوض وفي ايدينا هذه الفلسفة في معترك العلم

الطبيعي ونصارع جميع التصورات الأجنبية التي تناهض فلسفتنا المادية والماركسية بكل حزم وقوة » .

وبذلك استطاعت ان توفق بين العلوم التي احتاجت اليها والمبادىء التي آمنت بها وجعلت منها وحدة متناسقة ولم تترك فجوة بين الحياة التي تعيشها او تسعى اليها وبين المبادىء التي تؤمن بها وتدعو اليها في حماسة وبذلك سلمت من الاضطراب الفكري والقلق النفسي الذي يسود عالماً تتوزعه القوى المتناقضة ويسوده النفاق والتناقض »[1] .

وكذلك نجد في إسرائيل بعد الاتحاد السوفييتي نظرية التعليم من اجل دعم نظرية الحياة لأمة ، فهي تتمسك بمبدأ تقديم الفكرة الدينية واللغة العبرية التي تعبر عنها رغم جميع الاتجاهات التقدمية ، ويرى المربون اليهود ان التقاليد الدينية اليهودية هي النبراس الذي تهتدي به نظم التعليم ويحتم على المعلمين ان يكونوا تقليديين، اي ان يحرصوا على التقاليد اليهودية الأصولية[2].

---

١ و ٢ الاستاذ الندوي : نحو تربية إسلامية حرة .

الفصل الثالث

الثقافة الاسلامية

« الثقافة » هي الشطر الثالث من بناء الأجيال : فإذا كانت (التربية) لاعداد النفس والعقل الإنساني معاً للتلقي في إطـــار الدين والخلق والرسالة القائمة للأمة وللفرد معاً، وإذا كان(التعليم) هو بناء القدرات وتكوين الأطر، وتلاقي العناصر في الكل المتكامل فإن (الثقافة) هي الثمرة الناتجة التي تمثل جوهر الفكر وأصالة الأمة وروح الجماعة .

ولقد كان النفوذ الغربي حريصـاً على تغريب الثقافة لأنها هي الحصيلة الكبرى والنتاج الأعلى لكل معطيات التربيـة والتعليم ، ولذلك فقد ركز عليها تركيزاً خاصاً ، واستطاع ان يضربها من خلال إفساد مناهج التربية والتعليم وصولاً الى تمييعها وصهرها في بوتقته واحتوائها .

ولذلك فقدجرت المحاولة الى تزييف اجيال الثقافة بالقول بأنها نتاج عالمي لا يخضع لما تخضع له القيم القومية والوطنية ، كما جرت المحاولة لربطها بالحضارة فنودي ان من يصطنع الحضارة الغربية لا بد ان يصنع الثقافة الغربية ، وكان ذلك من محاولات تتبيع الثقافة الإسلامية للغرب في محاولة للقضاء عليها .

ولا ريب ان ثقافة اي امـــة من الامم تعتمد اساساً على عقائدها وقيمها الاخلاقية والاجتماعية التي تكونت عليها وسارت بهـا وانها تقوم في الأساس على المثل العليا للأمـة ، وتنطبع بطابع ذاتيتها الخاصة . ولقد تلتقي الأمم في مجالات العلم التجريبي والمعارف العامة ولكنها تتباين تماماً في مجال الثقافة ، فإن النظرة الاجتماعية والأخلاقية والتربوية في كل أمـــة تشكل على أساس وجدانها ومزاجها النفسي وذاتيتها المنبعثة من عقيدتها وقيمها .

وذلك هو أساس الخـلاف بين الثقافة الاسلامية وبين الثقافات المختلفة : شرقية أو غربية ، ولا ريب ان هناك عناصر مشتركة بين الثقافات هي العناصر الإنسانية العامـــة ولكن اخطر ما تحاذر منه الأمم ان تحتوى في ثقافتها بحجب طابعها العقائدي أو تزييفه ، وهذا ما حاولته حركة الغزو الفكري والتغريب التي واجهها العالم الاسلامي منذ ان بدأت المعركة بينه وبين الغرب .

والمحاولة الطارئة تريد ان تحجب الثقـافة الاسلامية عن طابعها العقائدي من ناحيـــة وان تعزلها عن تاريخها وقديمها وعن تراثها ، وذلك بتصور ان الثقافة الحديثة بدأت مع الحملة الفرنسية وان كل ما سبق ذلك يدخل في عداد الماضي ، فلا يؤذن له بالسيطرة أو التأثير على التكوين الجديد للثقافة أو الفكر أو الأدب .

وتلك نظرية مسمومة حـــاربتها حركة اليقظة الإسلامية بقوة وقاومتها مقاومة صامدة مريرة حتى كشفت زيفها .

ونحن نعرف أنه لا سبيل الى انتزاع أي أمـة تحت اي تقسيم سياسي ، على اساس الوطنية أو القوميـــة أو التجزئة أو الاقليمية عن ذلك الكيان الفكري والروحي والنفسي المتكامل الذي عرفه المسلمون جميعاً خلال اربعة عشر قرناً .

وإن هـذه التقسيمات التي فرضها الاستعمار لن تستطيع ان تغير الحقائق الثابتة أو تحطم القيم الأساسية، وإن المسلمين مهما قسمتهم الظروف السياسية الى أقطار ودول وكيانات فإنهم لا ينفكون مرتبطين برباط وحـــدة الفكر والثقافة التي تقوم في الأساس على القرآن وتستمد وجودها من كلمة التوحيد.

وقد ارتبطت الأمم بعقائدها وتراثها وتاريخهـا وماضيها ارتباطاً عجزت كل القوى عن الإدالة منه . أما المسلمون فقد قامت هذه الروابط بينهم خلال اربعة عشر قرناً فأصبحت هذه الأوطان «إسلامية التاريخ والسياسة والمجتمع والثقافة» الى ان جاءت نظم التربية الحديثة فأرادت ان تنزع عنها هذا اللون المميز لها عن جميع الثقافات الاخرى .

(٢)

واجهت الثقافة الاسلامية في ظل النفوذ الأجنبي محاولة احتوائها وفرض مفاهيم غريبة عليها بغية تدمير مقوماتها وكان ذلك جرباً مع المحاولات التي وجهت الى التربيـة والتعليم ، فكان ابرز الشبهات التي أثيرت مـا دعي بعالمية الثقافة ، وتفتح الثقافات والتقائها بل وامتزاجها .

وهي دعوى باطلة لم يثبت صدقها ، بل ثبت على العكس من ذلك تصميم الباحثين عن الثقافة في كل آفاق الفكر العـالمي على التمسك بذاتية الثقافة وارتباطها بالأمة وانتمائها العقائدي والتاريخي .

فالثقافة في إجمـاع الباحثين هي موقف فكري وعمل من تراث البشرية وهي تحقيق للقيم الثابتة في أمة معينة، وهي نسيج وحده من النظم والأفكار والعقائد والأهداف والآمال والمثـل العليا . كذلك فإن لكل مجتمع ثقافته التي يتسم بها ولكل ثقافة مميزاتها وخصائصها التي تحدد شخصيتها ، بل لقد رأى البعض ان الثقافة ليست مجموعة من الأفكار ولكنها نظرية في السلوك . وان الحضارة والعـلم ينتقلان من امة الى امة لقابليتهما للانتشار ، أما الثقافة فتبقى خاصة بكل امة على حـدة وإن أثرت ثقافات الأمم بعضها في بعض قليلا أو كثيراً ، وفي نظر سينكلر ان الثقـافة هي القوة الروحية المخصصة الوجود في الأمة بالصورة الحسية بمعنى ان هذه القوة الروحية المتصلة بها آثار

النشأة الدينية والعلمية مزاج يختلف عن مزاج . بل إن (تايلور) وهو باحث غربي ايضاً يقرر ان الثقافة هي الكل المركب الذي يتضمن المعارف والعقائد والفنون والاخلاق والقوانين والعبادات وأي قدرات وخصال يلمسها الانسان نتيجة لوجوده كعضو في المجتمع .

كذلك فقد حاولت الشبهات ان تفصل الثقافة عن العقيدة ، بينما يؤكد الباحثون جميعاً بأن الثقافة تكاد تكون هي العقيدة نفسها . وان الرابطة بين الثقافة والدين هي رابطة جذرية بحيث لا يمكن لأي ثقافة من الثقافات ان تظهر أو تنمو إلا إذا كانت لها صلة بدين من الأديان . وقال اليوت : إن الثقافة مظهر من مظاهر الدين ، فإذا نظرنا الى علاقة الاسلام بالثقافة وجدنا الاسلام نظاماً اجتماعياً شاملاً يعد الدين جانباً من جوانبه فقد رسم لمعتنقيه اسلوب العيش وطريق الحياة. وليس من ريب في أهمية عنصر الدين في الثقافة الاسلامية من حيث إنه العامل المسيطر على حياة المجتمع كله حتى لقد أشار بعض الباحثين الغربيين بأنه من العسير على الغربي ان يفهم حياة الشرق الاجتماعية دون ان يفهم الاسلام وهو الدين الذي تدين به الجماعة ، ولعل من أكبر اخطاء الغربيين وقصور نظرتهم وبعدها عن الإنصاف هو النظر الى الاسلام على أنه دين عبادي لاهوتي .

وفي ضوء هذه المحاولة الخطيرة نحن في حاجة دائمة الى المحافظة على الخصائص والمقومات الجوهرية للثقافة الاسلامية مع القدرة على الحركة والأخذ والعطاء .

وليست الثقافة الاسلامية كما يظن البعض شرقية وليست غربية وليست مركباً للثقافتين الشرقية والغربية ، ولكنها ثقافة مستقلة استمدت وجودها من منهج القرآن الكريم ومفهوم الاسلام الذي قام على التوحيد الخالص ، في إطار اللغة العربية .

وهي ثقافة تنفرد وتتميز عن ثقافات الشرق والغرب بأنها تقوم على

التكامل الجامع بين القوى المختلفة : الروح والمادة ، العقل والوجدان ، الدنيا والآخرة وان توازن بين هذه القوى وتوائم بينها في اتساق عجيب يعجز عن فهمه اصحاب الثقافات الانشطارية .

وتتسم الثقافة الاسلامية بسمات تكاد تكون خصائص مميزة لها :

فهي توازن بين الروحي والمادي ، وتجعل أولية « الخلقي » على الجمالي وتقرر طابع الإنسانية والشعور بكرامة الانسان وتعمل على إقامة الأخوة الانسانية .

وهي تطبع حركتها بطابع الأخلاق ، وتقيم منهجها على أساس الالتزام الأخلاقي في السلوك والعاطفة ، وفي ضوابط الشهوات وفي الإيثار للغير .

وهي ترمي الى إقامة العدل ، وتتسم بالنظر العقلي، فيها البيان والوضوح بعيداً عن الغموض والرمز ، كما تتسم بالاتزان ، والإحاطة والشمول .

والثقافة الاسلامية هي ثقافة عربية من حيث الوعاء فبقدر ما دخل الإسلام من الفرس والترك والهنود فإن كل منجزات الثقافة كتبت باللغة العربية إلا القليل، فقد جرى التفكير في دائرة الاسلام وإطاره ، وكانت اللغة العربية : لغة القرآن هي أداته ، كتب بها الفارابي التركي وابن سينا الفارسي وابن الرومي .

فهي ثقافة إسلامية المضمون عربية اللسان ، شاركت في نشأتها شعوب مختلفة الأجناس انطبع فكرها بروح الاسلام التي استعلت على العنصريات والدماء والألوان ولأن الثقافة الإسلامية قامت على التوحيد فقد تحررت تماماً من الخرافات والوثنيات والأساطير والعصبيات .

وكان لها موقفها الواضح الصريح إزاء الثقافات الشرقية والغربية التي واجهتها ، فهي لم تنصهر فيهذه الثقافات ولم تصهر هذه الثقافات في بوتقتها، بل أخذت منها ما يتفق مع روحها وطابعها ثم صهرت ما أخذت ونفت عنها كل ما عارض مقوماتها الأصيلة .

وقـــد رفضت الثقافة الاسلامية منطق اليونان وأقامت منطق القرآن كما تجاوزت منهج النظر العقلي الى منهج التجريب العملي وفتحت الطريق أمـام التقدم العلمي في مجـال الطب والفلك والعلوم الطبيعية والرياضية ، فقد بدأ المفهوم العلمي عنـــد المسلمين مستمداً من القرآن الكريم اساساً ومن دعوته الصريحة الى النظر في الكون والاهتمام بالعلم وآية ذلك ان كلمة علم وردت في القرآن (٨٥٠ مرة) وان أول أمر استخدم في القرآن هو كلمة « اقرأ » وان أول أداة ذكرت في القرآن هي (العلم) والاسلام هو الذي أمر معتنقيه باتباع المنهج العـــلمي والقرآن هو الذي أطلعهم على ان للكون سنناً وقوانين ليس فقط في مجال الطبيعة بل وفي مجال المجتمعات والحضارات .

وقد تبين للباحثين المصنفين خطأ الرأي الذي حمل لواءه (أرنست رينان) والذي ساد بين دعاة التغريب سنوات طويلة وتابعه كثير من المتعصبين واعداء الاسلام وهو القائل بأن الفلسفة الاسلامية هي فلسفة يونانية مكتوبة بحروف عربية وتأكد ان للاسلام منطلقاً الى فلسفته هو ما قدمه الامام الشافعي في علم أصول الفقه وثبت أنه لا منطق أرسطو ولا الفلسفة الهلينية أو الفارسية أو الهنـــدية قد خلقت أو حولت الفكر الاسلامي والثقافة الاسلاميـة عن مسارها القرآني ، وإنمـا بقي الفكر الاسلامي والثقافة الاسلامية ثمرة أصيلة للتوحيد الاسلامي وأنه قد تجاوز الفكر اليوناني الى إنشاء المذهب التجريبي الذي هو نتاج إسلامي خالص بشهادة مختلف علماء الغرب المنصفين .

(٣)

إن اخطر قضايا الثقافة الاسلامية هو قضية الازدواجية :

وقد ناقش العلامة الاستاذ محمد المبارك هذه القضية في بحث ضاف أشار فيه الى ان الثقافة التي تكون الجيل المسلم في البلاد الاسلامية في العصر الحاضر مزدوجة المصدر ومؤدية بالنتيجة الى عقليتين مختلفتين .

فهناك ثقافة تلقن في المدارس التي أنشأتها الحكومات في البلاد الاسلامية على نمط المدارس المنشأة في البلاد الأوربية من ابتدائية وثانوية وعالية ، وهذه الثقافة بشكلها الحاضر وجميع ملابساتها أخذت واقتبست من الثقافة الاجنبية وهي محتوية على مواد علمية خالصة : كالرياضيات والطبيعيات بفروعها المختلفة وعلى أفكار وعقائد ومفاهيم مأخوذة من العقائد والمفاهيم السائدة في أوربا أكانت مادية إلحادية أم دينية وعلى أساليب للتعلم وطرائق للبحث وهي نتيجة لتجارب طويلة واختبارات متوالية ، وقد ألصق احيانا بهذه الثقافة رقعة متميزة عنها هي (مادة الدين) وفيها يعلم الاسلام وأحكامه وعقائده وهي مادة في كثير من البلاد الاسلامية تختلف في طريقة عرضها وتعليمها وفي مفاهيمها ومنطلقها اختلافاً كبيراً عن بقية المواد الثقافية ولذلك لا يكون أثرها قوياً بل قد يحدث التنافر بين هذين اللونين من الثقافة نتائج سيئة في عقول الطلاب ونفوسهم .

إن هذه الثقافة المقتبسة من بلاد تختلف عن البلاد الاسلامية في عقائدها وأفكارها وفي عاداتها ونظام حياتها بقيت هي الأسس للنظام الثقافي في البلاد الاسلامية وفي جميع دوجات التعليم من ابتدائي وثانوي وجامعي وولدت في أبناء المسلمين عقلية مشابهة للعقلية الأوربية في مفاهيمها وأفكارها ونظرتها للحياة ، ولا قيمة بعد هذا لبعض المظاهر الاسلامية أو الشعائر الدينية التي قد يحافظ عليها بعضهم لأن الاساس الفكري ليس اساساً إسلامياً سليماً ولا يولد تفكيراً ولا سلوكاً إسلامياً في الحياة الفردية والاجتماعية ، ذلك لأن الجو العام لهذه الثقافة هو جو فلسفة خاصة مغايرة للاسلام ، لأن الثقافة حتى في المواد العلمية الخالصة منها كالكيمياء والفيزياء شحنت بأفكار لا علاقة لها بها في الاصل ولا هي من مستلزماتها ولكنها دست فيها وخالطت نظرياتها وتجلت في تعابيرها حتى كان هنالك اقتران بين هذه العلوم التي تدرس الطبيعة والمادة والمذاهب الفلسفية الطبيعية والإلحادية التي عاشت معها وعاصرتها في أوربا .

إن هذه العلوم الطبيعية ضرورية جداً ولكن يجب تحريرها مما علق بها وصياغتها صياغة جديدة تتفق مع العقيدة الإسلامية أو لا تعارضها على الاقل. كما ان هذه الثقافة الحديثة يجب ان يستفاد مما تشتمل عليه من اساليب العرض الحسنة ومناهج البحث الصحيحة ، ففيها الكثير النافع مما وصلت اليه تجارب الانسان في تقدمه الفكري والحضاري .

أما المصدر الثاني للثقافة في البلاد الاسلامية فهو الثقافة الاسلامية الموروثة وهي التي تعلم في حلقات العلماء والمدارس الدينية القديمة التي استمر بعضها والمعاهد العالية كالأزهر والزيتونة والقرويين .

إن هذه الثقافة إسلامية الاساس ولكن تعاقبت عليها القرون واختلطت فيها المذاهب والآراء وتشعبت بها الطرق والمسالك حتى غدت خليطاً من تعاليم الاسلام في كتابه الكريم وسنته النبوية ، ومن طرائق المتكلمين على

اختلاف منازعهم ومذاهبهم وما شاب الكلام من الفلسفة اليونانية وافكارها ومن مذاهب الفقهاء ولا سيما في العصور التي ضعفت فيها المدارك وانحط فيها التأليف ، وضاقت فيهـــا مذاهب التفكير وابتعدت عن مصدري الاسلام الأساسيين « الكتاب والسنة » وسد باب الاجتهاد ، والتزمت فيهـــا أقوال الشيوخ ، دون النظر الى دليل الكتاب والسنة وأقوال الصحابة وكبار الائمة المجتهدين ، أضف الى ذلك كله مـــا خالط الثقافة الاسلامية من علوم اخرى لا تزال تدرس كما كانت في العصور السالفة ، مع ان تقدماً كبيراً طرأ عليها وتغيرت نظرياتها وحقائقها تغـيراً أساسياً : كالفلك وسائر العلوم الطبيعية وليست هي في الاصل من العقائد حتى لا تتبدل أو من العبادات حتى يتوقف عندها ، بل هي من تجارب الانسان في هذا الكون ومن علمه وتأمله فيما خلق الله (الذي يزداد يوماً بعد يوم) .

إن العقلية التي تكونها هذه الثقافة الاسلامية القديمة تختلف اختلافاً كبيراً عن العقلية التي تكونها الثقافة الحـديثة ومن هنا ينشأ الصراع في المجتمع بين عقليتين ويظهر هذا الصراع في مجالات كثيرة في التربية والتعليم وفي المجتمع والسياسة وفي غيرها من المجالات . وهو صراع له نتائجه سواء أكانت الجبهة المنتصرة هذه أو تلك، لأن الصراع بني على اساس فاسد ولأنه صراع خاطىء يصور الاوضاع على غير حقيقتها ويجعل المسلمين فيجبهتين وهم ليسوا كذلك، وليس كل مـــا في الثقافة القديـمة واجب الالتزام اسلاميـــاً وليست كل عناصره إسلامية حتى يجب الدفاع عنها وكذلك الثقافة الحديثة ليست كلها منافية للاسلام حتى توضع موضع الخصومة .

ولذلك يقترح العلامة محمـد المبارك وضع نظام ثقافي إسلامي موحد غير مزدوج الروح والمصدر يستهدف صبغ التعليم في جميع درجاته وألوانه بالصبغة الاسلامية أي ان يكون الجو العام للثقافة والتعليم هو جو العقيدة والمفاهيم الاسلامية مع اختيار الطرق والاساليب الصالحة المناسبة لتعليم الدين وإدخاله

فيالنفوس ووصل ما بين الدين والحياة بعرض المشكلات الحاضرة علىاختلاف أنواعها على أساس الاسلام ونظرته وسد حاجات المجتمع الاسلامي عن طريق التعليم بمختلف تخصصاته ودرجاته .

والوقوف أمــام الأنظمة الثقافية الاخرى التي غزت العـــالم الاسلامي بإحداث وعي إسلامي عام بحيث يكون هذا الوعي -العقلي والنفسي- وعياً لمبادىء الاسلام وتعاليمه وقضـــايا الاسلام الكبرى في العصر الحاضر ووعياً لوحدة العالم الاسلامي ومصادر قوته وما يجابهه من أخطار .

(٤)

إن النظرة الفاحصة لوجوه الالتقاء والاختلاف بين الثقافة الاسلامية والثقافات الغربية تجد محاذير كثيرة جديرة بأن تكون واضحة أمام الباحث المسلم :

(أولاً) لا ترى الثقافات الغربية ان الدين جزء اساسي من تكوين فكرها وثقافتها وترى ان المسيحية الشرقية كانت عارضاً من العوارض التي التقت بها وأصابتها بالانحراف لأنها نقلت اليها « روح النسك » الآسيوية ، ولكن الثقافة الغربية استطاعت امتصاص هذا الرافد وصهره في روحها الاساسية التي تدين للوثنية اليونانية وحضارة روما القديمة .

بينما تؤمن الثقافة الاسلامية بالدين جزءاً اساسياً لا ينفصل عن المجتمع.

(ثانياً) تؤمن الثقافة الغربية بأن محتواها العلمي والأدبي والفني والصناعي إنما يهدف الى خدمة الانسان الأوربي قبل غيره وعلى حساب غيره ، وليس الى خدمة الانسان بصفة عامة أو من حيث هو بشر .

بينما تؤمن الثقافة الاسلامية بالطابع الانساني وترى ان قيمها إنما هي لخدمة البشرية جميعاً .

(ثالثاً) تؤمن الثقافات الغربية بحلول للمشاكل والقضايا على قاعدة القوة

وأسلوب الميكافيلية التي تنفصل فيه الاخلاق عن السياسة وعلى قاعدة الغاية التي تبرر الواسطة .

بينما تؤمن الثقافة الاسلامية بالحلول الأخلاقية ولا تبرر الوسيلة عنــــدها الغاية ، بل لا بد للغايات الشريفة من وسائل شريفة .

(رابعاً) تقوم الثقافة الغربية على أساس انفصال الضمير عن العلم وسيادة المادة على الضمير ، بينما تؤمن الثقافة الاسلامية بأن الضمير أساس العلم والحضارة.

(خامساً) تنطلق الثقافات الغربية من نظرة تحاول ان تصور الانسان بأنه عبد لغرائزه ونزواته وان العقل الباطن هو العامل المسيطر في توجيه حياته، وبهذه النظريات أدخلت الانسان الى حظيرة الحيوان، وهذه المفاهيم تتعارض تماماً مع مفاهيم الثقافة الاسلامية التي ترى للانسان كرامة تعلو على المخلوقات جملة وترى له سيادة تحت حكم الله ترفعه بالعقل وتكرمه بالايمان .

(سادساً) تعلي الثقافات الغربية العنصريات والأجناس والدماء ، وتحاول ان تجعل للبيض والغربيين امتيازاً على الأجناس الملونة. وتحاول بهذا الإعلاء ان تجعل لها حق السيطرة والقيادة .

وهذا المفهوم يختلف تماماً مع مفهوم الثقافة الاسلامية التي ترى ان الناس سواسية وإخوة ، وأنه لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل .